الفنــاء عند المسلمين

تأليف

الأستاذ الدكتور

شوقي بشير عبد المجيد

دار الألباب

تمهيـــــــــد

عرف الاصطلاح بأنه اتفاق طائفة من الناس على شيء، إذا ذكر تبادر معناه إلى الأذهان. وبعبارة أخرى الاصطلاح: لفظ خاص اصطلح بعض الناس على معنى معين له، فحين يطلق هذا اللفظ يتبادر إلى الذهن ذلك المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه .

ومن المصطلحات التي اعتقد عدد من الناس أنها مصطلحات صوفية مصطلح (فناء) ومصطلح (السكر الوجداني) ومصطلح (الشطح)، وقد أسهم في ترسيخ ذلك في الأذهان أن الباحث عن معاني هذه المصطلحات لن يجدها (اليوم) إلا في كتب المصطلحات الصوفية، ولذلك ناصب بعض السلف هذه المصطلحات العداء، وأطلقوا عليها الأحكام العامة، بدلاً من بيان المسألة بتفصيل. ولقد زاد من المشكلة انغلاق بعض الفرق أو الجماعات الإسلامية على نفسها، وحصرها لاستخدام مصطلحات معينة محددة، واعتبارها وحدها هي المصطلحات الإسلامية، وما عداها في رأيهم ليس من الإسلام، وتركوا بذلك أرض المعركة الحقيقية. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن جماعة من أنصار السنة المحمدية استبعدوا أن تكون المصطلحات الصوفية مصطلحات إسلامية بما فيها مصطلح التصوف والفناء والخواطر والإلهام والكشف ... وفي المقابل أطلق جماعة من الصوفية الأحكام العامة على مصطلحات أنصار السنة المحمدية مثل توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وحذروا أتباعهم من الكتب التي تحتوي على هذه المصطلحات ككتب ابن تيمية وابن القيم وغيرهما وقد أشار إلى تحذير الصوفية لأتباعهم محمد أحمد الراشد في كتابه المنطلق .

وهذا الكتاب محاولة لبيان مصطلح واحد، هو (الفناء) وإسهام لحل مشكلة اليوم « انغلاق بعض الفرق الإسلامية على نفسها وحصارها لمصطلحات الآخرين ومنعها من التداول » ولنبدأ في هذا التمهيد بتعريف أهم المصطلحات الواردة في هذا الكتاب، وهي:

- أ. الفناء .
- ب. الشطح .
- ج. السكر الوجداني .
- د. الصحو .
- هـ. الوجد والتواجد .
- و. الجمع والتفرقة .

تعريف الفناء :

الفناء مصدر فنى يفني فناءً إذا اضمحل وتلاشى وعدم، وقد يطلق على من تلاشت قواه وأوصافه في بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ. وقال تعالى ﴿ كل من عليها فان ﴾ أي هالك وذاهب[١] .

ولكن الصوفية اصطلحوا على وضع هذه اللفظة لتجريد الحقيقة الكونية والغيبية عن شهود الكائنات. فالفناء الذي يشير إليه القوم، ويعملون عليه « أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق سبحانه وتعالى كما لم يزل، ثم تغيب صورة الشاهد ورسمه أيضاً، فلا يبقى له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضاً، فلا يبقى له شهود. ويصير الحق هو الذي شاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات. وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل »[٢] .

والصوفي هو « الفاني عن نفسه، والباقي بالحق، قد تحرر من قبضة الطبائع، واتصل بحقيقة الحقائق »[٣] .

والفناء عند صاحب كتاب التعرف هو : « أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز فناءً عن الأشياء كلها، شغلاً بما فنى عنه »[٤] .

وعرف صاحب منازل السائرين الفناء بأنه « اضمحلال ما دون الحق علماً، ثم جحداً، ثم حقاً »[٥] .

وقال أبو يعقوب اسحق بن محمد النهرجوري في تعريف الفناء « هو فناء رؤية قيام العبد لله، وبقاء رؤية قيام الله في الأحكام » .

وقيل : الفناء هو الغيبة عن الأشياء، كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل .

---

(١) ابن القيم: مدارس السالكين ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الناشر دار الرشاد الحديثة ١: ١٥٤ .
وكتاب مدارج السالكين شرح لكتاب منازل السائرين لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي. وعرف هذا الكتاب لدى بعض العلماء باسم «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وقد أشار لهذه المسألة ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ٢/٤٤٩ وابن عماد في شذرات الذهب ٦/١٦٩ .

(٢) مدارج السالكين ١:١٤٩ .

(٣) الهجويري: كشف المحجوب، تحقيق د. إسعاد قنديل، ص٢٣١ .

(٤) التعرف ، ص١٤٧ .

(٥) مدارج السالكين ١:١٤٩ .

وقال أبو اسحاق إبراهيم بن شيبان « علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية، وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط[١] والزندقة[٢] »[٣] .

ويقول أبو يعقوب النهرجوري : « صحة العبودية في الفناء والبقاء »[٤]. وقال الهجويري في كتابه كشف المحجوب : « والمراد بالعدم والفناء في عبارات هذه الطائفة - أي الصوفية - فناء الآلة المذمومة والصفة المزدولة في طلب الصفة المحمودة، لا عدم المعنى بوجود آلة الطلب »[٥] . وقال الهجويري - أيضاً - في حديثه عن الفناء : « وكل باق يفنى عن نفسه فهو فان، وكل فان يبقى بنفسه فهو باق. والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص إن الفناء يفنى، لأن المبالغة في نفي أثر وجود المعنى يمكن أن تكون في الفناء، وطالما بقي أثر فإنه لا يكون فناء بعد، فإذا حصل الفناء فإن فناء الفناء لا يكون شيئاً سوى الأغراب في عبارة بلا معنى »[٦] .

وقال القشيري : « أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة »[٧] .

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن المصطلحين فناء وبقاء يشيران إلى مرحلتين يمر بهما الصوفي في طريق المعرفة. وهذان القسمان متقابلان من ناحية متكاملان من ناحية أخرى، وهناك حدان جعلا للفناء :

(أ) « فناء وعي الصوفي لجميع الأشياء بما فيها نفسه بل فناء وعيه بهذا الفناء، ويبقى وعيه الخالص بالله » .

(ب) « سقوط الصفات المذمومة وظهور الصفات المحمودة » ... ومن ثم فإن البقاء في ضوء هذين الحدين للفناء هو :

١- « البقاء لله بفناء العبد عن نفسه وصفاته » .

٢- « العودة إلى الوعي الصوفي بتعدد دنيا الخلق »[٨] .

---

(١) المغاليط : غلطات الصوفية .

(٢) الزندقة : أي أن الفناء عن وجود السوى زندقة .

(٣) كشف المحجوب للهجويري ، ص٤٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص٤٨٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص٢٢٥ .

(٦) كشف المحجوب ، ص٢٥٦ .

(٧) الرسالة القشيرية ، ص٣٦ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية، ط دار الشعب ١٩٦٩ ، المجلد السابع ، ص٤٤٧ و ص٤٤٨ .

وقيل : الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ بل يفنى عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني فيه، محفوظاً فيما لله عليه، مصروفاً عن جميع المخالفات[(١)] . والبقاء يعقبه وهو أن يفنى عما له، ويبقى بما يبقى لله تعالى .

وقيل : الباقي أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً فيكون كل حركاته في موافقة الحق، دون مخالفته، فكان فانياً عن المخالفات، باقياً في الموافقات[(٢)] .

وقال الحاج أحمد محمد رضوان في تعريف الفناء والبقاء « هو الخروج من نفسك إلى ربك، أو هو خروجك من ظاهرك إلى إصلاح باطنك، ويسمى ذلك مقام الإحسان »[(٢)] .

ويعرف الفناء أحياناً بأنه الاصطلام والاصطلام نعت غلبةٍ ترد على العقول فيستلبها بقوة سلطانه وقهره. قال بعضهم: قلوب ممتحنة وقلوب مصطلمة وإن وقع الاصطلام فهو ذهابه وطمسه[(٣)] .

وجاء في كتاب اللمع أن الفناء والبقاء اسمان ، وهما نعتان لبعدٍ موحد ، يتعرض الارتقاء في توحيده من درجة العموم إلى درجة الخصوص ، ومعنى الفناء والبقاء في أوائله فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر وفناء رؤية حركات العبد لبقاء رؤية عناية الله تعالى في سابق العلم[(٤)] .

وقال الخركوشي في تهذيب الأسرار[(٥)] : « البقاء هو بقاء الطاعات والفناء هو فناء المعاصي . والبقاء هو شهود الحقائق بإشهاد الحق كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ...) الحديث »[(٦)] .

تعريف الشطح :

قال الطوسي في كتابه اللمع في باب معنى الشطح والرد على من أنكر ذلك برأيه : « إن سأل سائل فقال : ما معنى الشطح ؟ فيقال : معناه عبارة مستغربة في وصف وجدٍ فاض بقوته ، وهاج

---

(١) التصوف الإسلامي الخالص للسيد محمد أبو الفيض ، دار نهضة مصر للطباعة ، ب ت ، ص١٥٨ .
(٢) النفحات الربانية من أحاديث وأقوال الحاج أحمد محمد رضوان ، ط. القاهرة ١٤٠١هـ / ص٢٥٤ .
(٣) اللمع ، ص٤٥٠ .
(٤) اللمع ، ص٢٨٤ .
(٥) تهذيب الأسرار ، ص٤٣٨
(٦) انظر الفتاوى ، مجلد علم السلوك ، ص٢٢٠ و ص٣٤١ .

بشدة غليانه وغلبته . وبيان ذلك أن الشطح في لغة العرب : هو الحركة ، يقال شطح يشطح إذا تحرك ، ويقال للبيت الذي يحوزون فيه الدقيق المشطاح . قال الشاعر :

قف بشط الفرات مشرعـــة الخيل قبيل الطريق بالمشـــطاح
بالطواحين من حجـــــارة بطريق بدير الغزلات دير الملاح
وإذا لاح بالمسناة ظبـــــــي قد كساه الإشراق ضوء الصبـــاح
فاقر ذاك الغزال مني سلاماً كلما صاح صائح بفـــــــــلاح

وإنما سمي ذلك البيت (المشطاح) من كثرة ما يحركونه فيه من الدقيق فوق ذلك الموضع الذي يتحلونه به ، وربما يفيض من جانبه من كثرة ما يحركونه ، فالشطع لفظة مأخوذة من الحركة ؛ لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها ، فمفتون هالك بالإنكار عنها والبحث عما يشكل عليه منها بالسؤال عمن يعلم علمها ، ويكون ذلك من شأنها . ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافتيه ؟! يقال : شطح الماء في النهر ! فكذلك المريد الواجد إذا قوي وجده ، ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه ، سطع ذلك على لسانه ، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مُشكلة على فهوم سامعيها ؛ إلا من كان من أهلها ، ويكون متبحراً في علمها ، فسمى ذلك على لسان أهل الاصطلاح شطحاً ... »[1] .

وقال الجرجاني في تعريفاته : « الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، تصدر عن أهل المعرفة باضطراد واضطراب ، وهو زلات المحققين ، فإنه دعوى حق يفصح بها العارف لكن من غير إذن إلهي » .

وقد ذكر أبو عبدالرحمن السلمي في كتابه (أصول الملامتية) ورسالته (غلطات الصوفية) أن الشطح يحدث للخراسانيين ؛ لأنهم يتكلمون عن أحوالهم وعن الحقائق . ومدرسة العراق تهتم بوصف أحوال غيرهم ، وليس الواصف بشاطح[2] .

---

(١) اللمع للطوسي ، تحقيق دكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي ، ط ١٩٦٠ ، ص٤٥٤ .

(٢) انظر : أصول الملامتية وغلطات الصوفية الذي حققه الأستاذ الدكتور عبدالفتاح الفاوي ، ص١٩٧ و ص ١٧٥ .
وانظر : اللمع تحقيق دكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، ص٢٥٣ و ص٢٤٣ .
وانظر : محاضرات في التصوف للأستاذ الدكتور محمد محمد علي أبو ريان - رحمه الله - ، ص٧١ وما بعدها .

السكر الوجداني والصحو :

جاء في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف أن السكر الوجداني وجد بلا تمييز ، وهو أن يغيب الفاني عن تمييز الأشياء ، ولا يغيب عن الأشياء ، وهو أن لا يميز بين ما يؤلمه ويلذه . والصحو هو الذي عقيب السكر ، وهو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذ ، فيختار المؤلم من موافقة الحق ، ولا يشهد الألم بل يجد لذة في المؤلم . والسكر الوجداني يحدث لبعض ذوي الأحوال في حالة فنائهم القاصر ولا يحدث في حالة الفناء عن عبادة السوى ، بل لا يحدث في حالة الفناء عن وجود السوى . وغاية السكران أن يعذر لا أن يتخذ ما يقوله منهجاً . والسكر عبارة عن فرط الشوق وشدة المحبة* قال ابن تيمية في فتاويه بعد حديثه عن التوحيد : « ... فهذا التوحيد الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب وإليه تشير مشايخ الطريق وعلماء الدين ، لكن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حالة الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوى ، والسكر وجد بلا تمييز ، فقد يقول في تلك الحال : سبحاني ، أو : ما في الجبة إلا الله أو غير ذلك من الكلمات التي تؤثر عن أبي يزيد البسطامي وغيره من الأصحاء ، وكلمات السكران تطوى ولا تروى ولا تؤدى ، إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عباده أو وجه منهي عنه ... »(١) .

الغلبــــــــة :

« الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ، ولا مراعاة الأدب ، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله ، فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله ، ويرجع على نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده ويكون الذي غلب عليه خوف ، أو هيبة ، أو إجلال ، أو حياء ، أو بعض هذه الأحوال »(٢) .

والسكر هو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء ، وهو أن لا يميز بين الملاذ وغيرها ، في مرافقة الحق ، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه . يقول أبو عبدالله بن خفيف « والسكر للمريدين حق ، وللعارفين باطل ، وغلبات الحق على سائر الخلق جائز في الأحوال للمتوسطين ، والمقامات للعارفين ، والشدة للمريدين ، والصحو أفضل ... والإفاقة أفضل من السكر »(٣) .

---

* بين الجنيد بن محمد أن السكر لا يدخل تحت صفة العبد ولا اكتساب الخلق . انظر كشف المحجوب ، ص٤١٩ .

(١) الفتاوى ، ط الرياض ، ١٣٨١هـ ، ٢:٤٦١ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص١١٤ .

(٣) التصوف في تراث ابن تيمية للطبلاوي ، ص١٧٢ .

تعريف الوجد :

قال الكلاباذي في تعريفه للوجد : « معنى الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل ». والتواجد : « ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ، ومن قوي تمكن فسكن »[1] . وعرّف الوجد بأنه حرقة المريدين . وقيل في تعريف الوجد إنه « مصادقة القلب ذكر كان قد فقده » وقال أبو عبدالله ابن خفيف: « ونعتقد أن الواجد المتحقق محفوظ ، وأهل الغلبات تجري عليهم أحوال تفوتهم بها الواجبات ، فإن أفاقوا عادوا ، وإن مضوا في سكرهم غدروا »[2] .

وقال أبو سعيد الإعرابي: « الوجد ما يكون عند ذكر مزعج أو خوف مقلق ، أو توبيخ على ذلة ، أو محادثة بلطيفة ، أو إشارة إلى فائدة ، أو شوق إلى غائب ، أو أسف على فائت ، أو ندم على ماض ، أو استجلاب على حال ، أو داع إلى واجب ، أو مناجاة بسر وهي مقابلة الظاهر بالظاهر ، والباطن بالباطن ، والغيب بالغيب ، والسر بالسر ، واستخراج مالك بما عليك مما سبق لك لتسعى فيه ، فيكتب لك بعد كونه منك فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر » .

الوجد الديني :

الوجد هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه[3] عن الوجد الديني والمحبة الإيمانية الموجبه له ، فقال : « المحبة الإيمانية هي الموجبة للذوق الإيماني والوجد الديني » ، كما في الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان في قلبه ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)) ، وفي صحيح مسلم عن العباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً)) فجعل ذوق طعم الإيمان معلقاً بالرضى بهذه الأصول ، كما جعل الوجد معلقاً بالمحبة ليفرق صلى الله عليه وسلم بين الذوق والوجد الذي هو أصل الأعمال الظاهرة وثمرة الأعمال الباطنة ، وبين ما أمر الله به ورسوله وبين غيره ، كما قال سهل بن عبدالله التستري: « كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، إذ كان من أحب شيئاً فله ذوق بحسب محبته » ، وقال النوري : « الوجد لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طرباً أو حزناً عند ذلك الوارد » .

---

(١) انظر : التعرف ، ص١١٣ و ص١١٧ .

(٢) التصوف في تراث ابن تيمية للطبلاوي ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤م ، ص١٧٢ ، نقلاً عن منهاج السنة النبوية ٣:٨٥ ، ٨٦ .

(٣) انظر : الفتاوى ، ج ١٠ ، ص٦٩٢ وما بعدها ، وانظر مجلد توحيد الربوبية ، ص٤٥٣ .

التواجـــــد :

قيل في تعريف التواجد : « ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ، ومن قوى تمكن فسكن » والتواجد استدعاء الوجد تكلفاً . وقد أجازه الصوفية وأنكره آخرون لما فيه من التكلف والتصنع ، وهو يختلف عن السكر الوجداني الذي لا كسب للعبد فيه . وقد جعل الصوفية التواجد سبيلاً للوصول إلى الفناء عن شهود السوى وقالوا التواجد سنة سنها الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا بما يرويه بعضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنشد منشد :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راقـي

إلا الحبيب الذي شغفت بـه فعنده رقيتي وترياقي

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة من منكبه . وهذا الذي استدل به القائلون بالتواجد والذي نسبوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وأكذب منه ما يرويه بعضهم « إنه مزق ثوبه ، وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على العرش » فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه كما بين ابن تيمية في فتاويه . قال الجنيد عن الوجد :

الوجد يطرب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقـــود

وقد كان يطربني وجدي فأشغلني عن رؤية الوجد ما في الوجد موجود

وقال الشبلي :

الوجد عند جحود ما لم يكن عن شهود

وشاهد الحق عندي يفنى شهود الوجـود

وكان التواجد سبباً في وفاة أبي الحسين النوري ، فقد قيل عنه أنه سمع بهذا البيت :

لا زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحير الألباب عند نزوله

فتواجد ، وهام في الصحراء ، فوقع في أجمة قصب قد قطعت ، وبقيت أصولها مثل السيوف ، فكان يمشي عليها ويعيد البيت إلى الغداة ، والدم يسيل من رجليه ، ثم وقع مثل السكران ، فورمت قدماه ، ومات رحمه الله تعالى[1] .

الجمع والتفرقة :

قال أبو نصر السراج الطوسي : « الجمع والتفرقة اسمان فالجمع جمع المتفرقات ، والتفرقة تفرقة المجموعات ، فإذا جمعت قلت : الله ولا سواه ، وإذا فرقت قلت : الدنيا والآخرة والكون وهو

---

(١) اللمع ، تحقيق د. عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي ، ص٢٨١ .

قوله ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ قد جمع ثم فرق ، فقال : ﴿ والملائكة وألو العلم قائماً بالقسط ﴾ كذلك قوله ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ وقد جمع ثم فرق فقال ﴿ وما أنزل إليك وما أنزل إلى إبراهيم ﴾ الآية فالجمع أصل والتفرقة فرع ، فلا تعرف الأصول إلا بالفروع ، ولا تثبت الفروع إلا بالأصول ، وكل جمع بلا تفرقة فهو زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع فهو تعطيل »[(١)] .

وللجنيد في معرفة الجمع والتفرقة :

فتحققتك في سري فناجاك لســــاني   فاجتمعنا لمعانٍ وافترقنا لمعانــــــي

إن يكن غيبك العظيم عن لحظ عياني   فلقد صيرك الوجد من الأحشاء داني[(٢)]

التجلي والاستتار :

قال الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف ، قال سهل : التجلي على ثلاثة أحوال ؛ تجلي ذات وهي المكاشفة ، وتجلي صفات الذات وهي موضع النور ، وتجلي حكم الذات وهي الآخرة وما فيها .

قال الكلاباذي : معنى قوله تجلى ذات ، وهي المكاشفة كشوف القلب في الدنيا كقول عبدالله بن عمر : كنا نتراءى الله في ذلك المكان . يعني في الطواف . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ((اعبد الله كأنك تراه)) . وكشوف العيان في الآخرة . ومعنى قوله : تجلى صفات الذات ، وهي موضع النور : هو أن تتجلى له قدرته عليه ، فلا يخاف غيره ، وكفايته له فلا يرجو سواه ، وكذلك جميع الصفات كما قال حارثة : كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً . كأنه تجلى له كلامه في أخباره فصار الخبر كالمعاينة . وتجلى حكم الذات يكون في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير[(٣)] .

وقال الهجويري في كتابه (كشف المحجوب) عن التجلي : هو تأثير أنوار الحق بحكم الإقبال على قلوب المقبلين الجديرين بأن يروا الحق بقلوبهم . والفرق بين هذه الرؤية ورؤية العيان هي أن المتجلي إذا أراد يرى ، وإذا أراد لا يرى ، أو يرى وقتاً ولا يرى آخر . أما أهل العيان في الجنة فإنهم إذا أرادوا ألا يروا فإنهم لا يستطيعون ألا يروا ، لأن الستر يجوز على التجلي ، ولا يجوز الحجاب على الرؤية والله أعلم[(٤)] .

---

(١) اللمع ، ص٢٨٣ .

(٢) اللمع ، ص٢٨٣ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص١٢١ .

(٤) كشف المحجوب ، ص٦٣٣ .

الفصل الأول
الفناء عند مؤرخي التصوف

المبحث الأول : الفناء عند القشيري

المبحث الثاني : الفناء عند الهروي صاحب المنازل

المبحث الثالث : الفناء عند الغزالي

المبحث الرابع : الفناء والبقاء عند الكلاباذي

المبحث الخامس : الفناء عند الهجويري

المبحث السادس : الفناء عند العطار

المبحث السابع : ذكر الخركوشي للفناء والبقاء في كتابه ((تهذيب الأسرار))

المبحث الأول

الفناء عند القشيري

ذكر القشيري[١] صاحب الرسالة القشيرية إلى أن الصوفية أشاروا بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة[٢] . وقسم القشيري الفناء إلى فنائين : الفناء الأول: فناء العبد عن أفعاله الذميمة وأقواله الخسيسة ، ويكون بعدم فعل هذه الأفعال . الفناء الثاني: فناء العبد عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم ، أي الفناء عن شهود سوى الله. وجعل القشيري الفناء على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق .

المرحلة الثانية : فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق .

المرحلة الثالثة : فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق[٣] .

ويحاول القشيري تقريب الفناء إلى الأذهان فيقول : « وقد ترى الرجل يدخل على ذي سلطان أو محتشم فيذهل عن نفسه ، وعن أهل مجلسه هيبة ، وربما يذهل عن ذلك المحتشم حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه ، وهيأت ذلك الصدر ، وهيأت نفسه ، لم يمكنه الإخبار عن شيء[٤] ، ويستدل على هذا الحال من القرآن الكريم قائلاً : قال تعالى ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ... ﴾[٥] لم يجدن (أي النساء) عند لقاء يوسف عليه السلام على الوهلة ألم قطع الأيدي ، وهن أضعف الناس ﴿ .. وقلن حاش لله ما هذا بشراً ... ﴾[٦] ولقد كان بشراً وقلن ﴿ إن

---

(١) القشيري هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك ابن طلحة بن محمد، النيسابوري، الملقب بزين الدين، ولد في ربيع الأول سنة ست وأربعين وثلثمائة للهجرة ، وتوفي في يوم الأحد السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة. وقد ذكر عنه ابن تقي السبكي في ترجمته كلاماً جميلاً. وتناول ابن تيمية في فتاويه وفي كتابه الاستقامة الذي حققه الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم بعض ما ذكره القشيري في رسالته خاصة في مسألة السماع ورد عليه ، وعقد مقارنة بينه وبين أبي عبدالرحمن السلمي . ويرى ابن تيمية أن الرسالة القشيرية فيها فوائد كثيرة وفيها من الصريح الصحيح الكثير إلا أن فيها بعض الجوانب التي تحتاج إلى نظر .

انظر : الفتاوى لابن تيمية ١٠ : ٦٧٨ ، ٦٧٩ .

انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٣ ، من ص٢٤٢ إلى ص ٢٤٨ .

(٢) قال القشيري «أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة»، الرسالة القشيرية، ص٣٦ .

(٣) الرسالة القشيرية ، ص٣٦ .

(٤) الرسالة القشيرية ، ص٣٧ .

(٥) سورة يوسف ، آية ٣١ .

(٦) سورة يوسف ، آية ٣١ .

هذا إلا ملك كريم ﴾[١] ولم يكن ملكاً ، فهذا تغافل مخلوق عن أ؛واله عند لقاء مخلوق ، فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه ، فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه ، فأي أعجوبة في ذلك»[٢] .

ويجعل القشيري تدرج الصوفي في الفناء على النحو التالي : « الأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق ، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق ... »[٣] .

---

(١) سورة يوسف ، آية ٣١ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص٣٧ .

(٣) مدخل إلى التصوف لأبي الوفاء ، ص١١١ .

المبحث الثاني

الفناء عند الهروي « صاحب المنازل »*

قال صاحب المنازل « هو اضمحلال ما دون الحق علماً ، ثم جحداً ، ثم حقاً . وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولـى : فناء المعرفة في المعروف وهو الفناء علماً . وفناء العيان في المعاين ، وهو الفناء جحداً وفناء الطلب في الوجود وهو الفناء حقاً .

الدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لاسقاطه ، وفناء شهود المعرفة لاسقاطها ، وفناء شهود العيان لاسقاطه .

الدرجة الثالثة : الفناء عن شهود الفناء . وهو الفناء حقاً[1] شائماً برق العين ، راكباً بحر الجمع سالكاً سبل البقاء » .

ويتضمن هذا الكلام الذي قاله الهروي الحق والباطل ، وقد تتبعه ابن القيم في مدارج السالكين وبين ما فيه من حق وباطل .

قال ابن القيم : (فقوله[2] : «اضمحلال ما دون الحق جحداً» لا يريد به أنه يعدم من الوجود بالكلية ، وإنما يريد اضمحلاله في العلم . فيعلم أن ما دونه باطل . وأن وجوده بين عدمين ، وأنه ليس له من ذاته إلا العدم فعدمه بالذات ، ووجوده بإيجاد الحق له ، فيفنى في علمه ، كما كان فانياً في حال عدمه . فإذا فني في علمه ارتقى إلى درجة أخرى فوق ذلك . وهي جحد السِّوَى وانكاره . وهذه أبلغ من الأولى . لأنها غيبية عن السوى . فقد يغيب عنه وهو غير جاحد له . وهذه الثانية جحده وإنكاره . ومن ها هنا دخل الاتحادي[3] وقال المراد جحد السوى بالكلية وأنه ما ثم غيرٌ بوجه ما . وحاشا شيخ الإسلام من الحاد أهل الاتحاد[4] وإن كانت عبارته موهمة ، بل مفهمة ذلك ، وإنما أراد بالجحد في الشهود لا في الوجود . أي بجحده أن يكون مشهوداً ، فيجحد وجوده الشهودي العلمي . ثم ينكر . ثانياً وجوده في علمه ، وهو اضمحلاله جحداً . ثم يرتقي من هذه الدرجة إلى درجة

---

* الهروي هو أبو إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري ولد بهراة من أعمال خراسان عام ٣٩٦هـ . وكان من أبرز فقهاء الحنابلة .

(١) مدارج السالكين ، ج١ ، ص١٤٩ .

(٢) يقصد صاحب المنازل ، أي الهروي .

(٣) الاتحـــادي ، القائل بالاتحاد. ونلاحظ أن ابن القيم يجعل الاتحادي هو القائل بوحدة الوجود. يقول ابن القيم «والاتحادي يقول ما ثم غـــير يوحده، بل هو الموحد لنفسه بنفسه إذ ليس سوى في الحقيقة» – مدارج السالكين ١٤٨:١ – بينما الأمر عند بعض العلماء يختلف فالاتحاد على وزن الاقتران ويقتضي شيئين ، اتحد أحدهما بالآخر، ووحدة الوجود تعني أن الوجود واحد، ما ثم غير الله .

(٤) هذه العبارة «وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد» تبين لنا مدى تقدير ابن القيم للهروي فقد لقبه بشيخ الإسلام .

أخرى أبلغ منها وهي اضمحلاله في الحقيقة ، وأنه لا وجود له البتة ، وإنما وجوده قائم بوجود الحق ، فلولا وجود الحق لم يكن موجوداً . ففي الحقيقة الموجود إنما هو الحق وحده ، والكائنات من أثر وجوده هذا معنى قولهم « إنها لا وجود لها ولا أثر لها وإنها معدومة وفانية ومضمحلة .. » وقال ابن القيم في حديثه عن الدرجة الأولى عند الهروي وهي فناء المعرفة في المعروف . قال : « يريد اضمحلال معرفته وتلاشيها في معروفه ، وأن يغيب بمعروفه عن معرفته ، كما يغيب بمشهوده عن شهوده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمحبوبه عن حبه ، وبمخوفه عن خوفه . وهذا لا ريب في إمكانه ووقوعه . فإن القلب إذا امتلأ بشيء لم يبق فيه متسع لغيره . وأنت ترى الرجل يشاهد محبوبه الذي استغرق في حبه ، بحيث تخلل حُبُه جميع أجزاء قلبه ، أو يشاهد المخوف الذي امتلأ قلبه بخوفه فتراه دهشاً عن شعوره لحبه أو خوفه ، لاستيلاء سلطان المحبوب أو المخوف على قلبه ، وعدم اتساعه لشهود غيره البتة . لكن هذا لنقصه لا لكماله ، والكمال وراء ذلك ، فلا أحد أعظم محبة لله عز وجل من الخليلين - عليهما الصلاة والسلام - وكانت حالهما أكمل من هذه الحال. وشهود العبودية[١] . أكمل وأتم وأبلغ من الغيبة عنها بشهود المعبود فشهود العبودية والمعبود درجة الكمال[٢] والغيبة بأحدهما عن الآخر للناقصين[٣] ، فكما أن الغيبة بالعبادة عن المعبود نقص ، فكذلك الغيبة بالمعبود عن عبادته نقص ، حتى إن من العارفين من لا يعتد بهذه العبادة ، ويرى وجودها عدماً . ويقول : هي بمنزلة عبودية النائم وزائل العقل لا يعتد بها »[٤] .

وقال ابن القيم ... « فالحق تعالى مراده من عبده استحضار عبوديته ، لا الغيبة عنها ، والعامل على الغيبة عنها عامل على مراده من الله ، وعلى حظه والتنعم بالفناء عن شهوده لا على مراد الله منه ، وبينهما ما بينهما . فكيف يكون قائماً بحقيقة العبودية من يقول ﴿ إياك نعبد ﴾ ولا شعور له بعبوديته البتة ؟ بل حقيقة ﴿ إياك نعبد ﴾ علماً ومعرفة وقصداً وإرادة وعملاً . وهذا مستحيل في وادي الفناء ، ومن له ذوق يعرف هذا وهذا » .

وقال ابن القيم « قوله : وفناء العيان في المعاين وهو الفناء جحداً لما كان ما قبل هذا فناء العلم في المعلوم ، والمعرفة في المعروف ، والعيان فوق العلم والمعرفة . إذ نسبته إلى العلم كنسبة المرئي إليه كان الفناء في هذه المرتبة فناء عيانه في مُعايَنِه ومحو أثره واضمحلال رسمه » .

---

(١) شهود العبودية هو الفناء عن عبادى السوى .

(٢) الكمل أصحاب الفناء الكامل المحمدي الديني الشرعي .

(٣) هذا هو الفناء عن شهود السوى ، الفناء الناقص ، الفناء القاصر .

(٤) مدارج السالكين ، ١:١٥١ .

وقال ابن القيم في قول الهروي (وفناء الطلب في الموجود وهو الفناء حقاً) « يريد: أنه لا يبقى لصاحب هذا العيان طلب ، لأنه قد ظفر بموجوده ومطلوبه . وطلب الموجود محال . لأنه إنما يطلب المفقود عن العيان لا الموجود ، فإذا استقرت في عيانه وشهوده فني الطلب حقاً »(١) .

وقال ابن القيم ... قوله « الدرجة الثانية فناء شهود الطلب لإسقاطه ، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها ، وفناء شهود العيان لإسقاطه » يريد أن الطلب يسقط . فيشهد العبد عدمه ، فهاهنا أمور ثلاثة مترتبة أحدها : فناء الطلب وسقوطه ، ثم شهود سقوطه ثم سقوط شهوده . فهذا هو فناء شهود الطلب لإسقاطه . وأما فناء شهود المعرفة وإسقاطها فيريد به أن المعرفة تسقطه في شهود العيان ، إذ هي فوقها ، وهي تفنى فيه . فيشهد سقوطها في العيان ، ثم شهود سقوطها . وصاحب المنازل يرى أن المعرفة قد يصحبها شيء من حجاب العلم ، ولا يرتفع ذلك الحجاب إلا بالعيان .فحينئذ تفنى في حقه المعارف ، فيشهد فناءها وسقوطها . ولكن عليه بعد بقية ، لا تزول عنه حتى يسقط شهود فنائها وسقوطها منه . فالعارف يخالطه بقية من العلم لا تزول إلا بالمعاينة ، والمعاين قد يخالطه بقية من المعرفة لا تزول إلا بشهود سقوطها . ثم سقوط شهود هذا السقوط . وأما « فناء شهود العيان لإسقاطه » فيعنى أن العيان أيضاً يسقط فيشهد العبد ساقطاً فلا يبقى إلى المعاين وحده(٢) .

وقال ابن القيم : (... قوله "الدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء" أي يشهد فناء كل ما سوى الحق تعالى في وجود الحق . ثم يشهد الفناء قد فني أيضاً ثم يفنى عن شهود الفناء . فذلك هو الفناء حقاً . وقوله "شائماً برق العين" يعني ناظراً إلى عين الجمع . فإذا شام برقه من بُعدٍ انتقل من ذلك إلى ركوب لجة بحر الجمع وركوبه إياها هو فناؤه في جمعه). ويعني الهروي بالجمع الحقيقة الكونية القدرية التي يجتمع فيها جميع المتفرقات وتشمير القوم إلى شهودها والاستغراق والفناء فيها . والاستغراق والفناء فيها هو غاية السلوك والمعرفة عند الصوفية(٣) .

الاتحادية والهروي :

يرى الاتحادية أن الهروي قد قال بوحدة الوجود وأنه ذهب مذهب أهل الوحدة ، وحاولوا أن يفسروا كلامه عن الفناء لدعم هذه الرؤية ، قال الاتحادي في شرح كلام الهروي "فناء شهود العيان لإسقاطه" .. "هذا دليل على أن الشيخ يرى مذهب أهل الوحدة لأن العيان إنما يسقط في

---

(١) مدارج السالكين ١٥٠ – ١٥١ .

(٢) مدارج السالكين : ج١ ، ص١٥٢ و ص١٥٣ .

(٣) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ١٥٣:١ .

مبادئ حضرة الجمع ، لأنه يقتضي ثلاثة أمور معاين ومعاين ومعاينة وحضرة الجمع تنفي التعداد"[١] .

قال ابن القيم معقباً على كلام الاتحادي « وهذا كذب على شيخ الإسلام وإنما مراده فناء شهود العيان ، فيفنى عن مشاهدة المعاينة ، ويغيب بمعاينة عن معاينته » . وليس مراد الهروي انتفاء التعدد والتغاير وإنما مراده انتفاء الحاجب عن درجة الشهود لا عن حقيقة الوجود .

ويختلف ما ذهب إليه الهروي مع مراد أهل الوحدة فأهل الوحدة مرادهم « أن حضرة الجمع والوحدة تنفي التعدد والتقيد في الشهود والوجود ، بحيث يبقى المعروف والمعرفة والعارف من عين واحدة ، لا بل ذلك نفس العين الواحدة وإنما العلم والعقل والمعرفة حجب ، بعضها أغلظ من بعض ، ولا يصير السالك عندهم محققاً حتى يخرق حجاب العلم والمعرفة والعقل ، فحينئذ يفضي إلى ما وراء الحجاب من شهود الوحدة المطلقة التي لا تتقيد بقيد ، ولا تختص بوصف »[٢] .

نقد ابن تيمية لنظرية الفناء عند الأنصاري (الهروي) :

لم يعجب ابن تيمة ما قاله الهروي الأنصاري عن الفناء ، وذلك أن الهروي دافع عن جميع أنواع الفناء ولم يفرق بين الفناء عن وجود السوى والفناء عن شهود السوى ، وهذه المسألة لم تعجب ابن القيم أيضاً ، لم تعجب ابن القيم الذي كان شديد الإعجاب بالهروي لأن الهروي كان شديد الإثبات للأسماء والصفات . وقد لخص لنا الدكتور مصطفى حلمي في كتابه "أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة" نقد ابن تيمية لكلام الهروي عن الفناء فقال: « أراد ابن تيمة تصحيح النظريات الخاطئة أياً كان قائلوها ، لهذا من السهل ملاحظة تشدده في كل ما يمس عقيدة التوحيد التي انحرف بها بعض الصوفية ولا سيما في حديثهم عن مقام الفناء[٣] الذي يؤدي بالسالك فيه إما إلى الوقوع فيما يشبه عقيدة الحلول ، أو ادعاء زوال التكليف عنه ». وقد وافق الأنصاري على جعل التوحيد في أعلى مراتبه هو توحيد الخاصة ، الذي يصبح سراً لا ينبغي البوح به لأحد في مثل قوله في هذه الأبيات من الشعر :

---

(١) المدارج ، ج١ ، ص١٥٢ .

(٢) المدارج ، ١٥٢:١ ، ١٥٣ .

(٣) هذا مثال واضح لإطلاق الأحكام العامة من بعض المتأخرين ، فابن تيمية في حديثه عن الفناء لم يطلق الأحكام العامة ، بل بين أن الفناء عن عبادة السوى والذي قاله به صوفية من أمثال الجنيد بن محمد وعبدالقادر الجيلاني وغيرهما هو الفناء المطلوب ، والمحمود ، والنبوي ، والديني ، والشرعي . وأما الفناء الذي رفضه فهو الفناء عن وجود السوى ، وقد أخطأ الهروي في دفاعه عن جميع أنواع الفناء .

ما وحد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد
توحيد من يخبر عن نعته   عارية أبطلها الواحـــد
توحيده إياه توحيـــــده   ونعت من ينعته لأحـد

فيذهب ابن تيمية في نقده للهروي هنا بأنه يعني بذلك أن الناطق بالتوحيد على لسان العبد هو الحق وأنه لا يوحد إلا نفسه . ((ولكن ينبغي - عند شيخنا السلفي - التفرقة بين نوعين من الفناء ، أولهما هو الفناء في توحيد الربوبية ، أو ما يسميه الصوفية طبقاً لاصطلاحهم بمقام الجمع حتى لا يشهد فرقاً ما دام في هذا المشهد . وفي معارضة ابن تيمية لهذا النوع من الفناء بين الخطأ الذي يقع فيه الصوفية[1] مؤكداً أن الزاعم بأنه وصل إلى هذا المشهد لا بد أن يستطيع التفرقة بالرغم مما حدث له .. يقول : لا بد أنه يستطيع التفرقة بين الجوع والعطش والخبز والشراب ، والماء الملح الأجاج ، والعذب الفرات ، هذا فيما يتعلق بالحس الذي يستطيع به السالك إدراك هذه الفروق ، كذلك يدرك بواسطة العقل عواقب الأفعال مالا يدركه الحس ، أي يستدل بالعقل على ما يجلب المنفعة وما يدفع الضرر ، كما يدل على ذلك لفظ العقل في القرآن ، وما بعث الله به الرسل لإرشاد البشر إلى ما ينالون به النعيم في الآخرة وما ينجيهم من عذابها . « فالفرق بين المأمور والمحظور كالفرق بين الجنة والنار واللذة والألم والنعيم والعذاب »[2] .

الهروي وصوفية الشطح :

كان الهروي حنبلياً[3] ، ويعد من المنكرين على أصحاب الشطح من أمثال البسطامي . والهروي صاحب نظرية في الفناء شبيهة بنظرية الجنيد التي اعتمد عليها الهروي ، ونقل عبارات له في صدر المنازل ، وقد شرحها ابن القيم في مدارج السالكين وبين الفرق بينهما وبين وحدة الوجود[4] .

قال الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغينمي التفتزاني ، رحمه الله ، في كتابه "مدخل إلى التصوف الإسلامي": وينقد الهروي باعتباره صاحب اتجاه سني صوفية الشطح فيقول: « ومنهم من لم يميز مقامات الخاصة وضرورات العامة ، ومنهم من عد الشطح المغلوب مقاماً وجعل لبوح الواجد (صاحب الوجد) ورمز المتمكن (الصوفي الراسخ) سبباً عاماً وأكثرهم لم ينطق عن الدرجات » .

---

(١) هذا حكم عام والصحيح ما يقع فيه بعض الصوفية القابعين في فناء توحيد الربوبية .
(٢) المرج المذكور ، ص٣٤ ، ٣٥ ، اعتماداً على مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ، ص١١٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٣) ذكر أبو الوفاء في كتابه مدخل إلى التصوف ، ص١٥٠ أن الهروي كان حنبلياً ولذلك اشتدت خصومته للأشاعرة .
(٤) مدخل إلى التصوف ، ص١٥٠ .

ويؤثر الهروي مقام السكينة المنبعثة من الرضا عن الله ، وهي مانعة من الشطح ، فيقول : « الدرجة الثالثة (من درجات السكينة) السكينة التي تثبت الرضى بالقسم ، وتمنع من الشطح الفاحش ، وتقف صاحبها على حد الرتبة » وهو يعني هنا بالشطع الفاحش مثل ما نقل عن أبي يزيد ونحوه بخلاف الجنيد وسهل التستري وأمثالهما ، فإنهم لما كانت لهم هذه السكينة لم تصدر منهم الشطحات ، ولا ريب أن الشطح سببه عدم السكينة ، فإنها إذا استقرت في القلب منعته من الشطح وأسبابه »[1] .

(١) المرجع المذكور ، ص١٥١ ، وانظر مدارج السالكين ، ج١ ، ص١٥٤-١٥٥ وج٣ ، ص٥١٢ ومنازل السائرين للهروي ص٢٢ .

المبحث الثالث

الفناء عند الغزالي* (٤٥٠ ـ ٥٠٥) هـ

تكلم الغزالي عن أنواع الفناء المختلفة في كتبه ، وأشار في رسالته "الأدب في الدين" الذي طبع ضمن مجموعة الرسائل ط كردستان ١٣٢٨هـ أن من آداب الصوف ترك الشطح في العبارة والتمسك بعلم الشريعة ، كما تكلم عن الفناء عن شهود السوى الذي تحدث فيه الشطحات في كتبه الأخرى وتكلم عن الفناء الكامل وعن الفناء عن وجود السوى .

المطلب الأول : الفناء الكامل عند الغزالي :

الفناء الكامل عند الغزالي أن يفنى العبد بالكلية عن نفسه وأحواله ، ينسى نفسه « فلا يبقى له التفات إليها .. فيسمح لله ، وبالله ، ومن الله» وهذا الفناء عند الغزالي « حال ورتبة من خاض لجة الحقائق ، وعبر ساحل الأحوال والأعمال ، واتحد بصفاء التوحيد ، وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق شيء منه أصلاً ، بل خمدت بالكلية بشريته ، وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً » .

والفناء ليس للجسد ، بل الفناء للقلب . ولا يعني الغزالي بالقلب اللحم والدم « بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفيفة وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها »[١] .

المطلب الثاني : رأي الغزالي في القائلين بالفناء عن وجود السوى :

أما الفناء عن وجود السوى ، فناء من قال بالحلول أو الاتحاد ، فالغزالي يرى أن من ذهب إلى القول بذلك قد دفعه خياله لسماعه أبيات توهم الحلول . قال الشاعر :

---

* أبو حامد الغزالي ، ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٠٥هـ. صنف عدداً كبيراً من الكتب تحدث عنها الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه «كتب الغزالي». والغزالي صوفي، أشعري، شافعي المذهب، صنف في الفقه وأصوله، وفي العقيدة وعلم الكلام، ورد على الفلاسفة والباطنية. ومن كتبه التي بان بها اتجاهه الصوفي ، إحياء علوم الدين ، والمنقذ من الضلال. ومن كتبه التي رد بها على الفلاسفة تهافت الفلاسفة الذي تناول فيه عشرين مسألة، كفر الفلاسفة فيها في المسائل الآتية :

أ – قولهم بقدم العالم وأزلية المادة .

ب– انكارهم علم الله بالجزئيات .

ج – انكـــارهم رد الأرواح إلى الأبدان ، والنار الجسمانية ، والجنة ، وسائر ما وعد به الناس في الآخرة من نعيم مادي أو عذاب أليم حسي .

وصنف الغزالي أيضاً مقاصد الفلاسفة ومعيار العلم .

(١) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ط. دار الشعب ، المجلد الثاني ، الجزء السادس ، ص١١٥٩ .

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

فهذه الأبيات تعرب عن سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه . وفناء القلب مقام من مقامات علوم المكاشفة - عند الغزالي - « منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال: أنا الحق. وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، أو تدرعها فيما على ما اختلفت فيه عباراتهم ، وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم المرأة بصورة الحمرة إذا ظهر فيها لون الحمرة في مقابلها »[(١)] .

المطلب الثالث : الفناء الذي تحدث فيه ظاهرة الشطح عند الغزالي :

وأما الفناء الذي تحدث فيه ظاهرة الشطح فقد تكلم عنه أبو حامد الغزالي في كتابه "مشكاة الأنوار" ولعله يشير إلى الفناء عن شهود السوى ، أو ما يسميه فناء القلب ، أو الفناء بالكلية عن النفس والأحوال . قال أبو حامد الغزالي: « العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق ، لكن منهم من كان له في هذه الحالة عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار منهم حالاً ذوقياً[(٢)] ، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفردانية المحضة ، واستوفيت فيها عقولهم ، فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيهم متسع لغير ذلك الله ، فسكروا سكراً دفع دونه سلطان عقولهم ، فقال أحدهم : أنا الحق . وقال الآخر "سبحاني ما أعظم شأني". وقال الآخر: "ما في الجبة إلا الله" . وكلام العشاق في حالة السكر يطوى ولا يحكى. فلما خف سكرهم، وردوا إلى سلطان العقل هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق في حالة فرط عشقه "أنا من أهوى ومن أهوى أنا" »[(٣)] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٦:١١٦٠ .

(٢) قال الجرجاني في تعريفاته عن أهل الذوق «من يكون حكم تجلياته نازلاً من مقام روحه وقلبه إلى مقام نفسه وقواه ، كأنه يجد ذلك حساً ويدركه ذوقاً ، بل يلوح ذلك على وجوههم» – التعريفات ، ص٢٧ .

(٣) الغـزالي : مشكاة الأنوار، حققها الدكتور أبو العلا عفيفي ص٥٧، ٥٨ . ومشكاة الأنوار من كتب الغزالي المضنون بها على غير أهلها ، وليست من كتبه التي كتبها للجمهور .
انظر في بيان هذه المسألة كتاب «فلاسفة الإسلامية» للأستاذ الدكتور فتح الله خليف .

المبحث الرابع

الفناء والبقاء عند الكلاباذي

عقد الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف فصلاً عن الفناء والبقاء[1] قال فيه : « فالفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ، ويسقط عنه التمييز ، فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به كما قال عامر بن عبدالله : ما أبالي امرأة رأيت أم حائطاً » .

والحق يتولى تصريفه ، فيصرّفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عليه ، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات فلا يكون له إليها سبيل ، وهو العصمة وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم ((كنت له سمعاً وبصراً)) الخبر . والبقاء هو الذي يعقبه ، هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله . قال بعض الكبار : البقاء مقام النبيين ألبسوا السكينة ، لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه ولا عن فضله . ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾[2] والباقي : هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات ، باقياً في الموافقات . وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نهى عنه كما أمر به ، ولكن على معنى : أن لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى ، دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه في عاجل أو آجل . وهذا معنى قولهم : يكون فانياً عن أوصافه ، باقياً بأوصاف الحق ؛ لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ، لأنه لا يجر به نفعاً ولا يدفع به ضراً تعالى الله عن ذلك وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم .

فالباقي بالحق : الفاني عن نفسه ، يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه ، ولا لدفع مضرة عنها ، بل على معنى : أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة ، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها بمعنى القصد والنية ولا بمعنى أنه لا يجد حظاً فيما يعمل مما له عليه يفعله لله ، لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وهما أعنى الخوف والطمع : باقيان معه قائمان فيه ، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى ، لأنه رغّب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه ، ولا يفعله للذة نفسه ويخاف عقابه إجلالاً له وموافقة له ، لأنه خوّف عباده ، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه كما قيل المؤمن يأكل بشهوة عياله . أنشدونا لبعضهم :

أفناه عن خطه فيما ألم بـــــه ... فظل يبقيه في رسم ليبديـــه

ليأخذ الرسم عن رسم يكاشفه ... والسر يطفح عن حق يراعيه

---

(١) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ط١ دار الإيمان ، دمشق ، بيروت ١٤٠٧هـ ص١٢٣-١٣٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

فجملة الفناء والبقاء : أن يفنى عن حظوظه ويبقى بحظوظ غيره. فمن الفناء فناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزماً ، وبقاء في شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلاً ، وفناء عن تعظيم ما سوى الله وبقاء في تعظم الله تعالى[1] .

ومن فناء تعظيم ما سوى الله: حديث أبي حازم حيث قال: ما الدنيا ؟ أما ما مضى فأحلام، وأما ما بقي فأمان وغرور وما الشيطان حتى يهاب منه ، ؟ لقد أطيع فما نفع وعصى فما ضر . فكان كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان . ومن فناء الحظوظ: حديث عبدالله بن مسعود حيث قال: ما علمت أن في أصحاب رسول الله صلى الله من يريد الدنيا حتى قال الله ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾[2] الآية . فكان فانياً عن إرادة الدنيا. ومن ذلك حديث حارثة قال: عزفت نفسي عن الدنيا ، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً . فنى عن العاجلة بالآجلة وعن الأغيار بالجبار . وحديث عبدالله بن عمر : سلم عليه إنسان وهو في الطواف ، فلم يرد عليه وشكاه إلى بعض أصحابه فقال عبدالله إنا كنا نتراءى الله في ذلك المكان ومنها حديث عامر بن عبدالقيس قال: لأن تختلف فيّ الأسنة أحب من أن أجد ما تذكرون . يعني في الصلاة حتى قال الحسن : ما أصطنع الله ذلك عندنا . وفناء هو الغيبة عن الأشياء رأساً ، كما كان فناء موسى عليه السلام حين تجلى ربه للجبل ﴿ فخر موسى صعقاً ﴾ فلم يخبر في الثاني من حالة عن حالة ، ولا أخبر عنه مغيبة عنها . وقال أبو سعيد الخراز : علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى ، ثم يبدو باد من قدرة الله تعالى فيريه ذهاب حظه من الله تعالى إجلالاً لله، ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه م رؤية ذهاب حظه ، ويبقى رؤية ما كان من الله لله ، ويتفرد الواحد الصمد في أحديته، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء .

معنى ذهاب حظه من الدنيا مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة مطالبة الأعواض فيبقى حظه مع الله ، وهو رضاه عنه وقربه منه ، ثم يرد عليه حاله من إجلال الله تعالى : أن يقرب مثله، أو يرضى عن مثله استحقاراً لنفسه وإجلالاً لربه ، ثم ترد عليه حالة فيستوفيه حق الله تعالى ، فيغيبه عن رؤية صفته التي هي رؤية ذهاب حظه فلا يبقى فيه إلا ما من الله إليه ، ويفنى عنه ما منه إلى الله فيكون كما كان : إذا كان في علم الله تعالى قبل أن يوجده ، وسبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه .

---

(١) نهاية ، ص١٢٤ - كتاب التعرف - .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٢ .

وعبارة أخرى عن الفناء : أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل المولّه من نعوت الإلهية ، وهو أن يفنى عن أوصاف البشرية التي هي : الجهل والظلم لقوله تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾[١] ومن أوصافه الكنود والكفور وكل صفة ذميمة تفنى عنه ، بمعنى أن يغلب علمه جهله وعدله ظلمه ، وشكره كفرانه وأمثالها. قال أبو القاسم فارس: الفناء حال من لا يشهد صفته ، بل يشهدها مغمورة بمغيبها .

وقال: فناء البشرية ليس على معنى عدمها بل على معنى أن تغمد بلذة توفى على رؤية الألم واللذة الجارية على العبد في الحال كصواحبات يوسف عليه السلام ﴿ قطعن أيديهن ﴾[٢] لفناء أوصافهم ، ولما ورد على أسرارهم من لذة النظر إلى يوسف مما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن . ولبعض أهل العصر :

غابت صفات القاطعات أكفهـا ... في شاهد هو في البرية أبـــدع
ففنين عن أوصافهن فلـم يكن ... من نعتهن تلذذ وتوجـــــع
وقيام امرأة العزيز بيوســـف ... يد نفسه ما كان يوسف يقطـع

وأنشدونا في الفناء :

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكـــر ... ولكن نسيم القرب يبدو فيبهر
فأفنى به عني وأبقى به لــــه ... إذا الحق عنه منجز ومعــــبر

ومنهم من جعل هذه الأحوال كلها حالاً واحدة وإن اختلفت عباراتها ، فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغيبة والشهود والسكر والصحو . وذلك أن الفاني عماله باق بما للحق ، والباقي بما للحق فانٍ عماله ، والمفارق مجموع لأنه لا يشهد إلا الحق ، والمجموع مفارق ، لأنه لا يشهد إياه ولا الخلق ، وهو باق لدوامه مع الحق ، وهو جامعه به ، وهو فان عما سواه ، مفارق لهم ، وهو غائب سكران لزال التمييز عنه ، ومعنى زوال التمييز عنه هو ما قلناه بين الآلام والملاذ وبمعنى أن الأشياء تتوحد له فلا يشهد مخالفة إذ لا يصرفه الحق إلا في موافقاته ، وإنما تميز بين الشيء وغيره، فإذا صارت الأشياء شيئاً واحداً سقط التمييز .

وعبر جماعة عن الفناء بأن قالوا : يؤخذ العبد من كل رسم كان له وعن كل مرسوم فيبقى في وقته بلا بقاء بعلمه ولا فناء يشعر به ، ولا وقت يقف عليه ، بل يكون خالقه عالماً ببقائه وفنائه ، ووقته ، وهو حافظ له عن كل مذموم واختلفوا في الفاني هل يرد إلى بقاء الأوصاف أم لا ؟

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٣١ .

قال بعضهم : يرد الفاني إلى بقاء الأوصاف ، وحالة الفناء لا تكون على الدوام ؛ لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها من أمور معاشها ومعادها ، ولأبي العباس ابن عطاء في ذلك كتاب سماه كتاب عودة الصفات وبدئها . وأما الكبار منهم والمحققون فلم يروا رد الفاني إلى بقاء الأوصاف منهم الجنيد والخراز والنوري وغيرهم .

فالفناء فضل من الله عز وجل ، وموهبة للعبد ، وإكرام منه له واختصاص له به . وليس هو من الأفعال المكتسبة ، وإنما هو شيء يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه واصطنعه له ، فلو رده إلى صفته كان في ذلك سلب ما أعطى ، واسترجاع ما وهب وهذا غير لائق بالله عز وجل ، أو يكون من جهة البداء ، والبداء صفة من استفاد العلم ، وهذا من الله عز وجل منفي أو يكون ذلك غروراً وخداعاً ، والله تعالى لا يوصف بالغرور ، ولا يخادع المؤمنين ، وإنما يخادع المنافقين والكافرين .

وليس مقام الفناء يدرك بالاكتساب ، فيجوز أن يكتسب ضده ، فإن عورض بالإيمان والرجوع عنه ، وهو أفضل المراتب وبه يدرك جميع المقامات أجيب عنه : أن الإيمان الذي يجوز الرجوع عنه هو الذي اكتسبه العبد من إقرار لسانه والعمل بأركانه ، ولم يخامر الإيمان حقيقة سره لا من قبل الشهود ، ولا من صحة العقود ، لكنه أقر بشيء وهو لا يدري حقيقة ما أقر به . كما جاء في الحديث : إن الملك يأتي العبد إذا وضع في لحده فيقول : ما قولك في هذا الرجل ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فهذا شاك غير متيقن ، أو يكون أقر بلسانه وانطوى على تكذيبه كالمنافق الذي أقر بلسانه وكذبه بقلبه وأضمر خلافه ، ولكنه أقر بلسانه ولم يكذبه بقلبه ولا أضمر خلافه ، ولكن لم يقع له صحة ما أقر به اكتساباً ولا مشاهدة ، لم يكتسب تحقيقه من جهة العلم فتقوم له الدلائل على صحته ، ولا شاهد بقلبه حالاً أزال عنه الشكوك وقد سبق له من الله الشفاء ، فاعترضت له شبهة من خاطر أو ناظر ففتنته فانتقل عنه إلى ضده .

فأما من سبق له من الله الحسنى ، فإن الشبهات لا تقع له ، والعوارض تزول عنه إما اكتساباً من علم الكتاب والسنة ودلائل الغفل فيزيل خواطر السوء عنه وتزد شبهات الناظر له ، إذ لا يجوز أن يكون لما خالف الحق دلائل الحق ، فهذا لا تعترضه الشكوك . أو يكون ممن وقع له صحة الإيمان ، ويرد الله تعالى عنه خواطر السوء باعتصامه بالجملة ، ويرد عنه الله الناظر المشك له لطفاً به فلا يقابله فيسلم له صحة إيمانه وإن لم يكن عنده من البيان ما يحتاج مناظرة ناظرة ولا ما يزيل خاطرة .

أو يكون ممن وقع له صحة ما أقر به شهوداً أو كشوفاً ، كما أخبر حارثة عن نفسه من شهوده ما أقر به حتى جل ما غاب عنه من ذلك محل ما حضر وأكثر ، لأنه أخبر أنه عزف عن

الشاهد ، فصار الغيب له شهوداً ، والشاهد غائباً كما قال الداراني[١] : انفتحت عيون قلوبهم ، فانطبقت عيون رؤوسهم . فمن وقع له صحة ما أقر به من هذه الجهة لم يرجع عن الآخرة إلى الدنيا ، ولا ترك الأولى للأدنى. وهذا كله أسباب العصمة من الله له ، وتصديق ما وعد بقوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... ﴾[٢] .

فقد صح أن المؤمن الحقيقي لا يتنقل عن الإيمان ، لأنه موهبة له من الله جل وعز ، وعطاء وفضل واختصاص ، وحاشا الحق عز وجل أن يرجع فيما ذهب أو يسترد ما أعطى . وصورة الإيمان الحقيقي والرسمي في الظاهر صورة واحدة و حقائقها مختلفة .

فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص ، فإن صورها مختلفة وحقائقها واحدة ، لأنها ليست من جهة الاكتساب لكن من جهة الفضل . وقول من قال : إن الفاني يرد إلى أوصافه ، محال لأن القائل إذا أقر بأن الله تعالى اختص عبداً واصطنعه لنفسه ثم قال : إنه يرده فكأنه قال: يختص ما لا يختص ، ويصطنع ما لا يصطنع ، وهذا محال . وجوازه من ناحية التربية والحفظ عن الفتنة لا يصح أيضاً لأن الله تعالى لا يحفظ على العبد ما آتاه من جهة السلب ولا بأن يرده إلى الأوضع عن الأرفع ، ولو جاز هذا جاز أن لا يحفظ مواضع الفتن من الأنبياء بأن يردهم من مرتبة النبوة إلى رتبة الولاية أو ما دونها وهذا غير جائز .

ولطائف الله تعالى في عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعد وقدرته أتم من أن تحصر على فعل دون غيره . فإن عورض بالذي آتاه آياته ﴿ فانسلخ منها ﴾[٣] لم يعترض لأن الذي انسلخ لم يكن قط شاهد حالاً ، ولا وجد مختصاً قط ولا مصطنعاً ، بل كان مستدرجاً مخدوعاً ممكوراً به .

وإنما أجرى على ظاهره من أعلام المختصين ، وهو في الحقيقة من المردودين ، وإنما حلى ظاهره بالوظائف الحسنة والأوراد الزكية ، وهو القلب محجوب السر ، لم يجد قط طعم الخصوص ، ولا ذاق لذة الإيمان ، ولا عرف الله قط من جهة الشهود ، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله ﴿ فكان من الغاوين ﴾[٤] وكما أخبر عن إبليس بقوله ﴿ وكان من الكافرين ﴾[١] .

---

(١) أبـــو سليمان ، الداراني ، عبدالرحمن بن عطية ، أحد علماء الصوفية ، ومن اتبع المشايخ للشرع - كما يذكر عنه ابن تيمية ، من أهل داريا - قرية من قرى دمشق ، توفي رضي الله عنه سنة ٢١٥هـــ ، انظر هامش تهذيب الأسرار ، ص٣٢ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٢٧ ، وتمام الآية ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

(٣) الآية كاملة هي قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١٧٥ .

قال الجنيد : إن إبليس لم ينل مشاهدته في طاعته ، وآدم لم يفقد مشاهدته في معصيته . وقال أبو سليمان : والله ما رجع من رجع إلا من الطريق ولو وصلوا إليه ما رجعوا عنه . والفاني يكون محفوظاً في وظائف الحق كما قال الجنيد ، وقيل له : إن أبا الحسين النوري قائم في مسجد الشونيزي منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وهو يقول : الله ، الله ، ويصلي الصلوات لأوقاتها ، فقال بعض من حضره : إنه صاح . فقال الجنيد : لا ، ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدي الله في مواجيدهم ، فإن رُدَّ الفاني إلى الأوصاف لم يرد إلى أوصاف نفسه ، ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق . وليس الفاني بالصعق ولا المعتوه ، ولا الزائل عن أوصاف البشرية فيصير ملكاً أو روحانياً ، ولكنه من فنى عن شهود حظوظه ، كما أخبرنا قبل . والفاني أحد عينين : إما عين لم ينصب إماماً ولا قدوة فيجوز أن يكون فناؤه عن أوصافه ، فيرى بعين العتاهة وزوال العقل لزوال تمييزه في مرافق نفسه وطلب حظوظه ، وهو على ذلك محفوظ في وظائف الحق عليه ، وقد كان في الأمة منهم كثير : منهم هلال الحبشي ، عبد كان للمغيرة بن شعبة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، نبه عنه النبي صلى الله عليه وسلم . وأويس القرني في أيام عمر بن الخطاب نبه عليه عمر وعلي رضي الله عنهما وخلق كثير . إلى أن كان عليان المجنون وسعدون وغيرهما .

أو يكون إماماً يقتدى به ويربط به غيره ممن يسوسه فأقيم مقام السياسة والتأديب ، فهذا ينقل إلى حالة البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه . والمتصرف بأوصاف الحق هو ما ذكرناه قبل ، وسئل الجنيد عن الفراسة ؟ فقال : هي مصادفة الإصابة . فقيل له : هي للمتفرس في وقت المصادفة أو على الأوقات ؟ قال : لا بل على الأوقات ، لأنها موهبة ، فهي معه كائنة دائمة . فأخبر أن المواهب تكون دائمة . ومن يتتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم علم أن قولهم ما حكيناه عنهم ، فإن هذه المسألة وأمثالها ليست بمنصوصات لهم ولا مفردات ، بل يعرف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم والله أعلم[٢] .

قال الكلاباذي : وأنشدونا للشبلي :

الوجد عندي جحود	ما لم يكن عن شهودي
وشاهد الحق عنـدي	يُفنى شهود الوجـود

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٤ .

(٢) نهاية كلام الكلاباذي في كتابه التعرف ، ص١٣٢ .

المبحث الخامس

الفناء عند الهجويري*

تكلم الهجويري في كتابه : "كشف المحجوب" عن الفناء والبقاء في حديثه عن الخرازية ، وفي باب الفقر وباب التصوف ، وفي هذا المبحث أنقل ما قاله الهجويري .

قال الهجويري : « أما الخرازيون فينتمون إلى أبي سعيد الخراز رضي الله عنه ، وله في هذه الطريقة تصانيف زاهرة ، وفي التجريد والانقطاع أثر عظيم ، وكان أول من عبر عن حال الفناء والبقاء ، وأضمر طريقته كلها في هاتين العبارتين ، وأتكلم الآتي عن معناهما ، وأورد أخطاء جماعة فيهما ، لتعرف ما هو مذهبه ، وما مقصود هذه الطائفة من هاتين العبارتين المتداولتين » .

المطلب الأول : الكلام في الفناء والبقاء :

قوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾[(١)] ، وقوله تعالى ﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[(٢)] أعلم أن الفناء والبقاء على لسان العلم بمعنى ، وعلى لسان الحال بمعنى آخر . وأهل الظاهر ليسوا أكثر تحيراً في عبارة من هذه العبارات منهم في هذه العبارة. والبقاء على لسان العلم ومقتضى اللغة على ثلاثة أنواع :

الأول: بقاء طرفه الأول في الفناء ، وطرفه الآخر في الفناء مثل هذه الدنيا التي لم تكن موجودة في الابتداء ، ولا تكون موجودة في الانتهاء ، وموجودة الآن .

والثاني: بقاء لم يكن موجوداً قط ووجد ، ولا يفنى أبداً وذلك هو الجنة والنار والآخرة وأهلها .

والثالث: بقاء لا يمكن أبداً أنه لم يكن ولا يمكن أنه لا يكون ، وذلك بقاء الحق وصفاته جل جلاله ، لم يزل ولا يزال وهو قديم في صفاته .

والمراد من بقائه: دوام وجوده "تعالى الله عما يقول الظالمون" ، ولا مشاركة لأحد معه في أوصافه . وعلم الفناء أن تعلم أن الدنيا فانية ، وعلم البقاء هو أن تعلم أن العقبى باقية لقوله تعالى

---

* الهجويري هو أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي ، الهجويري ، الغزنوي ، كان عالماً من علماء الصوفية في القرن الخامس الهجري ، وتوفي في عهد السلطان إبراهيم الغزنوي (٤٥١ - ٤٩٢هـ) .
انظر : دراسة حول الهجويري ، د. إسعاد قنديل ، ص٧ ، كتاب كشف المحجوب .

(١) سورة النحل ، الآية ٩٦ .

(٢) سورة الرحمن ، آية ٢٦ ، ٢٧ .

﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾[1] وقال "أبقى" هنا على وجه المبالغة لأن بقاء عمر الآخـرة لا يكـون في الفناء .

أما بقاء الحال وفناؤه ، فهو أنه حين يفنى الجهل فلا محالة أن يبقى العلم ، وحين تفنى المعصية تبقى الطاعة ، وعندما يحصل للعبد العلم والطاعة فإن الغفلة أيضاً تفنى ببقاء الذكر . يعني أنه حين يصير العبد عالماً بالحق ويبقى بعلمه فإنه يفنى به عن الجهل ، وعندما يفنى عن الغفلة يبقى بذكره ، ويكون هذا إسقاطاً للأوصاف المذمومة بقيام الأوصاف المحمودة . ولكن ليس مقصود خواص أهل الطريقة بهذه العبارة ما ذكرناه ، وإشاراتهم في هذا الأصل ليست بالعلم والحال. وهم لا يستعملون الفناء والبقاء في درجة كمال أهل الولاية ، لأنهم تحرروا من مشقة المجاهدة ، وخرجوا من قيد المقامات وتغير الأحوال ، ووصلوا إلى إدراك الطلب ، ورأوا جميع المرئيات بالعين ، وسمعوا جميع المسموعات بالأذن ، وعرفوا جميع المعروفات بالقلب ، وأدركوا كل المدركات بالسر ، ورأوا في إدراكها آفة إدراكها ، وأعرضوا عنها جملة ، وفنى القصد في المراد ، وبلغو الطريق ، فسقطت الدعوى وانقطعت عن المعنى وصارت الكرامات حجاباً ، والمقامات غاشية ، وليست الأحوال لباس الآفة ، وبقوا في عين المراد بلا مراد من المراد ، وسقط المشرب عن الكل ، وصار الإنس بالمستأنسات هذراً ، لقوله تعالى ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ﴾ . وأنا أقول في هذا المعنى : (شعر عربي)

فناء فنائي بفقد هوائي   صار هوائي في الأمور هواك

« فإذا فني العبد عن أوصافه ، أدرك البقاء بتمامه » . أي أنه إذا فني العبد عن آفة الأوصاف في حالة وجود الأوصاف ، بقي في فناء المراد ببقاء المراد ، فلا يكون له قرب أو بعد ، ولا تبقى له وحشة أو أنس ، ولا يكون له صحو أو سكر ، ولا فراق أو وصال ، ولا طمس أو اصطلام ، ولا أسماء وأعلام ، ولا سمات وأرقام . ويقول واحد من المشايخ رضي الله عنهم في هذا المعنى (شعر عربي) .

وطاح مقامي والروم كلاهما   فلست أرى في الوقت قرباً ولا بعدا
فنيت به عني فبان لي الهدى   فهذا ظهور الحق عند الفنا قصدا

وفي الجملة : إن الفناء عن شيء لا يصح إلا برؤية آفته ، ونفي إرادته ، لأن كل من تصور أن الفناء عن شيء يصح بحجاب ذلك الشيء يكون على خطأ ، فليس الأمر كأن يقول الآدمي حين يحب شيئاً : إنني باق بذلك ، وعندما يكره شيئاً يقول : إنني فان عنه ، لأن هذين صفة الطالب ، وليس في الفناء محبة وعداوة ولا في البقاء رؤية جمع وتفرقة .

---

(١) سورة الأعلى ، آية ١٧ .

وقد أخطأت جماعة في هذا المعنى ، وهم يظنون أن الفناء بمعنى فقد الذات وانعدام الشخص ، وأن البقاء هو أن يلحق بقاء الحق بالعبد ، وهذان كلاهما محال[1] . ورأيت في بلاد الهند رجلاً كان يدعى التفسير والتذكير والعلم ، وقد ناظرني في هذا المعنى ، فلما نظرت وجدته لم يكن يعرف الفناء والبقاء ، ولم يفرق بين المحدث والقديم . ويعتقد كثير من جهلة هذه الطائفة بفناء الكلية ، وهذه مكابرة واضحة ، لأنه لا يجوز أبداً فناء الأجزاء الطينية وانقطاعها . ونقول لهؤلاء المخطئين والجملة : ماذا تريدون بهذا الفناء ، فإذا قالوا : فناء العين ، فإنه محال وإذا قالوا فناء الوصف ، فإنه يجوز فناء صفة ببقاء صفة أخرى ، لأن حوالة هاتين الصفتين إلى العبد ، ومن المحال أن يقوم شخص بصفة آخر . ومذهب النسطورية من الروم والنصارى هو أنهم يقولون بأن مريم فنيت عن كل أوصاف الناسوت بالمجاهدة ، واتصل بما بقاء اللاهوت ، وأدركت البقاء بذلك ، حتى بقيت ببقاء الله ، وكان عيسى نتيجة ذلك ، ولم يكن تركيب عيسى من أصل الإنسانية ، لأن بقاءه تحقيق لبقاء الإلهية ، فهو وامه والله باقون ببقاء واحد ، هو القديم ، وصفة الحق . وهذه كله يوافق قول الحشوية من المجسمة والمشبهة الذين يقولون بأن ذات الله محل الحوادث ، ويجيزون للقديم صفة المحدث . ونقول للجميع كيف يكون المحدث محل القديم ، والقديم محل المحدث ؟ وكيف يكون للقديم وصف محدث ، وللمحدث وصف قديم ، وجواز هذا هو مذهب الدهرية ، ويبطل حدوث العالم ؟ فأما يجب أن يقال لصنع الصانع قديم أو أن كلاهما محدث بامتزاج المخلوق مع غير المخلوق وحلول غير المخلوق في المخلوق ، ويكفيهم هذا الخسران ، لأنهم إذا قالوا بأن القديم محل الحادث ، أو أن الحادث محل القديم أو أن الصنع والصانع قديمان ، وإذا صار البرهان ضرورة لوجب أن يقال للمحدث "صنع" ، ولصانعه محدث لأن محل الشيء يكون مثل عين الشيء ، فعندما يكون المحل محدثاً يجب أن يكون الحال محدثاً أيضاً ، فيلزم لهذا كله أن يقال للمحدث قديم أو للقديم محدث ، وكلا هذين ضلالة . وفي الجملة : إن كل شيء يكون موصولاً أو مقروناً أو متحداً أو ممتزجاً بشيء يكون حكم هذين الشيئين واحداً . إذن : بقاؤنا صفتنا ، وفناؤنا صفتنا ، وفي تخصيص أوصافنا يكون فناؤنا مثل بقائنا ، وبقاؤنا مثل فنائنا ، فالفناء وصف يكون ببقاء وصف آخر . وأيضاً إذا عبر أحد عن فناء لا تعلق للبقاء به فجائز ، وإذا عبر عن بقاء لا تعلق للفناء به فجائز أيضاً ، لأن المراد من ذلك : فناء ذكر الغير ، وبقاء ذكر الحق . "من فنى بالمراد بقى بالمراد" لأن مرادك فان ، ومراد الحق باق . وحين تكون قائماً بمرادك يفنى مرادك ، ويكون قيامك بالفناء ، وأيضاً حينما تكون منصرفا بمراد الحق ، يبقى مراد الحق ، ويكون قيامك بالبقاء . ومثال هذا أن كل ما يقع في

(١) كشف المحجوب ، ص٤٨١ ، ٤٨٢ .

سلطان النار يبدل وصف الشيء في الشيء ، فسلطان إرادة الحق أولى من سلطان إرادة النار . ولكن تصرف النار هذا في وصف الحديد ، والعين هي هي ، فلا يصير الحديد ناراً أبداً . والله أعلم .

(فصل) : ولكل من المشايخ في هذا المعنى لطيفة بالرمز . يقول أبو سعيد الخراز رضي الله عنه وهو صاحب المذهب : « الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية » . أي أن فعل العبودية آفة ، ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله ، ويفنى عن رؤية فعله ويبقى برؤية فضل الله تعالى ، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه ، لأن ما هو مقورن بالعبد من فعله يكون كله نافعاً وما هو موصول به من الحق يكون كله كاملاً ، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته فإنه يبقى بمجال ألهية الحق . ويقول أبو يعقوب التهرجوري ، رحمه الله: « صحة العبودية في الفناء والبقاء » لأنه ما لم يتبرأ العبد من كل نصيبه لا يليق للخدمة بإخلاص فالتبرؤ من نصيب الآدمية هو الفناء ، والإخلاص في العبودية هو البقاء . ويقول إبراهيم بن شيبان رحمه الله : « علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة »[1] . يعني أنه عندما يقر العبد بوحدانية الحق ، يرى نفسه مغلوباً ومقهوراً لحكم الحق ، والمغلوب يفنى في غلبة الغالب ، وحين يصح عليه فناؤه يقر بعجزه ، ولا يرى له حيلة غير العبودية ، فيتمسك بعتبة الرضا . وكل من يعبر عن الفناء والبقاء بغير هذه العبارات - يعني بالعبارة التي ترى الفناء فناء العين والبقاء بقاء العين - فهذه هي الزندقة ومذهب النصارى كما مر من قبل[2] .

ويقول صاحب الكتاب - رحمه الله - أن كل الأقاويل من وجه المعنى قريبة من بعضها البعض ، ولو أنها مختلفة في العبارة . وحقيقة هذا كله هو أن فناء العبد عن وجوده يكون برؤية جلال الحق وكشف عظمته ، حتى ينسى الدنيا والعقبى في غلبة جلاله ، وتبدو الأحوال و المقامات حقيرة في نظر همته ، وتتلاشى الكرامات في حاله ، فيفنى عن العقل والنفس ، ويفنى أيضاً في عين الفناء عن الفناء ، فينطق لسانه بالحق ، ويخشع جسده ويخضع كما هو الحال في ابتداء إخراج الذرية من ظهر آدم عليه السلام بدون تركيب الآفات في حال عهد العبودية . ويقول أحد المشايخ رضي الله عنهم في هذا المعنى : (شعر عربي)

لا كنت إن كنت أدري كيف السبيل إليكا

أفنيتني عن طبعي فصرت أبكي عليكا

---

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية للسلمي ، ص٤٠٤ .

(٢) كشف المحجوب ، ص٤٨٦ .

ويقول آخر :

ففي فنائي فناء لفنائـــــي — وفي فنائي وجدت أنت
محوت اسمي ورسم جسمي — سئلت عني فقلت أنـت

هذه هي أحكام الفناء والبقاء . وقد ذكرت[١] طرفاً منها في بابي "الفقر" والتصوف . وحيثما أعبر عن الفناء والبقاء في هذا الكتاب[٢] ، فالمراد هو هذا . وهذا قانون مذهب الخرازيين[٣] وأصل ذلك الشيخ العظيم الطيب الحال ، وهو أصل طيب ن والفضل الذي يكون دليل الوصل يكون على أصل . وهذه العبارة مشهورة في جريان كلام هذه الطائفة . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب[٤] .

وجاء في باب التصوف في كتاب "كشف المحجوب" : « الصوفي هو الفاني عن نفسه ، والباقي بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق »[٥] . وقال الهجويري : « حقيقة التصوف تقتضي فناء صفة العبد ، وفناء صفة العبد يكون ببقاء صفة الحق ، وهذا نعت الحق . ورسمه يقتضي دوام مجاهدة العبد ، والمجاهدة صفة العبد »[٦] .

وقال الهجويري في شرحه لكلام أبي الحسين النوري الذي قال فيه : "التصوف ترك كل حظ النفس" : « وهذا يكون على نوعين: أحدهما رسم ، والآخر حقيقة ، بمعنى أنه إذا كان تاركاً للحظ فإن تركه الحظ يكون حظاً أيضاً ، وهذا هو الرسم . وإذا كان الحظ تاركاً له ، فهذا هو فناء الحظ. وهذا يتعلق بحقيقة المشاهدة ، فترك الحظ فعل للعبد ، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله ، وفعل العبد رسم ومجاز وفعل الحق حقيقة »[٧] .

ويقول الهجويري في شرحه لقول أبي عمرو الدمشقي: « التصوف رؤية الكون بعين النقص، بل غض الطرف عن الكون »[٨] : « التصوف هو أن لا تنظر إلى الكون إلا بعين النقص ، وهذا هو دليل

---

(١) أي الهجويري .

(٢) كشف المحجوب .

(٣) الخرازيون هم المنتمون لأبي سعيد الخراز .

(٤) كشف المحجوب ، ص٤٨٧ .

(٥) كشف المحجوب ، ج١ ، ص٢٣١ .

(٦) المصدر السابق ، ص٢٣٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص٢٣٢ .

(٨) ورد في طبقات الصوفية ونفحات الأنس وهامش كشف المحجوب هكذا : « التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منـــزه عن كل نقص » .
انظر : طبقات الصوفية ، ص٢٧٨ . نفحات الأنس ، ص١٥٦ . هامش كشف المحجوب ص٢٣٣ .

بقاء الصفة . وأن تغض الطرف عن الكون ، وهذا هو دليل فناء الصفة ، لأن النظر من الكون ، وحين لا يبقى الكون لا يبقى النظر أيضاً . وغض الطرف عن الكون هو بقاء البصيرة الإلهية ، أي أن من لا يصير مبصراً بنفسه يصير مبصراً بالحق ، لأن كون الطالب يكون طالباً أيضاً ، وأمره منه إليه ولا مخرج له عن نفسه ، فواحد يرى نفسه ولكن يراها ناقصة ، وواحد يغض الطرف عن نفسه ولا يراها ، ومن يرها وإن يرها ناقصة فرؤيته حجاب ، ومن لا يراها فإنه لا يحجب بعدم الرؤية . وهذا أصل قوي في الطريقة الصوفية وأرباب المعاني ، ولكن ليس هنا مكان شرح هذا »[١] . وقال الهجويري في باب الفقر : « وهذا الصبر والاعتقاد من جملة مقامات العبد ، والفقر فناء مقامات العبد . فاعتقاد الصبر على الفقر علامة رؤية آفات الأعمال ، وسمة فناء الأوصاف »[٢] .

المطلب الثاني : فناء الصفة :

قال الهجويري عن فناء الصفة في كتابه كشف المحجوب في باب الفقر : « ..... ويقول بعض المتأخرين : "الفقر عدم بلا وجود" والعبارة منقطعة عن هذا القول ، لأن المعدوم لا يكون شيئاً ، ولا يمكن التعبير إلا عن شيء . والصورة هنا أن الفقر ليس بشيء ، ولا تكون عبارات كل أولياء الله تعالى واجماعهم على أصل يكون في عين ذاته فانياً ومعدوماً . ولا يريدون هنا من هذه العبارات عدم العين بل عدم الآفة من العين، وكل أوصاف الآدمي آفة ، وعندما تنفى الآفة يكون ذلك فناء الصفة، وفناء الصفة يرفع من أمامهم آلة الوصول وعدم الوصول ، فيظهر لهم عدم السلوك بالعين نفياً للعين ، ويهلكون في ذلك »[٣] .

وقال الهجويري : « والمراد بالعدم والفناء في عبارات هذه الطائفة - أي الصوفية - فناء الآلة المذمومة والصفة المرذولة في طلب الصفة المحمودة لا عدم المعنى بوجود آلة الطلب »[٤] .

المطلب الثالث : الفناء الكلي عند الهجويري :

تكلم الهجويري عن الفناء الكلي وبين أن المراد به عند بعض الصوفية أن لا يملك الصوفي « أي شيء من متاع الدنيا وزينة العقبى ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان إرادته عن الغير ليقطع الغير عن لمع العبودية » ، ويقول بالفناء الكلي من الصوفية من يقدم الفقر على الصفوة ، فمن يقدم الفقر على الصفوة يرى أن الصفوة مقام من المقامات والفقر هو

---

(١) كشف المحجوب ، ص٢٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٢٢ .

(٣) كشف المحجوب ، ص٢٢٥ .

(٤) كشف المحجوب ، ص٢٢٥ .

فناء الكل . ومن يقدم الصفوة على الفقر يقول : « إن الفقر شيء موجود قابل للاسم ، والصفوة صفاء من جميع الموجودات والصفاء عين الفناء ، والفقر عين الغنى ، فالفقر من أسماء المقامات والصفوة من أسماء الكمال » .

وقد ذهب أبو الحسن بن شمعون مذهباً في مسألة الفناء الكلي يختلف عن مذهب بعض الصوفية في هذه المسألة فهو يقدم الفقر "فناء الكل" على الصفوة في الحالة التي يكون فيها في كشف يتعلق بالبقاء . "وعندما يكون في كشف يتعلق بالفناء يقدم الصفوة على الفقر"[1] .

وقد سأل أرباب المعاني أبا الحسن بن شمعون عن ذلك فقال « للطبع مشرب تام في الفناء والانقلاب ، ومثله أيضاً في البقاء والعلو ، فحينما أكون في محل يتعلق بالفناء أقدم الصفوة على الفقر ؛ لأن الفقر اسم الفناء ، والصفوة اسم البقاء ، لأفنى عن نفسي رؤية البقاء في البقاء ، ورؤية الفناء في الفناء ، حتى يفنى طبعي عن الفناء والبقاء » .

قال الهجويري في تعليقه على كلام أبي الحسن بن شمعون : « وهذا كلام طيب من حيث العبارة ، ولكن الفناء يكون للفناء وليس للبقاء . وكل باق يفنى عن نفسه فهو فان ، وكل فان يبقى بنفسه فهو باق ، والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص : إن الفناء يفنى ، لأن المبالغة في نفي أثر وجود ذلك المعنى يمكن أن تكون في الفناء ، وطالما بقي أثر ، فإنه لا يكون فناء بعد ، فإذا حصل الفناء فإن فناء الفناء لا يكون شيئاً سوى الأغراب في عبارة بلا معنى »[2] .

---

(١) كشف المحجوب ، ص٢٥٥ و ص٢٥٦ .

(٢) كشف المحجوب ، ص٢٥٦ .

المبحث السادس

الفناء عند الشيخ العطار

يقول الشيخ العطار في كتابه منطق الطير :

ما دمت في الوجـود والعـــــــــــدم
فمتى يكون أن تسير في طريق هذا المنـــــــزل
لما لم يبق هذا ولا ذاك في طريقــــــك
فكيف يأتيك النعاس يا أبلـــــــــــــــه
كن معدوماً حتى يصل الوجود منه إليك
فما دمت موجوداً فمتى يصل إليك الوجـــــود
ما لم تصبح معدوماً بالذلة والفنــــاء
فمتى يصل إليك الاثبات من صدر العز والبقاء[1]

ويقول العطار عن الوسيلة الموصلة للفناء : « وإن ترغب في الوصول إلى هناك فإنك تصل إلى هذه المرتبة العالية فتخلص من نفسك أولاً ، ثم امتط براقاً من العدم ، وأرتد كذلك قباء العدم ، واشرب كأساً مليئة بالفناء ، واطرح ذات مرة خرقة (ما كان) وتعمم بطليلسان (لم يكن) ، وسر في طريق الفناء متخطياً العدم ، وسق حصان العدم بعيداً عن العدم ، واعقد على وسطك الغمد ، وتمنطق على غير وسط بمنطقة من (لاشيء) ، واطمس عينيك ثم افتحها بسرعة وبعد ذلك كحل عينيك بكحل العدم ، وليصبك الاضمحلال تدريجياً ، ولتقلل من كل العلائق ثم لتفن كلية بعد هذا الاضمحلال ، ثم امض هكذا في يسر وسهولة حتى تصل إلى عالم القلة والعدم ، وأن تبق لك قدر شعرة من أثر هذا العالم فليس لك قدر شعرة من علم بذلك العالم وان تبق شعرة من وجودك فستمتلئ البحار السبعة بدنسك »[2] .

---

(١) تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غنى ، ص ٥٤٠ .

(٢) نظرية الاتصال عند الصوفية ، لسارة بنت عبدالمحسن آل سعود ، ص١٧٧ ، نقلاً عن منطق الطير ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

المبحث السابع
ذكر الخركوشي للفناء والبقاء
في كتابه تهذيب الأسرار

عقد الخركوشي في كتابه تهذيب الأسرار مبحثاً عن ذكر الفناء والبقاء ، ذكر فيه أقوال الزهاد الأوائل في الفناء والبقاء ، وبين فيه أنواع الفناء والبقاء[1] . قال الخركوشي[2] : وقال أبو سعد الواعظ : أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، وأبو إسحق إبراهيم بن أحمد قالا : أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا أمية بن بسطام ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا رَوح بن القاسم ، عن العلاء بن عبدالرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول العبد مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاثة ، ما أكل فأفنى أو أعطى فأمضى ، أو لبس فأبلى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »[3] .

وقال بعضهم : الفناء فناء العبد عن كل شيء بالتوحيد ، والبقاء بقاء علم التوحيد ، واحتجوا بقول الله عز وجل ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾[4] وقال تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[5] وقال بعضهم الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد شاهداً الإلهية . وقال بعضهم : إن الفناء حق الفناء فناء النفس في النفس ، حتى تبقى النفس بلا نفس . ويقال : الفناء أن تفنى النفس عن إرادة الشهوة ، وكل إرادة فاسدة ليس لله تعالى فيه رضى من أسباب الدين والدنيا . وقال بعضهم : الفناء فناء الخلق والبقاء بقاء الله تعالى . قال الله

---

(١) انظر تهذيب الأسرار الذي حققه الأستاذ بسام محمد بارود ، ونشره المجمع الثقافي بأبو ظبي ١٩٩٩م ، ص٣٨٤-٣٨٨ .

(٢) الخركوشي هو: عبدالملك بن محمد بن إبراهيم ابن يعقوب ، أبو سعد بن أبي عثمان ، الواعظ ، النيسابوري المعروف بالخركوشي ، توفي سنة سبع وأربعمائة من الهجرة = ١٠١٦م . سمع الحديث على عدد من الشيوخ بنيسابور والعراق ، وصنف في علوم الشريعة ودلائل النبوة ، وفي سير العباد والزهاد ، ومن مؤلفاته : (١) تفسير القرآن الكبير (٢) الزهد (٣) دلائل النبوة (٤) البشارة والنذارة في تفسير الأحلام (٥) سير العباد والزهار (٦) شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم في ثمانية أجزاء وحدث عنه جماعة منهم الحاكم وأبــو القاسم القشيري . قال الخطيب في تاريخه: كان ثقة ورعاً ، وكان ممن وضع له القبول في الأرض. وقال السبكي في طبقاته: وكــان فقيهاً زاهداً من أئمة الدين وأعلام المؤمنين ، ترتجى الرحمة بذكره. وقال عنه ابن عساكر: كان يعمل القلانس ويأمر ببيعها بحيث لا يُدرى أنها من صنعته ويأكل من كسب يده . انظر : تهذيب الأسرار ، ص١٥-١٧ .

(٣) قــال الأســتاذ بارود في هامش الكتاب : ((أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن مردويه من حديث أبي هريرة بلفظ (يقــول العــبد مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاثة ما أكل فأفنى ، وما لبس فأبلى أو تصدق فأبقى) وما سوى ذلك فهذا ذاهب وتاركــه للــناس)) . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً : يقول ابن آدم مالي مالي وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأمضى (تخريج أحاديث الإحياء الحديث ٢٩٤٥)

(٤) سورة الحج ، الآية ٥ .

(٥) سورة الحديد ، ص٢٣ .

تعالى ﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[١] وقال بعضهم : علم الفناء مجهول وعلم البقاء موجود . وسئل أبو سعيد الخراز عن علاقة الفاني ، فقال : علامة الفاني ذاهب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى ، ثم يبدو له الآيات من قدرة الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية حظه ويبقى عليه ما كان لله عز وجل .

وسئل الشبلي[٢] عن الفناء والبقاء ، فقال : إذا ترع الصفة ملبوسها وليس مخلوعها. وقال الجنيد[٣] : هو بقاء لاحق وفناء كل ما دونه . وسئل أبو الحسين النوري[٤] عن الفناء فقال : والذي نفسي بيده إنه أول مقام من مقام التصوف . وسئل أبو سعيد الخراز[٥] عن البقاء فقال: أعلم أن أول البقاء في حقائق البقاء الآثرة لله عز وجل على جميع خلقه ، والفناء عن كل شيء إلا الاشتغال بداوم ذكره ، وكمال الفناء صدق الانفراد لصحة الشغل به ، حتى يكون هو الحظ بسقوط كل حظ معه فيبدو عند ذلك باد من الكبرياء فيغيب في جنب ما بدا له من وجود حظه منه ، فيكون في أول درجات الفناء . وقال الشبلي : أفن كلك لمن أحببته حتى لا يبقى لك منك شيء .

وقال أبو سعيد الخراز في معنى قوله عز وجل ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[٦] قال: أخلاهم في أفعالهم من أفعالهم ، وهو أول حال الفناء . وسئل أبو يعقوب النهرجوري عن صحة علم الفناء والبقاء ، فقال : صحة العبودية في الفناء والبقاء واستعمال علم الرضا ، ومن لم تصحبه العبودية في الفناء والبقاء فهو مدع . وقال الجنيد : إذا فنى العبد عن أوصافه أدرك البقاء بتمامه .

وأنشدت[٧] :

وطاح مقامي والرسوم كلاهمـــا   فلست ارى في الوقت قرباً ولا بعدا
فنيت له عني فبان له بـــــــه   فهذا ظهرو الحق عند الفنا قصدا
أحاط بي التعظيم من كل جانب   وعاد صفات الحق حقاً تلى العبدا

---

(١) سورة الرحمن ، الآية ٢٦-٢٧ .

(٢) أبـــو بكر الشبلي : اسمه دلف ، يقال ابن جحدر ويقال ابن جعفر ، وقيل اسمه جحدر بن دلف ، بغدادي المولد والمنشأ ، ويلقب بالشبلي ، عاش سبعاً وثمانين سنة ومات في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . انظر : ترجمته في (أبو بكر الشبلي حياته وآثاره وفكره) للدكتور شوقي بشير ٤-١٦ .

(٣) الجنـــيد بن محمد : هو أبو القاسم ، الجنيد بن محمد الجنيد، الخزاز ، ويقال له القواريري ن ولد ببغداد ونشأ بها. وكان وفاته سنة ثمان وتسعين ومائتين ، وذكر ابن كثير أنها كانت سنة سبع وتسعين ومائتين) .

(٤) أبـــو الحسنين النوري : أحمد بن محمد بن عبدالصمد لانوري ، بغداد المولد صحب سرى السقطي وأحمد ابن أبي الحواري ، وكان من أقران الجنيد مات سنة ٢٩٥هـــ ، انظر ترجمته في كتب التراجم خاصة حليفة الأولياء .

(٥) أبو سعيد الخراز : إمام من الأئمة ، صنف عدداً من الكتب منها كتاب الصدق الذي حققه الأستاذ الدكتور عبدالحليم محمود وذكر في تقديمه له ترتيب المقامات عند أبي سعيد نقلاً عن حلية الأولياء . انظر ترجمته : في حلية الأوليات لأبي نعيم .

(٦) سورة النمل ، آية ٥٣ .

(٧) أي الخركوشي .

وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية وما غير هذا فهو الأغاليط والزندقة[1] .

وعن أبي سعيد القرشي قال: الفناء أن تبدو العظمة على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة ، والأحوال ، والدرجات ، والمقامات ، والأذكار ، وتغيبه عن عقله ونفسه ، وعن فنائه عن الأشياء ، وعن فنائه عن الفناء ، فيكون لله تعالى يقويه للأشياء كما أنطقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام ، وأخذ عليهم الميثاق .

وقال بعضهم : الفناء فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة . وقال الجنيد : كنت في أحوال ثلاثة : أما الأولى فلو بكت على السموات والأرض لم يكن عجباً من شدة تحيري ، ثم حدثت حالة لو بكت على أهل السموات والأرض من غيبتهم عن الحق و جهلهم به لم يكن عجباً ، ثم حدثت حالة أخرى لم أر إلا نعوتاً قائمة قدرة ومشيئة وملكا وقضية فطالعت الأولية والآخرية فغبت عن الكل وفنيت عنها ، وفيها بقائي .

وقال أبو العباس بن عطاء : أول ما دخلوا في الفناء أسقطوا عن أنفسهم كل شيء إلا التزام العبودية ، فإن صحة الفناء والبقاء بصحة العبودية . ويقال: أمر الفناء لا يصح إلا لمن فنيت نفسه عن الآثام كلها ، وعن الفضول ، وعما لا يعنيه . ويقال : علم الفناء والبقاء هو علم فناء الدنيا وزوالها وعلم بقاء الآخرة ودوامها ، قال الله تعالى ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : ١٧] .

وأنشدت :

لا كنت إن كنت أدري … كيف السبيل إليــكا
أفنيتني عن جميعي … فصرت أبكي عليكا

ولذي النون رضي الله عنه :

وقوم تاه في أرض بقفــر … وقوم تاه في ميدان حبــــه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا … وحى صار في ميدان قربـــه
فأبقوا ثم أبقوا ثم أبقوا … وأدنوا بالدنو من قرب قربه

أفنوا عن حظوظ أنفسهم وعن الخلق وعن المراد والهمة . وثلاثة أنواع من البقاء يبقون ببقاء المعرفة ، ثم ببقاء الأنس ، ثم ببقاء الرؤية ، ومعنى يبقيه أي يحييه[2] .

---

(١) انظر أيضاً كشف المحجوب للهجويري ، ص٤٨٦ .

(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ، ص٣٨٤-٣٨٦ .

الفصل الثاني
الفناء عند شيوخ الصوفية

تمهـــيـــــد

المبحث الأول : الفناء عند الجنيد بن محمد - سيد الطائفة -

المبحث الثاني : الفناء عند الحارث بن أسد المحاسبي

المبحث الثالث : أبو حفص عمر بن سالم النيسابوري والفناء

المبحث الرابع : قول الخراز في الفناء والبقاء

المبحث الخامس : الفناء عند الجيلاني

المبحث السادس : الفناء عند الشقاني وأقوال أخرى في الفناء

المبحث السابع : الفناء عند ابن عربي

الفصل الثاني

الفناء عند شيوخ الصوفية

تمهيـــــــد :

تكلم الصوفية عن الفناء وأنواعه ، ويقال : إن أول من عبر عن مقام الفناء والبقاء هو أبو سعيد الخراز من أهل بغداد[1]، وقال آخرون بأن أبا يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١هـ أسبق من تكلم في موضوع الفناء ، واعتبره الدرجة القصوى في سلم معراجه الروحي[2] . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن ذا النون المصري[3] استعمل لفظ الفناء وهو ضد البقاء كما استعمله البسطامي[4] . وتكلم عن الفناء والبقاء أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان الملقب بالسيد الإمام ، وهو أستاذ الهجويري صاحب كشف المحجوب ، وكان معاصراً لأبي سعيد ابن أبي الخير ، ولأبي القاسم الجرجاني . وصنف الهجويري كتاباً في أيام صباه عن الفناء تحت عنوان (الفناء والبقاء) ، وقد تحدث عنه في كتابه كشف المحجوب ، وذكر أنه صنفه في أيام هوس الصبا وحدة الأحوال ، وكأنه يعتذر بحديثه عن وقت تصنيفه وحاله في تلك الأيام ، لما ورد فيه من أشياء يمكن أن تؤخذ عليه . وقد أورد الهجويري أحكام الفناء في كتابه كشف المحجوب في حديثه عن الخرازية .

وقد أورد الأستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر رحمه الله نص كتاب الفناء للجنيد بن محمد سيد الطائفة في كتابه "التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً" وما أثبته الدكتور محمد كمال في كتابه هذا في ملاحق الكتاب - نصوص صوفية إسلامية - يخالف تحقيق الدكتور علي عبدالقادر لنص كتاب الفناء للجنيد ، وقد اهتم الأستاذ الدكتور محمد كمال بالنص ، وخالف قراءة عدد من المستشرقين له ، وسأعتمد على تحقيقه في حديثي عن الفناء عند الجنيد .

---

(١) توفي سنة تسع وسبعين ومائتين ، من أهل بغداد . قال عنه الهجويري: « كان لسان حال المريدين ، وبرهان أوقات الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء ، وله مناقب مشهورة ، ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متلألئة ، ورموز عالية » .
- كشف المحجوب ، ص٣٥٥ - .

(٢) أشار إلى هذه المسألة الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي في كتابه «التصوف الثورة الروحية في الإسلام» ، ص١٧٩ .

(٣) ذو النون المصري ، أبو الفيض ، ذو النون بن إبراهيم المصري ، صوفي ، يقال إنه سوداني الأصل أو نوبي . ذكره ابن العماد في وفيات سنة خمس وأربعين ومائتين هجرية ، وذكره القشيري وترجمت له كتب التراجم .

(٤) أبو يزيد طيفور بن عيسى سروشان ، كان جده مجوسياً فأسلم ، والبسطامي نسبة إلى بسطام ، وقد توفي البسطامي سنة إحدى وستين ومائتين . انظر ترجمته في هامش كتاب كشف المحجوب ، ص٢١٣ ، طبقات الصوفية ص٦٧ ، الرسالة القشيرية ، ج١ ، ص٨٠ . وفيات الأعيان ١:٢٤٠ .

وتكلم عن الفناء الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، تكلم عن الفناء عن عبادة السوى ، وكيفية الفناء وبدايته ونهايته ، والخروج من باب الأفناء إلى الفناء ، وتكلم أيضاً عن الفناء بالله تعالى وهو الفناء عن عبادة السوى ، وتكلم عن الفناء عن الأكوان ، وعن الخلق ، وعن الطبع . وللجيلاني نظم عن الفناء في قصيدته العينية .

وقال بالفناء الصوفي الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الشقاني شيخ الهجويري صاحب كتاب كشف المحجوب . وصنف أبو محمد رويم بن أحمد كتاباً تحت عنوان "غلط الواجدين" وقد كان الهجويري مفتوناً بهذا الكتاب[١] .

وقد تكلم بعض الصوفية عن حالة تسمى فناء النفس في الشيخ ، وهي أو الطريق عند الصوفية . ويعني الفناء في الشيخ أن يطيع الحوار أو المريد الشيخ في أمور الدين والدنيا ، وهذه المسألة ليست هي موضوع هذه الدراسة ، وقد تكلم عنها السلف ، وبينوا أنهم لا يقرون منها إلا ما كان طاعة لله ورسوله ، وعلى المريد أن يسلك مسلك شيخه إذا كان مسلكاً إسلامياً خالصاً لوجه الله ، أما إذا كان خدمة الشيخ يشتم منها شرك جلي أو خفي أو تقديس فذلك لا يقره مسلم ، فالإخلاص الذي هو ترك الرياء في الطاعات هو حقيقة الإسلام ، إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره[٢] .

وسنكتفي - إن شاء الله - في كلامنا عن كلام الصوفية بعدد من أئمتهم تناولوا هذه المسألة ، معظمهم من الصوفية السنيين ، وواحد من الصوفية الفلاسفة .

---

(١) قال الهجويري عن أبي رويم : ((وله تصانيف في هذا الطريق في السماع ، وبخاصة الكتاب الذي أسماه «غلط والواجدين» وأنا مفتون به)) .
انظر : كشف المحجوب للهجويري ، ص٢٣٧ .

(٢) انظر : شرح حديث أبي ذر لابن تيمية ، ص٥٨ ، التحفة العراقية ، ص٤١ .
نقد ابن تيمية ومدرسته للتصوف ، رسالة مخطوطة ، ماجستير، للدكتور شوقي بشير، مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية، ص١٠١ .

المبحث الأول

الفناء عند الجنيد بن محمد

(سيد الطائفة الصوفية وشيخ الطريقة الجنيدية ت ٢٩٧هـ)

تمهيـد :

الفناء عند الجنيد بن محمد ، سيد الطائفة الصوفية ، هو الفناء الكامل ، المحمود ، المطلوب ، الشرعي ، الذي يفنى فيه العبد بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبحب الله عن حب ما سواه ، وبالخوف من الله عن الخوف مما سواه ، وبالتوكل على الله من التوكل على سواه ، الفناء الذي يعني إفناء المشاعر والرغبات الأرضية في شيء أكبر وأعظم من المثل الأعلى المصطلح عليه خلقياً وتربوياً أي « إفناء هوى النفوس وشهواتها وعواطفها وكل ما تحب فيما يحبه الله ويريده ويأمر به ، ليعيش الصوفي متخلقاً بخلق الله » ، أو كما يقول الجنيد « فتكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفاته ، فيكون فانياً عن المخالفات ، باقياً في الموافقات »(١) .

قال الكلاباذي : أنشدونا للجنيد :

الوجد يطرب من في الوجد راحتـــه
والوجد عند حضور الحق مفقـــود
قد كان يطربني وجدي فاشـــغلني
عن رؤية الوجد ما في الوجد موجود

وقال الجنيد : لا يكونن همك في صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لا وسيلة إليه إلا به(٢) .

وقيل للجنيد كان أبو سعيد الخراز ، رحمهما الله تعالى كثيراً ما يتواجد عند الموت ، فقال الجنيد رحمه الله : لم يكن يعجب أن تكون تطير روحه إليه اشتياقاً(٣) . وللجنيد في معرفة الجمع والتفرقة :

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ، تقديم محقق الكتاب ، ص٥ .

(٢) التعرف للكلاباذي، ص١١٣، ١١٤ ، وجاء عن جعفر الخالدي – في تهذيب الأسرار – قال جعفر الخالدي: أنشدني الجنيد بن محمد

وجودي أن أغيب عن الوجود   بما يبدو عليّ من الشـــــهود
وما في الوجد لي فخر ولكـــن   فخرت بوجود موجود الوجود

تهذيب الأسرار ، ص٣٤٦ .

(٣) اللمع ، ص٢٨٢ .

فتحققتك في سري فناجاك لساني

فاجتمعنا لمعانٍ وافترقنا لمعاني

إن يكن غيبك العظيم عن لحظ عياني

فقد صيرك الوجد من الأحشاء داني[(١)]

وقد ذهب الجنيد رحمه الله تعالى إلى أن قربه بالوجد جمع ، وغيبته في البشرية تفرقة ، قال الجنيد : الجمع هو القرب بالوجد والتفرقة هي الغيبة في البشرية وعن جعفر الخلدي قال: سمعت الجنيد رحمه الله تعالى ، يقول : وسئل عن الفناء فقال : « إذا فنى الفناء عن أوصافه ، أدرك البقاء بتمامه ». قال : وسمعت الجنيد رحمه الله تعالى يقول ، وقد سئل عن الفناء ، فقال : « استعجام كلك عن أوصافك ، واستعمال الكل منك بكليتك »[(٢)] .

وسئل الجنيد عن الإخلاص فقال : « ارتفاع رؤيتك ، وفناؤك عن الفعل »[(٣)] . وقال الجنيد : « الخوف يقبضني والرجاء يبسطني ، فمهما أكن منقبضاً بالخوف يكون ثمة فناء ، وعندما أنبسط بالرجاء يعيدون إليّ نفسي »[(٤)] .

كلام الجنيد في قوة سلطان الوجد عند الصوفية :

قال جعفر بن محمد الخلدي : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : ذكر يوماً عند سرى السقطي رحمه الله تعالى المواجيد الحارة في الأذكار القوية وما جانس هذا مما يقوى على العبد ، فقال سرى رحمه الله وقد سألته فيه فقال : نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يحسه .

قال أبو القاسم رحمه الله : كان عندي في ذلك الوقت أن هذا لا يكون ، فراجعته أنا في ذلك الوقت فقلت له : يضرب بالسيف ولا يحس ؟ إنكاراً مني لذلك ! فقال : نعم يضرب بالسيف ولا يحس ، وأقام على ذلك .

وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول : إذا قوي الوجد يكون أتم ممن يستأثر العلم وذكر عنه أيضاً أنه قال : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وفضل العلم أتم من فضل الوجد . وقد ذكر عنه جعفر الخلدي رحمه الله أنه قال : الحملات في الوجد بعد الغلبة أتمُ من المحمول قبل

---

(١) اللمع ، ص٢٨٣ ، وتهذيب الأسرار ، ص٣٨٠ .

(٢) اللمع ، ص٢٨٥ .

(٣) اللمع ، ص٢٨٩ .

(٤) تاريخ التصوف في الإسلام ، لقاسم غنى ، ص٧٥ .

الغلبة ، فقيل له كيف نزلت هذا التنزيل ؟ فقال : المحمول من غلبته بالحمل بعد القهر أتمُّ ، والمغلوب بعد حملانه عن نفسه وشاهده أتمُّ[(١)] .

نص كتاب الفناء للجنيد بن محمد (ت٢٩٧هـ)*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلواته على محمد وآله وسلم تسليماً

كتاب الفناء

كلام الإمام أبي القاسم الجنيد بن محمد قدس الله روحه[(٢)] .

الحمد لله الذي قطع العلائق عن المنقطعين إليه ، ووهب الحقائق للمتصلين به المعتمدين عليه حين أوجدهم ووهب لهم حبه ، فأثبت العارفين في حزبه ، وجعلهم درجات في مواهبه ، وأراهم قوة أبداها عنه ، ووهبهم منه من فضله ، فلم تعترض عليهم الخطرات بملكها ، ولم تلتق بهم الصفات المسببة للنقائص في نسبتها ؛ لا نتسابهم إلى حقائق التوحيد بنفاذ التجريد فيما كانت به الدعوة ، ووجدت به أسباب الخطوة من بوادي الغيوب وقرب المحبوب .

ثم سمعته يقول : وهبنيه ثم استتر بي عني ، فأنا أضر الأشياء على الويل لي مني : أكادني وعنه بي خدعني ! كان حضوري سبب فقدي ، وكانت متعتي بمشاهدتي كمال جهدي ، فالآن عدمت قواي لفناء سري . لا أجد ذوق الوجد ولا أخلو من تمكين الشهود ، ولا أجد النعيم من جنس النعيم ، ولا التعذيب من جنس التعذيب ، فطارت المذاقات عني ، وتفانت اللغات من وضعي ، فلا صفة تبدي ولا داعية تحدى ، كان الأمر في إبدائه كما لم يزل في ابتدائه .

قلت : فما أبان منك هذا النطق ولا صفة تبدو ولا داعية تحدو ؟ قال : نطقت بغيبتي عن مالي ، ثم أبدى علي من شاهد قاهر وظاهر شاهر . أفناني بإنشائي كما أنشأني بدياً في حال فنائي ،

---

(١) اللمع ، ص٣٨١ .

* محمد كمال إبراهيم جعفر (دكتور) : التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ، ط دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٠م نقلاً عن رسائل الجنيد / مخطوط تمهيد على رقم ٥٥٠١٣٧٤ - ٥٨ (أ + ب) ما أثبته الدكتور محمد كمال في كتابه هذا في ملاحق الكتاب - نصوص صوفية إسلامية - يخالف تحقيق الدكتور علي عبدالقادر لنص كتاب الفناء للجنيد ، وكذلك يخالف قراءة المستشرقين في أكثر من مائة موضع وقد اهتم الدكتور محمد كمال بنص الجنيد ، فذكره في كتابه كاملاً وطبعه بعد تحقيق بين فيه أوجه الاختلاف مع ناشري هذا النص وتعليق واف وترجمة إلى الإنجليزية .

(٢) الجنيد بن محمد ، سيد الطائفة الصوفية وشيخ الطريقة الجنيدية . توفي سنة ٢٩٧هـ وقيل سنة ٢٩٨هـ . وطريقته مبنية على الصحو على عكس الطيفوريين وشيخهم (طيفور) أبو يزيد البسطامي . تكلم عن الجنيدية الهجويري في كتابه كشف المحجوب ص ٤١٩ وكتبت عنهم «الجنيدية» ، انظر الجنيدية للدكتور شوقي بشير عبدالمجيد .

فلم أؤثر عليه لبراءته من الآثار ولم أخبر عنه إذ كان متولياً للإخبار . أليس قد محا رسمي بصفته، وبإمحائي فات علمي في قربه ؟ فهو المبدئ كما هو المعيد . قلت - فما قولك - أفناني بإنشائي كما أنشأني بدياً في حال فنائي ؟ قال : ألست تعلم أنه عز وجل قال : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني أدم ... ﴾ إلى قوله شهدنا . فقد أخبرك عز وجل أنه خاطبهم وهم غير موجودين إلا بوجوده لهم ، إذ كان واجداً للخليقة بغير معنى وجودها لأنفسها : بالمعنى الذي لا يعلمه غيره ولا يجده سواه ، فقد كان واجداً محيطاً شاهداً عليهم بدياً في حال فنائهم عن بقائهم الذي كان (في الأزل) للأزل ، فذلك هو الوجود الرباني والإدراك الإلهي الذي لا ينبغي إلا له عز وجل ، ولذلك قلنا : إنه إذا كان واجداً للعبد يجري عليه مراده من حيث يشاء بصفته المتعالية التي لا يشارك فيها ، كان ذلك الوجود أتم الوجود وأمضاه لا محالة ، وهو أولى وأغلب وأحق بالغلبة والقهر وصحة الاستيلاء على ما يبدو عليه حتى يمحى رسمه عامة ويذهب وجوده إذ لا صفة بشرية ، وهو وجود ليس يقوم به ، لما ذكرنا ، تعالياً من الحق وقهره . فإذن كان هذا تلبساً على الأرواح ما لها من الأزلية ، ونعيماً ليس من جنس النعيم المعقول وسخاء بالحق لا من جنس السخاء المعلوم ، إذ كان عز وجل لا يحس ولا يمس ، ولا تبدل ذاتيته ، ولا يعلم أحد كيفية لطائفه في خلقه ، وإنما معنى ذلك رباني لا يعلمه غيره ، ولا يقدر عليه إلا هو ، ولهذا قلنا إن الحق إذا أفنى ما بدا عليه ، وإذا استولى كان أولى بالاستيلاء وأحق بالغلبة والقهر . قلت : فماذا يجد أهل هذه الصفة وقد محوت اسم وجودهم وعلومهم ؟ قال : وجودهم بالحق بهم ، وما بدا عليهم بقول وسلطان غالب لا ما طلبوه فأدركوه[1] ، وتوهموه بعد الغلبة فيمحقها وينفيها . فإنه غير متسبب بهم ولا منسوب إليهم . وكيف يصفون أو يحدون ما لم يقدموا فيحملوه أليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله عز وجل (لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به) ؟ وفي الحديث زيادة في الكلام ، غير أني قصدت الحجة منه في هذا الموضع ، فإذا كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، فكيف تصف ذلك بكيفية أو تحد بحد تعلمه ؟ ولو ادعى ذلك مدع لأبطل في دعواه ، لأنا لا نعلم ذلك كائناً بجهة من الجهات تعلم أو تعرف ، وإنما معنى ذلك أنه يؤيده ويوفقه ويهديه ، ويشهد ما شاء كيف شاء بإصابة الصواب وموافقة الحق ، وذلك

---

(١) جاء الحلاج إلى الجنيد بعد أن ترك عمرو بن عثمان فقال له الجنيد : لم جئت ؟ قال : لأصحب الشيخ . قال : لا صحبة لنا مع المجانين ، لأنه ينبغي للصحبة الصحة ، فإذا وجدتها تكن كما فعلت مع سهل وعمرو . قال الحلاج «أيها الشيخ الصحو والسكر صفتان للعبد ولا يزال العبد محجوباً عن ربه حتى تفنى أوصافه» . قال الجنيد رضي الله عنه : يا بن منصور ! أخطأت في الصحو والسكر ، لأن الصحو بلا خلاف عبارة عن صحة حال العبد مع الحق ، والسكر عبارة عن فرط الشوق وغاية المحبة ، وكلاهما لا يدخل تحت صفة العبد واكتساب الخلق ... ، كشف المحجوب ، ص٤١٩

فضل الله عز وجل فيه ومواهبه له ، منسوبة إليه لا إلى الواجد لها ، لأنها لم تكن عنه ولا منه ولا به، وإنما كانت واقعة عليه من غيره ، وهي لغيره أولى وبه أحرى ، وإنما جاز أن تكون بهذه الصفة الخفية ، وهي غير منتسبة به على النحو الذي ذكرنا . قلت : كيف يكون الحضور سبب الفقد ، والمتعة بالمشاهدة كمال الجهد ؟ وإنما علم الناس ها هنا أنهم يتمتعون ويجدون بالحضور لا يجهدون في ذلك ولا يفقدون . قال: ذلك علم العامة المعروف ، وسبيل وجودهم الموصوف . فأما أهل الخاصة والخاصة المختصة الذي غربوا لغربة أحوالهم ، فإن حضورهم فقد ومتعتهم بالمشاهدة جهد ، لأنهم قد محو عن كل رسم ومعنى يجدونه بهم ، أو يشهدونه من حيث هم ، بما استولى عليهم فمحاهم ، عن صفاتهم أفناهم حتى قام بهم وقام عنهم بما لهم ، وثبت دواعي ذلك عليهم ، فبهم من جنس كماله وتمامه ، فوجدوا النعيم به غنياً بأمتع الوجود على غير سبيل الوجود لاستئثار الحق واستيلاء القهر . فلما فقدت الأرواح النعيم الغيبي الذي لا تحسه النفوس ولا تقارنه الحسوس، ألفت فناها عنها ، ووجدت بقاها يمنع فناها[1] ، فإذا أحضرها أنبتها وأوجدها حبسها ، استترت بذلك عما كانت به وكان بها ، فغصت بنفسها ، وألفت بجنسها ، إذ أفقدها التمام الأول والإكرام الأكمل ، وردت إلى تعلم وتعلق ، فالحسرة فيها مستكنة وغصة الفقد بها متصلة في حال حضورها وكأين وجودها ولذلك تاقت إلى الشهوة ورجعت إلى الحاجة . وكيف لا يملكها ما أحوجها بعد غنائها ، وتوقانها بعد امتلائها . فمن هاهنا عرجت نفوس العارفين إلى الأماكن النضرة والمناظر الأنيقة والرياض الخضرة ، وكان ما سوى ذلك عذاباً عليهم مما تحن إليه من أمرها الأول الذي تشتمله الغيوب ويستأثر به المحبوب[2] . ويحك !! إن إشارته إلى الصفة إشارة لا يشارك فيها ، ومراده فيها ومنها هو ما استأثر به عليها . فمن كان مستتراً أو ذاكراً لها أو مختصاً بها كن لا ينبغي للمراد بذلك حضور

---

(١) كـــان الجنـــيد يقول ك الخوف يقبضني والرجاء يبسطني ، فإذا قبضني بالخوف أفناني عني ، وإذا بسطني بالرجاء ردني عليّ . وقال الجنـــيد عن الفناء والبقاء : هو بقاء الحق وفناء كل مادونه . وقال : إذا فنى العبد عن أوصافه أدرك البقاء بتمامه . وقال الجنيد : كنت في أحوال ثلاثة : أما الأولى فلو بكت علي السموات والأرض لم يكن عجباً من شدة تحيري ، ثم حدثت حالة لو بكت علي أهل السموات والأرض من غيبتهم عن الحق وجهلهم به لم يكن عجباً ، ثم حدثت حالة أخرى لم أر إلا نعوتاً قائمة قدرة ومشيئة وملكاً وقضية فطالعت الأولية والآخرية فغبت عن الكل وفنيت عنها وفيها بقائي .

تهذيب الأسرار ، للخركوشي ، ص٣٨٣-٣٨٦ .

(٢) قال الكلاباذي : أنشدونا للجنيد :

الوجد يطرب من في الوجد راحتـــه
والوجد عند حضور الحق مفقـــــود
قد كان يطربني وجدي فأشغلـــــني
عن رؤية الوجد ما في الوجد موجود

(التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص١١٣) .

البوادي عليه ولا البواعث منه إليه ، فتأمن صفته عن الفناء بحقيقة ذهابه عن حضور ما هو به ، اقتداراً من الغالب له ، القائم به ، المستولي عليه ، حتى إذا حضر وأشهد ؛ ضمن حضوره الاستتار ، وامحت في شهوده الآثار حتى لا يجد السبيل إلى درك الشفا على خالص الوجود المستولى عليه من الحق تعالى ، كذلك يرى صفته العليا وأسمائه الحسنى . وإنما جرت سنة البلاء على أهل البلاء من هاهنا حتى جاذبوا وأقاموا ولم ينخدعوا ، أقيم عليهم ما محقهم في نفس القوة علو المرتبة وشرف السنية . قلت : فما أعجب ما أخبرتني به ؟ وأن أهل هذه النسبة العالية ليجري عليهم البلاء ؟ فكيف ذلك حتى أعلمه ؟ قال : أفهم لما طلبوه في مراده وما نعوه عن أنفسهم ، فطلبوا له في استيلائه عليهم بساط البلاء على صفاتهم ؟ لأن لذة الأشياء فيهم سترهم به ليفضوا بإنيتهم ، ويحترفوا بحسوسهم ، ويلذوا برؤية أنفسهم في مواطن الفخر ونتائج الذكر وغلبات القهر، وأنى لك بعلم ذلك وليس يعلمه إلا أهله ، ولا يجده سواهم ، ولا يطيقه غيرهم ، أو تدري لم طالبوه وما نعوه ، فتوسلوا بما منه بد إليه ، واستعانوا في التوسل بالحقائق عليه ، لأنه أوجدهم وجوده لهم ، وثبت فيهم وعليهم غيب سرائره الواصلة إليه . فامحت الآثار وانقطعت الأوطار حتى توالت النسب ، وتعالت الرتب بفقدان الحس وفناء النفس ، ثم أحضرهم الفناء في فنائهم ، وأشهدهم الوجود في وجودهم ، فكان ما أحضرهم منه ، وأشهدهم من أنفسهم ستراً خفياً وحجاباً لطيفاً أدركوا به غصة الفقد وشدة الجهد لاستتار ما لا تلحق به العلل واحضار ما تلحق العلل به وتليق الآثار بصفته فطالبوه فيها كان مطالبهم وما يعرفه من نفوسهم ، لأنهم حلوا بمحل القوة ونالوا حقائق الخطوة ، فأقيم عليهم منهم مشغلاً لهم ، فنشأ منه فيهم تمام كان ولم يكن على الصفة ، وإن كان عند البلاء يزيد .

قلت : فصف لي تلوين البلاء عليه في مواطنهم العجيب ومنزلهم الغريب . قال: إنهم استغنوا بما كان بدا فخرجوا منه الفاقة وتركوا المطالبة ...[1] الظفر بجهد الاقتدار وصولة الافتخار وكانوا بذلك ناظرين إلى الأشياء بمالهم ، دون التعريج على ماله ، بإقامة الفرق والوصل لما رأوا بوجد بالعينين فاستوى الأمران . فإذا بدت عليهم بوادي الحق إلجاء لهم مم الهم على التجريد اقتداراً وافتخاراً ، خرجوا عن ذلك مساكنين له ، مؤثرين لما انفرد به متعتهم دالة عليهم ، ويقيناً بالسماحة لا يرون وجوعاً عليهم ولا مطالبة تجري عليهم فإذا كان ذلك أحاط بهم المكر من حيث لا يعلمون . قلت : قد أغريت على عقلي وزدت في خيالي فادن من ...[2] قال: إن أهل البلاء لما

---

(١) كلمة غير واضحة في كتاب الدكتور محمد كمال ، ص٣٠٧ .

(٢) كلمة غير واضحة في كتاب التصوف .

اتصلوا بحادث الحق فيهم وجارى حكمه عليهم تغربت أسرارهم وتاهت أرواحهم عمر الأبد ، لا تأويها المواطن ولا تجنها الأماكن تحن إلى مبتليها حنيناً ، وتئن بفناء التأسي عنها أنيناً ، قد شجاها فقدانها ، وذللها وجدانها ، أسوفه عليه ، موجعة لديه ، متشوقة في الوجد إليه ، أعقبها بها ظمأ ، ويزيد الظمأ في أحشائها نماء ، فهي الكلفة بمعرفتها ، أقام لها عطشها إليه مع كل مأتم مأتما ، ودفع لها في كل كسوة علماً ، يذيقها طعم الفقر ، ويجدد عليها رؤية احتمال الجهد ، ممالة مع آثار المؤن ، تواقة إلى ممثلات الشجا ، طلابة لشقائها متعلقة بآثار المحبوب فيما يبدو وكل أبعاد نزاه بعين الدنو . حلفت حقاً لقد سترها فما استترت ، وابتلاها فما نكلت ، وكيف تستتر وهي مأسورة لديه ، محتبسة له بين يديه ، سمحت له بهلاكها فيما أبدى عليها من ابتلائها ، ولم تعزم على الاهتمام بأنفسها ، استغناء بحبه ، وتعلقاً به في محل قربه . ترى مقادير الإلحاظ منه في سرعة يقظتها ، يستغرق هلاكها الجاري عليها في دوامة البقاء وتشديد البلاء حتى أمتعها بلاؤها ، وآنسها به بقاؤها لما رأته قريباً لمنعها واثبا بتبعتها ، فلم تلو عن حمله كلالاً ، ولا يرمت به ملالاً ، هم الأبطال فيما جرى عليهم لما أسر إليهم أقاموا في قهره إنتظار أمره ليقضي الله أمراً كان مفعولا . وأهل البلاء يقسمون على قسمين :

فمنهم من أوى إلى بلائه فساكن مراده ، وما بلى هواه في الأشياء إيثاراً لمتعة نفسه وتمتعه بوجود حسه حتى ألجأه ومكر به ، وأزال بالمكر عنه مزاولة حاله واعتد ببلائه شرفاً ، ورأى أن سبب الخروج عنه سبب النقصان والضعف[1] .

---

(١) انظر كتاب التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ، ص٣٠٣-٣٠٩ ، وقد جاء في كتاب التصوف طريقاً للدكتور محمد كمال جعفر في صفحة ٣٠٩ الآتي : « تم كتاب الفناء وكانت النسخة المنقول عنها نسخة أعجمية كثيرة السقم جداً ، فليتوقع نسخة مرضية لتصحيح بها إن شاء الله ، والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما » .

المبحث الثاني

الفناء عند الحارث بن أسد المحاسبي*

هو الحارث بن أسد المحاسبي ، أبو عبدالله ، البغدادي ، أحد الأئمة المشهورين . سمى بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه ، كان إماماً في الفقه والحديث والتصوف ، وله مصنفات كثيرة تحدث عنها الأستاذ الدكتور عبدالحليم محمود في أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه في فرنسا. وللمحاسبي كلام في الفناء وزجر للقائلين بالفناء عن وجود السوى . فقد ورد عن الحارث بن أسد المحاسبي أنه قال يوماً لدرويش : "كن لله وإلا فلا تكن" . ويشرح الهجويري هذا الكلام قائلاً: « يعني أبق بالحق أو افن عن وجودك ، اي كن مجتمعاً بالصفوة أو مفارقاً بالفقر ، وابق بالحق أو افن عن نفسك ، أو كن على تلك الصفة حيث يقول الحق تعالى ﴿ ... اسجدوا لآدم ... ﴾[1] أو على تلك الصفة حيث يقول : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ﴾[2] فإذا كنت لنفسك باختيارك فقيامك بنفسك ، وإن لم تكن باختيارك فقيامك بالحق » ، وهذا المعنى لطيف ، والله أعلم[3] .

المحاسبي وعبارات الشطح :

كان الحارث بن أسد المحاسبي يزجر المردين عن العبارات التي يشتم منها رائحة الرعونة والدعوى ، خاصة إذا قالها من قالها في حالة صحو تام لم يفقد فيه التمييز ، كما حدث عندما دخل عليه مريده أبو حمزة البغدادي ، "وكان رجلاً مستمعاً وصاحب حال" ، وكان للحارث ديك كبير ، فصاح في تلك الساعة . فصرخ أبو حمزة ، ((فنهض الحارث ، وأمسك السكين ، وقال له كفرت ، وقصد قتله ! . فوقع المريدون على أقدام الشيخ وأبعدوه عنه . وقال الحارث لأبي حمزة : أسلم يا مطرود . فقالوا له : أيها الشيخ لقد عرفناه جميعاً من خواص الأوليات ، ونراه من جملة الموحدين

---

* عـرف الذين ساروا على درب المحاسبي ، واستعانوا بفهمه بالمحاسبية . والمحاسبية طريقة من الطرق الصوفية ولكنها ليست واسعة الانتشار . وكان المحاسبي من الأئمة المقبولين عند الأمة نفساً وقولاً ، وكان عالماً بأصول الحقائق وفروعها . وقد أخذ عليه أحمد بن حنبل الخوض في مسائل علم الكلام ؛ لأن في ذلك نشر للبدع التي يريد المحاسبي الرد عليها ، خاصة إذا كانت البدعة غير مشهورة والرد عليها كان ضعيفاً . وكان المحاسبي معاصراً لأحمد بن حنبل ، وصنف كتاب «فهم القرآن» لنصرة الإمام أحمد في وجه المعتزلة الذين أعلوا من شأن العقل ، واشتطوا في استخدامه في النصوص . وللمحاسبي كتب أخرى أشهرها «الرعاية لحقوق الله» الذي ذكر باسـم «الـرعاية في التصـوف» في كشف الظنون . وقد كتب الأستاذ الدكتور عبدالحليم محمود ، رحمه الله أطروحته لنيل درجة الدكتوراه عن الحارث بن أسد المحاسبي ، وتكلم عنه أيضاً في كتابه «الحمد لله هذه هي حياتي» الذي ترجم فيه لحياته .

(١) سورة البقرة ، آية ٣٤ .

(٢) سورة الإنسان ، آية ١ .

(٣) كشف المحجوب ، للهجويري ، ص٤١٠ .

فما سبب شك الشيخ فيه ؟ فقال الحارث : أنا لا أشك فيه ، ولا أنظر إليه بغير الخير ، ولا أرى باطنه إلا مستغرقاً في التوحيد ، ولكن لم ينبغي له أن يفعل شيئاً شبيهاً بأفعال الحلوليين ، حتى يبدو من معاملته أثر من مقالاتهم ، فالطائر الذي لا عقل له ويصيح جرياً على عادته وهواه ، لماذا يستمع إليه مع الحق ، والحق تعالى غير متجزئ ، وأحباؤه لا يطمئنون إلى غير كلامه ، ولا وقت ولا حال لهم بغير التسليم له ، ولا نزول ولا حلول له في الأشياء ، ولا يجوز على القديم الاتحاد والامتزاج . فلما رأى أبو حمزة وقتئذ نظر الشيخ قال : أيها الشيخ ! مهما كنت على صواب في الأصل فإنه ما دام فعلى شبيهاً بفعل أولئك القوم فقد تبت . وأناب »[1] . ويبدو أن أبا حمزة لم يكن من أولئك الذين يحدث لهم سكر وجداني يصعب معه التمييز ، وإنما حاول التشبه بهم في عباراتهم . وقد تكلم أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ) في كتابه "الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين" عن أمثال هؤلاء الذين ليس لهم من التصوف إلا الزي والعبارة .

---

(١) كشف المحجوب ، ص٤١٠ ، ٤١١ .

المبحث الثالث

أبو حفص عمر بن سالم النيسابوري والفناء

ذكر الهجويري في كتابه كشف المحجوب أن من الذين كان يحدث لهم الفناء أبو حفص عمر بن سالم النيسابوري الحداد ، الذي كان مريداً لأبي عبدالله الباوردي . فقد حكى عنه أنه عندما عاد إلى نيسابور من باورد « كان هناك رجل كفيف يقرأ القرآن بالسوق ، وكان قد جلس على باب دكانه فغلبه السماع وغاب عن نفسه ، وأدخل يده في النار ، وأخرج حديدة محماة دون ملقط ، فلما رآه تلاميذه صاحوا : يا أستاذ يدك ، يدك ، وزايلهم صوابهم فلما عاد أبو حفص إلى حالة صحوه كف يده عن الكسب ، ولم يأت أيضاً إلى الدكان »[1] .

---

(١) كشف المحجوب للهجويري ، ص٣٣٧ .

المبحث الرابع

قول الخراز في الفناء والبقاء

قال أبو سعيد الخراز[١] : « إذا أناب العبد إلى الله ، وتعلق بالله ، وسكن في قرب الله ، نسى نفسه، ونسى ما سوى الله ، فإذا قيل له : من أين أنت ؟ وماذا تريد ؟ لا يكون له جواب أفضل من أن يقول : الله » . ويقول - أيضاً - : حقيقة القرب طهارة القلب من كل الأشياء ، وسكون القلب في الله . ويقول: أول التوحيد فناء كل شيء في قلب المرء والعود إلى الله بالكلية[٢] .

ويقول أبو سعيد الخراز ، رحمه الله : « الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية » . قال الهجويري في شرحه لهذا الكلام في كتابه "كشف المحجوب" : « أي أن في فعل العبودية آفة ، ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله ، ويفنى عن رؤية فعله ، ويبقى برؤية فضل الله تعالى ، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه ، لأن ما هو مقرون بالعبد من فعله يكون كله ناقصاً ، وما هو موصول به من الحق يكون كله كاملاً ، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته فإنه يبقى بمجال ألوهية الحق)) [٣] .

وسئل أبو سعيد الخراز عن علامة الفاني ، فقال : من علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة ، إلا من الله تعالى ، ثم يبدو له الآيات من قدرة الله تعالى ، فيريه ذهاب حظه من رؤية حظه ويبقى عليه ما كان لله عز وجل . وسئل أبو سعيد الخراز عن البقاء ، فقال : أعلم أن أول البقاء في حقائق البقاء الأثرة لله عز وجل على جميع خلقه ، والفناء عن كل شيء إلا الاشتغال بدوام ذكره ، وكمال الفناء حذف الانفراد لصحة الشغل به، حتى يكون هو الحظ بسقوط كل حظ معه، فيبدو عند ذلك باد من الكبرياء فيغيب في جنب ما بدا له من وجود حظه منه فيكون في أول درجات الفناء[٤] .

وقال أبو سعيد الخراز في معنى قوله عز وجل : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النمل ٥٣] قال : أخلاهم في افعالهم من أفعالهم ، وهو أول حال الفناء[٥] .

---

(١) أبـو سـعيد الخراز ، أحمد بن عيسى . يطلق عليه لسان التصوف ، وهو من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصري والسرى وبشر الحـافي . قال عنه الهجويري في كتابه كشف المحجوب : « كان لسان حال المريدين ، وبرهان أوقات الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء ، وله مناقب مشهورة ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متلألئة ورموز عالية » .
وقد ذكر العطار أن لأبي سعيد كتاب باسم «كتاب السر» ذكر فيه أقوالاً في الفناء ، مات الخراز سنة ٢٧٧هـ ويقال إنه توفي سنة تسع وسبعين ومائتين . انظر كشف المحجوب ، ص٣٥٥ .

(٢) تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غني ، ص٥٣٩ ، نقلاً عن تذكرة الأولياء للعطار ، ج٢ ، ص٤٠ .

(٣) كشف المحجوب للهجويري ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر ، الكتاب الواحد والتسعون ، تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل ص٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(٤) تهذيب الأسرار للخركوشي ، ص٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٥) تهذيب الأسرار ، ص٣٨٥ ، وانظر أيضاً اللمع ، ص٢٨٥ .

المبحث الخامس

الفناء عند الجيلاني

الشيخ الجيلاني هو محي الدين ، أبو محمد ، عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني ، الجيلاني ، أو الكيلاني أو الجيلي . قال ابن الأثير في الكامل : « هو عبدالقادر بن أبي صالح ، أبو محمد ، الجيلي » . وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء عند ترجمته له : « عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني ، أبو محمد ، محي الدين ، الجيلاني ، أو الكيلاني أو الجيلي » . ولد الشيخ عبدالقادر في بلدة جيلان سنة سبعين وأربعمائة هجرية ، وقيل : إنه ولد سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة . وتوفي في ليلة السبت الثامن من ربيع الآخرة سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وله تسعون سنة[(١)] .

المطلب الأول : الفناء عن عبادة السوى* عند الجيلاني :

عقد شيخ الإسلام ابن يتمية في فتاويه فصلاً عن كلام الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن الفناء الشرعي ، وتناول ذلك الكلام بالشرح والبيان ، وسوف ننقل ما قاله ابن تيمية بنصه : « قال الشيخ عبدالقادر ، قدس الله روحه : أفن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره[(٢)] ، وعن إرادتك بفعله ، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله » .

---

(١) انظر ترجمته في :

١- الفتح الرباني والفيض الرحماني لعبدالقادر الجيلاني ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ص ٥-٨ .

٢- الأعلام للزركلي ، ط٧ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٦ ، ج٤ ، ص٤٧ .

٣- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ط دار الثقافة ٢:٣٧٣ .

٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط بيروت ، المكتب التجاري ، بلا تاريخ ، ١٩٨/٤ - ٢٠٢ .

٥- الطبقات الكبرى للشعراني ، ١٠٨/١ - ١٤٤ .

٦- الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، حياته وآثاره ، للدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، ط الإمارات العربية المتحدة ، مطابع العامري بعجمان ، مارس/٢٠٠١م .

* الفناء عن عبادة السوى ، هو الفناء الكامل المحمدي النبوي ، الديني ، الشرعي ، الذي يشهد فيه العبد فعل المأمورات مع كثرتها ، وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له ، وهو فناء الكاملين ، وهو الفناء المحمود ، وهو المقصود ، وهو حال البقاء . وقال ابن تيمية في فتاويه (٢ : ٣١٤) : وأما النوع الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى فهذا حال النبيين وأتباعهم ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ... (انظر الفتاوى ٢:٣١٤). ولم يكن الجيلاني أول من تكلم في الفناء فقد سبقه أبو يزيد البسطامي لامتوفى سنة ٢٦١هـ، فقد كان البسطامي أسبق من تكلم في موضوع الفناء واعتبره الدرجة القصوى في سلم معراجه الروحي، وفناؤه هو الفناء عن شهود السوى .

(٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ١:١١١ ، ١١٢ ، فقد أورد الجزء الأول من هذا النص: «أفن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره» وانظر المقالة السادسة (في الفناء) في كتاب فتوح الغيب فقد جاء النص هكذا (أفن عن الخلق بإذن الله تعالى ، وعن هواك بأمر الله تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وعن إرادتك بفعل الله تعالى ، وحينئذ تصل أن تكون وعاء لعلم الله تعالى .

قلت (أي ابن تيمية) : « فحكمه يتناول خلقه وأمره ، أي افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعهم في معصية الله تعالى ، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ، ولا دفع مضرة . وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل ، بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله ، لا لإرادة نفسه ، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات ، فالأول يكون بالأمر ، والثاني بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات ، فالأول يكون بالأمر ، والثاني لا تكون له إرادة ، ولا بد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها ، وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقاً للقدر أم لا ، وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين ، والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين ، وهم ليس لهم إرادة نفسانية ، فتركوا إرادتهم لغير المقدور » . قال الشيخ[١] : « فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم » وهو كما قال . فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم ، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم ، وهذا يشبه لما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به ، ونهيهم عما نهاهم عنه كذهاب الرسل ، واتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله ، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد ليكون عابداً لله متوكلاً عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل ، أو مثله ، أو دونه ، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ، ولم يستغن به فلم يقم بالواجب ، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه ، قال الشيخ[٢] : « وعلامة فنائك عنك وعن هواك : ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع والضرر ، فلا تتحرك فيك بك ، ولا تعتمد عليك لك ، ولا تنصر نفسك ، ولا تذب عنك ، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخراً ، كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم ، وكونك رضيعاً طفلاً في مهد » . قلت[٣] : وذلك لأن نفسك تهوى وجود ما تحبه وينفعها ، ودفع ما تبغضه ويضرها ، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه الله ، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه ، ويترك ما يبغضه الله ، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه ، ويترك ما يبغضه الله مما يبغضه ، وحينئذ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فيكون في ذلك متوكلاً على الله . والشيخ[٤] رحمه الله ذكر هنا التوكل دون الطاعة لأن النفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن لم تكن متوكلة على الله في ذلك ، واثقة به ، لم يمكن أن تنصرف

---

(١) أي عبدالقادر الجيلاني

(٢) أي عبدالقادر الجيلاني .

(٣) أي ابن تيمية .

(٤) أي عبدالقادر الجيلاني .

عن ذلك فتمتثل الأمر مطلقاً ، بل لا بد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة ، فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه ، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته ، قال تعالى ﴿ فاعبدْهُ وتوكل عليه ﴾[1] وقال تعالى ﴿ ... ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ...﴾[2] وقال تعالى ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾[3] والمقصود أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقاً بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره ، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول أنه محتاج فيه إلى غيره . قال الشيخ رضي الله عنه[4] : « وعلاقة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط ، فلا يكن لك غرض، ولا تقف لك حاجة ولا مرام ، لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها ، بل يجري فعل الله فيك فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله ، ساكن الجوارح ، مطمئن الجنان ، مشروح الصدر ، منور الوجه ، عامر البطن ، غنياً عن الأشياء بخالقها ، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل ، ويعلمك رب الملوك[5] ، ويكسوك نوراً منه والحلل ، وينزلك منازل من سلف من أول العلم والأول ، فتكون منكسراً أبداً فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة كالإناء المتثلم الذي لا يثبت فيه مائع ولا كدر ، فتغنى عن أخلاق البشرية ، فلن يقبل باطنك ساكناً غير إرادة الله ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر العقل والحكم وهو فعل الله تبارك وتعالى حقاً في العلم ، فتدخل حينئذ في مرة المنكسرة قلوبهم ، الذين كسرت إرادتهم البشرية ، وأزيلت شهواتهم الطبيعية ، واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة)) . فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه ، وزال عنه تحقيقاً لما أشرت إليه وتقدم . قال الله تعالى : ((أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)) وساق كلامه وفيه ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل)) الحديث . قلت[6] : هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبدالقادر - رضي الله عنه - وحقيقته أنه لا يريد كون شيء إلا أن يكون مأموراً بإرادته ، فقوله : علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط . أي لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته ، فأما ما أمرك مستحب ، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص . وهذا الموضع يلتبس على

---

(١) سورة هود ، الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الطلاق [٢ ، ٣] .

(٣) سورة المزمل [٨ ، ٩] .

(٤) أي عبدالقادر الجيلاني .

(٥) في نسخ أخرى : رب الملل .

(٦) أي ابن تيمية .

كثير من السالكين فيظنون أن الطريقة الكاملة أن لا يكون للعبد إرادة أصلاً ، وأن قول أبي يزيد : "أريد أن لا أريد"[(١)] لما قيل له ماذا تريد ؟ نقص وتناقض ؛ لأنه قد أراد ، ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقاً ، وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين ، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقاً ، فإن هذا غلط ممن قاله ، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور ، فإن الحي لا بد له من إرادة فلا يمكن حياً أن لا تكون له إرادة ، فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبه ، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركاً لما هو خير له ، والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة ، فقال تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾[(٢)] وقال تعالى ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾[(٣)] وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾[(٤)] وقال تعالى ﴿ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدارة الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾[(٥)] وقال تعالى ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[(٦)] وقال تعالى ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾[(٧)] وقال تعالى ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾[(٨)] وقال تعالى ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾[(٩)] وقال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[(١٠)] . ولا عبادة إلا بإرادة الله ، ولما أمر به ، قال تعالى ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾[(١١)] أي أخلص قصده لله ، وقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[(١٢)] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة ، وقال تعالى ﴿ يحبهم

---

(١) قيل لأبي يزيد : متى يعرف الرجل أنه على حقيقة المعرفة ؟ فقال : إذا صار فانياً تحت إطلاع الحق باقياً على بساط الحق بلا نفس ولا سبب ولا خلق ، فهو فان باق ، وميت حي ، وحي ميت ، ومحجوب مكشوف ، ومكشوف محجوب ، فعند ذلك يصير هذا العبد والهاً على باب أمره ، هائماً في ميدان بره ، متذللاً تحت جميل ستره ، فانياً تحت سلطان حكمه ، باقياً على بساط لطفه .
وسئل أبو يزيد أيضاً عن المعرفة ؟ فقال : أن تعرف أن حركات الخلق وسكونهم بالله عز وجل وحده لا شريك له .
(انظر : تهذيب الأسرار للخركوشي ، تحقيق بسام بارود ، ص٤٦) .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٢ .
(٣) سورة الليل ، [١٩ ، ٢٠] .
(٤) سورة الإنسان ، الآية ٩ .
(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٢٩ .
(٦) سورة الإسراء ، الآية ١٩ .
(٧) سورة الزمر ، الآية ٢ .
(٨) سورة الزمر ، الآية ١٤ .
(٩) سورة النساء ، الآية ٣٦ .
(١٠) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .
(١١) سورة البقرة ، الآية ١١٢ .
(١٢) سورة البينة ، الآية ٥ .

ويحبونه ﴾[١] وقال تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[٣] وكل محب فهو مريد ، وقال الخليل عليه السلام ﴿ لا أحب الآفلين ﴾[٤] ثم قال ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾[٥] ومثل ذلك كثير في القرآن ، يأمر الله بإرادته وإرادة ما يأمر به وينهى عن إرادة غيره وإرادة ما نهى عنه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كان هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) فهما إرادتان إرادة يحبها الله ويرضاها ، وإرادة لا يحبها الله ولا يرضاها ، بل إما نهى عنها ، وإما لم يأمر بها ولا ينهى عنها[٦] .

والمقالة التي شرحها ابن تيمية في فتاويه هي المقالة السادسة من كتاب فتوح الغيب ، وهي مقالة الفناء عن الخلق ، قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني في هذه المقالة : ((أفن عن الخلق بإن الله تعالى وعن هواك بأمر الله تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وعن إرادتك بفعل الله تعالى ، وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى[٧] ، فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم[٨] ، وعلامة فنائك عن هواك ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع والضرر ، فلا تتحرك فيك[٩] ، ولا تعتمد عليك ولا لك[١٠] ، ولا تذب عنك ولا تنفر نفسك[١١] ، تكل ذلك كله إلى الله تعالى لأنه تولاه أولاً فيتولاه آخراً[١٢] ، كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم ، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك . وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله[١]

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٧٦ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٧٩ .

(٦) الفتاوى ١٠ : ٤٩٠ - ٤٩٦ .
وانظـــر كتاب شرح فتوح الغيب للإمام الرباني عبدالقادر الجيلاني ، شرح شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن عبد الحليم الراني ، ط بعناية حسن السماحي سويدان ، دار القادري ، دمشق ، ط١ ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص٣١-٤٩ .

(٧) انظر المقالة السادسة عن الفناء في كتاب فتوح الغيب ، فقد جاء النص كما ثبتناه ، واختلفت ألفاظه في فتاوى ابن تيمية ، قال ابن تيمية «قال الشيخ عبدالقادر، قدس الله روحه أفن عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ن وعن إرادتك بفعله ، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله» .

(٨) في الفتاوى «فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم ، واليأس مما في أيديهم» .

(٩) في الفتاوى «فلا تتحرك فيك بك» .

(١٠) في الفتاوى «ولا تعتمد عليك لك» .

(١١) في الفتاوى «ولا تنصر نفسك ولا تذب عنك» .

(١٢) في الفتاوى «لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخراً» .

الله[1] أنك لا تريد مراداً قط ، ولا يكون لك غرض ولا يبقى لك حاجة ولا مرام ، لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها ، بل يجري فعل الله فيك ، فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ساكن الجوارح مطمئن الجنان منشرح الصدر ، منور الوجه ، عامر البطن ، غنياً عن الأشياء بخالقها ، تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل ويعلمك رب الملك[2] ، ويكسوك أنواراً منه والحلل، وينزلك من أولى العلم الأول ، فتكون منكسراً أبداً ، فلا يثبت فيك إرادة ولا شهوة كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع وكدر ، فتنقى عن أخلاق البشرية ن فلن يقبل باطنك شيئاً غير إرادة الله عز وجل ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم ، وهو فعل الله وإرادته حقاً في العالم ، فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم الطبيعية فاستؤنفت لهم إرادة ربانية[3] كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ((حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة)) فأضيف ذلك بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقاً بما أشرنا وتقدم في الحديث القدسي ((انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)) فإن الله تعالى لا يكون عندك حتى تنكر جملة هواك وإرادتك ، فإذا انكسرت ولم يثبت فيك شيء ، ولم يصلح فيك شيء ، أنشأك الله فجعل فيك إرادة تريد بتلك الإرادة فإذا صرت في تلك الإرادة المنشأة فيك كسرها الرب تعالى بوجودك فيها ، فتكون منكسر القلب أبداً ، فهو لا يزال يجدد فيك إرادة ثم يزيلها عند وجودك فيها هكذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فيحصل اللقاء فهذا هو معنى "عند المنكسرة قلوبهم من أجلي" ومعنى قولنا عند وجودك فيها هو ركونك وطمأنينتك إليها . قال الله تعالى في حديث القدسي[4] الذي يرويه صلى الله عليه وسلم ((لا يزال عبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي

---

(١) في الفتاوى "وعلامة فناء إرادتك بفعل الله" .

(٢) في الفتاوى "رب الملوك" .

(٣) في الفتاوى "واستوثقت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية" واعتقد أن الصحيح "واستوثقت لهم إرادات ربانية" .

(٤) هـــذا الحديـــث مـــن الأحاديث القدسية التي يستدل بها ابن تيمية دائماً في فتاويه في حديثه عن الفناء عن عبادة السوى والاتحاد الوصفي، ولفظ الحديث في الفتاوى هكذا – في معظم الكتاب – "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، في يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشـــي ، ولـــئن سالني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه" . وحديث لا يزال عبدي المؤمن ... الخ في المغني عن حمل الأسفار ٧٧/١ ، متفق عليه من حديـــث أبي هريرة كنت سمعه وبصره . وفي سنن ابن ماجه ج٢ ، ص١٢٥٥ باب فضل العمل ، ج ٣٨٢١ بلفظ "من تقرب إلي شـــبراً تقربت إليه ذراعاً ..." ، وفي نيل الأوطار ٦٢/٢ ، رواه البخاري عن أبي هريرة ، وانفرد البخاري بزيادة عن باقي الكتب الستة ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وأبو داوود خارج السنن فيما رواه عن ابن الأعرابي ، ورواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الزهد وابن عدي في الكامل ، وآخرون .

يمشي بها)) وفي لفظ آخر ((فبي يسمع وبي يبطش وبي يعقل))[١] . وهذا إنما يكون في حالة الفناء لا غير ، فإذا فنيت عنك وعن الخلق ؛ والخلق إنما هو خير وشر ، وكذلك أنت خير وشر ، فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرهم بقي الله وحده كما كان ، ففي قدر الله خير وشر ، فيؤمنك من شره ويغرقك في بحار خيره ، فتكون وعاء كل خير ومنبعاً لكل نعمة وسرور وحبور وضياء ، أمن وسكون ، فالفناء والمنى والمبتغى والمنتهى حد ومرد ينتهي إلى مسيرة الأولياء ، وهو الاستقامة التي طلبها من تقدم من الأولياء والأبدال أن يفنوا عن إرادتهم وتبدل بإرادة الحق عز وجل ، فيريدون بإرادته الحق أبداً إلى الوفاة ، فلهذا سموا أبدالاً رضي الله عنهم ، فذنوب هؤلاء السادة أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة ، فيدركهم الله تعالى برحمته بالتذكرة واليقظة ، فيرجعوا عن ذلك ويستغفروا ربهم ، إذ لا معصوم عن الإرادة إلا الملائكة ، عصموا عن الإرادة ، والأنبياء عصموا عن الهوى ، وبقية الخلق من الإنس والجن المكلفين لم يعصموا منهما ، غير أن الأولياء بعضهم يحفظون عن الهوى ، والأبدال عن الإرادة ، ولا يعصمون منهما على معنى يجوز في حقهم الميل إليهما في الأحيان ، ثم يتداركهم الله عز وجل باليقظة برحمته »[٢] .

وكان الشيخ عبدالقادر الجيلاني يقول : « أخرج عن نفسك وتنح عنها ، وانعزل عن ملكك ، وسلم الكل مولاك ، وكن بوابة على باب قلبك ، فادخل ما يأمرك بإدخاله ، واخرج ما يأمرك بإخراجه ، ولا تدخل الهوى قلبك فتهلك »[٣] .

والنفس التي يوصي الجيلاني تلاميذه بالخروج عنها هي النفس الأمارة التي تأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية ، والتي هي منبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ومأوى الشر . والخروج عنها قد يكون أولاً إلى النفس اللوامة التي تنورت بنور القلب تنوراً ما ، والتي تابت إلى الله وأخذت تلوم نفسها ، وتستغفر راجعة إلى باب الرحيم ، حتى يتم لها التخلق بالأخلاق الحميدة ، والتوجه إلى جهة القلب بالكلية ، وحتى يتم تسليم الكل لله ويحصل الفناء عن عبادة السوى ، ويكون الحب لله والبغض في الله والرجاء لله ، والتوكل على الله[٤] .

---

(١) اكتفى شيخ الإسلام ابن تيمية بشرح الجزء الأول من هذه المقالة ، حتى الحديث القدسي .

(٢) نهاية المقالة السادسة في الفناء ، انظر فتوح الغيب ، ط٢ ، دار الألباب ، ١٩٩٢م ، ص١٣ - ١٦ .

(٣) الشعراني : الطبقات الكبرى ١:١١١ ، ١١٢ .

(٤) انظر : اصطلاحات الصوفية ، ط دار المعارف بمصر ١٤٠٤هـ ، للكاشاني ، ص١١٠ ، ١١١ ، لمعرفة: النفس اللوامة ، والنفس الأمارة والنفس المطمئنة .

المطلب الثاني : الفناء وكيفيته عند الجيلاني[١] :

قال رضي الله عنه وأرضاه[٢] : نضرب لك مثلاً في الفناء[٣] فنقول: ألا ترى أن الملك يولي رجلاً من العوام ولاية على بلدة من البلاد ، ويخلع له ويعقد له ألوية ورايات ، ويعطيه الكؤوس والطبل والجند فيكون على ذلك برهة من الزمان ، حتى إذا اطمأن واعتقد بقاءه وثباته ، وعجب به ، ونسى حالته الأولى ونقصانه وذله وفقره وخموله ، وداخلته النخوة والكبرياء جاءه العزل من الملك في أشر ما كان من أمره ، ثم طالبه الملك بجرائم صنعها وتعدى أمره ونهيه فيها ، فحبسه في أضيق الحبوس وأشدها ، وطال حبسه ودام ضره وذله وفقره ، وذابت نخوته وكبرياؤه ، وانكسرت نفسه وخمدت نار هواه ، وكل ذلك في عين الملك ، ثم تعطف الملك عليه فنظره بعين الرأفة والخلعة عليه ورد الولاية إليه ومثلها معها وجعلها له موهبة ، فدامت له وبقيت مصفاة مكفاة مهنأة ، وكذلك المؤمن إذا قربه الله واجتباه فتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام ، فيرى بقلبه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من مطالعة الغيوب من ملكوت السموات والأرض ، وتقريب وكلام لذيذ لطيف ووعد جميل ، ووفاء به ، وإجابة دعاء وكلمات حكمته وتصديق وعد فإنما ترمي إلى قلبه قذفاً من مكان بعيد ، فتظهر على لسانه ومع ذلك يسبغ عليه نعمة ظاهرة على جسده وجوارحه ، في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة ، فيديم الله عز وجل لعبده المؤمن المجذوب برهة من الزمان ، حتى اطمئن العبد إلى ذلك واغتر به واعتقد دوامه ، فتح عليه أبواب البلايا والمحن في النفس والمال والأهل والولد والقلب ، فينقطع عن جميع ما كان أنعم الله عليه من قبل ، فيبقى متحيزاً حسيراً منكسراً مقطوعاً به ، إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوؤه ، وإن نظر إلى قلبه وباطنه رأى ما يحزنه ، وإن سأل الله تعالى كشف ما به من الضر لم ير إجابته ، وإن طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً ، وإن وعد بشيء لم يعثر على الوفاء به ، وإن رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها ، وإن رام الرجوع إلى الخلف لم يجد إلى ذلك سبيلا ، وإن ظهرت له ذلك رخصة فعمل بها تسارعت العقوبات نحوه ،

---

(١) في المقالة الحادية والأربعين مثل في الفناء وكيفيته ، انظر – فتوح الغيب ، ص٧٠-٧٢ .

(٢) في المقالة الحادية والأربعين مثل في الفناء وكيفيته ، انظر – فتوح الغيب ، ص٧٠-٧٢ .

(٣) جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن المصطلحين الصوفيين (فناء) و (بقاء) يشيران إلى مرحلتين يمر بهما الصوفي في طريق المعرفة وهذان القسمان متقابلان من ناحية ، متكاملان من ناحية أخرى ، وهناك حدان جعلا للفناء (أ) فناء وعي الصوفي بجميع الأشياء بما فيها نفسه ، بل فناء وعيه بهذا الفناء ، ويبقى وعيه الخاص بالله . (ب) سقوط الصفات المذمومة وظهور الصفات المحمودة ومن ثم فإن (البقاء) في ضوء هذين الحدين للفناء هو (أ) البقاء لله بفناء العبد عن نفسه وصفاته (ب) العودة إلى الوعي الصوفي بتعدد دنيا الخلق . (دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السابع ، ص٤٤٧-٤٤٨) .

وتسلطت أيدي الخلق على جسمه وألسنتهم على عرضه ، وإن طلب إقالة مما قد أدخل فيه من الحالة الأولى قبل الاجتباء لم يقل ، وإن طلب الرضا أو الطيبة والنعيم بما به من البلاء لم يعط، فحينئذ تأخذ النفس في الذوبان ، والهوى في الزوال ، والإرادة والأماني في الرحيل ، والأكوان في التلاشي ، فيدام له ذلك ، بل يزداد تشديداً وعسراً وتأكيداً ، حتى إذا فنى العبد من الأخلاق الإنسانية والصفات البشرية وبقي روحا فقط يسمع نداء في باطنه ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾[١] كما قيل لسيدنا أيوب عليه السلام ، فيمطر الله عز وجل في قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومنته ، ويحييه بروحه ونعمته ودلاله ، وأطلق إليه الأيدي بالبذل والعطاء والخدمة في سائر الأحوال والألسن بالحمد والثناء ، والذكر الطيب في جميع المحال ، والأرجل بالترحال ، وذلك له وسخر له الملوك والأرباب ، واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، تربية ظاهرة بخلقه ونعمه ، ويستأثر تربية باطنة بلطفه وكرمه ، وأدام له ذلك إلى اللقاء ، ثم يدخله فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال جل وعلا ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٢] [٣] .

وقال رضي الله عنه وأرضاه[٤] : إذا فنى العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني دنيا وأخرى ، ولم يرد إلا الله عز وجل ، وخرج الكل عن قلبه وصل إلى الحق ، واصطفاه واجتباه ، واحبه وحببه إلى خلقه ، وجعله يحبه ويحب قربه ، ويتنعم بفضله ويتقلب في نعمه وفتح عليه أبواب رحمته ، ووعده أن لا يغلقها عند أبداً ، فيختار العبد حينئذ الله ، ويدبر بتدبيره ، ويشاء بمشيئته ، ويرضى برضاه ويمتثل أمره دون غيره ، ولا يرى لغيره عز وجل وجوداً ولا فعلاً ، فحينئذ يجوز أن يعده الله بوعد ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك ، ولا يغير ما قد توهمه من ذلك لأن الغيرية قد زالت بزوال الهوى والإرادة ، فصار في فعل الله عز وجل وإرادته فيصير الوعد حينئذ في حقه مع الله عز وجل كرجل عزم على فعل شيء في نفسه ونواه ثم صرفه إلى غيره كالناسخ والمنسوخ فيما أوحى الله عز وجل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾[٥] . لما كان النبي صلى

---

(١) سورة ص ، الآية ٤٢ .

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٧ .

(٣) نهاية مقالة الفناء وكيفيته ، فتوح الغيب ، ٧٠-٧٢ .

(٤) هـذه هي المقالة السادسة والخمسون ، وهي في فناء العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني . انظر كتاب فتوح الغيب ، ط دار الألباب ، ص٨٩ ، ٩٠ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٠٦ .

الله عليه وسلم منزوع الهوى والإرادة سوى المواضع التي ذكرها الله عز وجل في القرآن من الأسر يوم بدر ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب اليم ﴾[(١)] كذا قالوا ، وغيره وهو مراد الحق عز وجل لم يترك على حالة واحدة بل نقله إلى القدر إليه فصرفه في القدر و قلبه منها ، نبهه بقوله تعالى ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾[(٢)] يعني أنك في بحر القدر تقلبك أمواجه تارة كذا وتارة كذا ، فمنتهى أمر الولي ابتداء أمر النبي ما بعد الولاية والبدلية إلا النبوة والله أعلم[(٣)] .

المطلب الثالث : بداية الفناء ونهايته :

قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه : البداية هي الخروج من المعهود إلى المشروع ثم المقدور* ، ثم الرجوع إلى المعهود ، ويشترط حفظ الحدود ، فتخرج من معهودك من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمسكون والطبع و العادة إلى أمر الشرع ونهيه فتتبع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[(٤)] وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[(٥)] . فتفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك ، فلا يكون في باطنك غير توحيدك له وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته مما أمر ونهى ، فيكون هذا دأبك وشعارك ودثارك في حركتك وسكنك ، في ليلك ونهارك وسفرك وحضرك وشدتك ورحالك ، وصحتك وسقمك ، وأحوالك كلها ، ثم تحمل إلى وادي القدر فينصرف فيك القدر ، فتفنى عن جدك واجتهادك وحولك وقوتك ، فتساق إليك الأقسام التي جف بها القلم وسبق بها العلم ، فتلبس بها وتعطي منها الحفظ والسلامة ، فتحفظ فيها الحدود ، ويحصل فيها الموافقة لفعل المولى ، ولا تنخرق قاعدة الشرع إلى الزندقة وإباحة المحرم ،

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٦ .

(٣) عبدالقادر الجيلاني : فتوح الغيب ، ص٨٩ ، ٩٠ .

* الفناء عند الجيلاني لا يحدث نتيجة للسماع والرقص كما هو الحال بالنسبة لبعض الجهال ، فالجيلاني لم يكن من الذين يميلون إلى الرقص والسماع أو اتخاذ الغناء والرقص عبادة . قال ابن تيمية «... لا يجوز السجود لغير الله ، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة ، ولا أكابر شيوخها كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسرى السقطي . وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل الشيخ عبدالقادر والشيخ عدي والشيخ أبي مدين والشيخ أبي البيان وغير هؤلاء ، فإنهم لم يحضروا السماع البدعي ، بل كانوا يحضرون السماع الشرعي ، سماع الأنبياء وأتباعهم كسماع القرآن الكريم ...) . الفتاوى ١١:٩٠٤ .

(٤) سوره الحشر ، الآية ٧ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

قال الله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] وقال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾[2] فتصحب الحفظ والحمية[3] ، وإنما هي أقسامك معدة لك ن فحبسها عنك في حال سيرك وطريقك وسلوكك فيافي الطبع ومفاوز الهوى المعهود ، لأنها أثقال أحمال مازيحت عنك ؛ لئلا يثقلك فتضعفك إلى حين الوصول إلى عتبة الفناء ، وهو الوصول إلى قرب الحق عز وجل والمعرفة به ، والاختصاص بالأسرار والعلوم الدينية ، والدخول في بحار الأنوار حيث لا تضر ظلمة الطبائع الأنوار فالطبع باق إلى أن تفارق الروح الجسد لاستيفاء الأقسام إذ لو زال الطبع من الآدمي لالتحق بالملائكة وبطلت الحكمة فبقي الطبع يستوفى الأقسام والحظوظ ، فيكون ذلك وظائفياً لا أصلياً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((حبب إلي من دنياكم ثلاثة : الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة))[4] فلما فني النبي صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربه عز وجل ، فاستوفاها موافقة لربه تعالى والرضا بفعله ، ممتثلاً لأمره ، فقدست أسماؤه وعمت رحمته . شمل فضله لأوليائه وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام فهكذا الولي في هذا الباب ترد إليه أقسامه وحظوظه مع حفظ الحدود ، فهو الرجوع من النهاية إلى البداية والله أعلم[5] .

المطلب الرابع : الخروج من باب الأفناء إلى الفناء :

قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه في تفصيل أحوال المريد وبيان الخروج من باب الأفناء إلى الفناء : « أريد الراحة والسرور والدعة والحبور ، والأمن والسكون والنعيم والدلال ، وأنت بعد في كير السبك والتذويب وتمويت النفس ومجانبة الهوى وإزالة المرادات والأعواض دنيا وأخرى ، وقد بقيت فيك بقية من ذلك ظاهرة لائحة ظ على رسلك يا مستعجل مهلاً مهلاً يا مترقب الباب مسدود إلى ذلك ، وقد بقيت عليك منه وفيك ذرة ومنه "المكاتب عبد ما بقيى عليه درهم" أنت مصدود عن ذلك ما بقي عليك من الدنيا مقدار مص نواة ، والدنيا هواك

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٢

(٣) الفـاني يكون محفوظاً في وظائف الحق كما قال الجنيد . قيل للجنيد : إن أبا الحسين النوري قائم في مسجد الشونيزي منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وهو يقول: الله ، الله ، ويصلي الصلوات لأوقاتها ، فقال بعض من حضره : إنه صاح . فقال الجنيد : لا ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدي الله في مواجيدهم ، فإن رد الفاني إلى الأوصاف لم يرد إلى أوصاف نفسه ، ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق .

انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ط دار الإيمان ، ١٤٠٧هـ ، ص١٣١ .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه ورواه النسائي عن أنس، ورواه الحاكم بدون (وجعلت) وقال صحيح على شرط مسلم .

(٥) المقالة الستون (في البداية والنهاية) ص٩٥ ، ٩٦ ، كتاب فتوح الغيب ، ط دار الألباب .

ومرادك ورؤيتك بشيء من الأشياء أو طلبك بشيء من الأشياء وتشوق نفسك إلى شيء من الأعواض دنيا وأخرى ؛ فما دام فيك شيء من ذلك فأنت في باب الأفناء ، فاسكن حتى يحصل الفناء على التمام والكمال ، فتخرج من الكير وتكمل صياغتك وتجلي وتكسى وتطيب وتبخر ، ثم ترفع إلى الملك الأكبر فتخاطب بـ ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾[1] فتؤانس وتلاطف ، وتطعم من الفضل ومنه تسقى وتقرب وتدنى وتطلع على الأسرار وهي عنك لا تخفى ، فتغنى بما تعطى من ذلك عن جميع الأشياء ، ألا ترى إلى قراضة الذاهب متفرقة مبتذلة متداولة غادية رائحة في أيدي العطارين والبقالين والقصابين والدباغين والنقاطين والكناسين والكفانين أصحاب الصنائع النفيسة والرذيلة الدينة الخبيثة ، ثم تجمع فتجعل في كير الصائغ فتذوب هناك بإشعال النار عليها ، ثم تخرج منه فتطرق وترقق وتطلع وتصاغ فتجعل حلياً ، ثم تجلى وتطيب فتترك في خير المواضع والأمكنة ، من وراء الأعلاق في الخرائن والصناديق والأحقاف ، وتحلى بها العروس وتزين وتكرم ، وقد تكون العروس للملك الأعظم فتنقل القراضة من هذه الأشياء إلى قرب الملك ومجلسه بعد السبك والدق ، هكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار فيك ، ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال قربت إلى مولاك عز وجل في الدنيا ، فتنعم بالمعرفة والعلوم والأسرار ، وتسكن في الآخرة دار السلام مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في جوار الله وداره وقربه عز وجل ، فاصبر ولا تستعجل ، وارض بالقضاء ولا تتهم فسينالك برد عفو الله ولطفه وكرمه بمنه الله »[2] .

<u>المطلب الخامس : الفناء بالله تعالى :</u>

قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني في كتابه فتوح الغيب : « اطلبوا من الله عز وجل الرضا أو الفناء[3] ؛ لأنه هو الراحة الكبرى والجنة العالية المنفردة في الدنيا ، وهو باب الله الأكبر ، وعلة محبة الله لعبده المؤمن ، فمن أحبه الله لم يعذبه في الدنيا والآخرة ، فيه اللحوق بالله عز وجل والوصول إليه ، لا تشتغلوا بطلب الحظوظ وأقسام لم تقسم أو قسمت ، فإن كانت لم تقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهالة وهو أشد العقوبات ، كما قيل : من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم ، وإن كانت

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٤ .

(٢) فتوح الغيب ، ط دار الأباب ١٩٩٢م ، ص٥١ ، ٥٢ - المقالة الثامنة والعشرون - في تفصيل أحوال المريد .

(٣) يعتبر العلماء أبا سعيد الخراز أول من تكلم عن الفناء واستخدم هذا المصطلح في كتابه «السر» الذي أشار إليه العطار في تذكرة الأولياء ، ج٢ ، ص٤٠ ، ومن أقوال أبي سعيد المشهورة ، قوله : إذا أناب العبد إلى الله وتعلق بالله ، وسكن في قرب الله ، نسي نفسه ، ونسي ما سوى الله، فإذا قيل له: من أين أنت ؟ وماذا تريد ؟ لا يكون له جواب أفضل من أن يقول: الله . ويقول: حقيقة القرب طهارة القلب من كل الأشياء وسكون القلب في الله . ويقول أبو سعيد : أول التوحيد فناء كل شيء في قلب المرء والعود إلى الله بالكلية . انظر تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غنى ، ص٥٣٩ ، وتذكرة الأولياء للعطار ، ج٢ ، ص٤٠ .

مقسومة فالاشتغال بها شره وحرص وشرك من باب العبودية والمحبة الحقيقية ، لأن الاشتغال بغير الله عز وجل شرك ، وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته ، فمن احتاج مع الله غيره فهو كذاب ، وطالب العوض على عمله غير مخلص ، وإنما المخلص من عبدالله ليعطي الربوبية حقها ، وتعبده للمالكية والحقيقة ، لأن الحق عز وجل يملكه ويستحق عليه العمل والطاعة له بحركاته وسكناته وسائر أكسابه ، والعبد وما في يده ملك لمولاه ؛ كيف وقد بينا في غير موضع أن العبادات بأسرها نعمة من الله وفضل منه على عبده ، إذ وفقه لها وأقدره عليها ، فالاشتغال بالشكر لربه خير وأولى من طلبه من الأعواض أو الجزاء عليها ، ثم كيف تشتغل بطلب الحظوظ وقد ترى خلقاً كثيراً كلما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعت اللذات والنعم والأقسام إليهم زاد سخطهم على ربهم وتضجرهم وكفرهم بالنعمة ، وكثرت همومهم وغمومهم وفقرهم إلى أقسام لم تقسم غير ما عندهم ، وحقرت وصغرت وقبحت أقسامهم عندهم ، وعظمت وكبرت وحسنت أقسام غيرهم في قلوبهم وأعينهم فشرعوا في طلبها ، فذهبت أعمارهم وانحلت قواهم وكبرت سنهم وشتت أحوالهم وتعبت أجسادهم وعرقت جباههم وسودت صحائفهم بكثرة آثامهم وارتكاب عظائم الذنوب في طلبها وترك أوامر ربهم ، فلم ينالوها وخرجوا من الدنيا مفاليس لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، لا شكروا ربهم فيما قسم لهم من أقسامهم فاستعانوا على طاعته ، وما نالوا بها على طاعته، وما نالوا ما طلبوا من أقسام غيرهم ، بل ضيعوا دنياهم وآخرتهم ، فهم أشر الخليقة وأجهلهم وأحمقهم وأخسهم عقولاً وبصيرة ؛ فلو أنهم رضوا بالقضاء وقنعوا بالعطاء وأحسنوا طاعة المولى لأتتهم أقسامهم من الدنيا من غير تعب ولا عناد ، ثم نقلوا إلى جوار العلي الأعلى ، فوجدوا عنده كل مراد ومنى ، جعلنا الله وإياكم ممن رضي بالقضاء ، وجعل سؤاله ذلك والفناء وحفظ الحال والتوفيق بما يحبه ويرضى»[1] .

المطلب السادس : الفناء عن الأكوان :

قال رضي الله عنه وأرضاه : « لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتى تخرج من الخلق وتوليهم ظهر قلبك في جميع الأحوال ويزول هواك ، ثم تزول إرادتك ومناك ، فتفنى عن الأكوان دنيا أخرى ، فتصير كإناء منثلم لا يبقى فيك غير إرادة ربك عز وجل فتمتلئ به عز وجل وبحكمه، إذ خرج الزور دخل النور ، فلا يكون لغير ربك في قلبك مكان ولا مدخل وجعلت بواب قلبك ، وأعطيت سيف التوحيد والعظمة والجبروت ، فكل من رأيته دنا في ساحة صدرك إلى باب قلبك ندرت رأسه من كاهله فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ومناك في دنياك وأخراك عندك

---

(١) المقالة الثالثة والخمسون في الأمر بطلب الرضى من الله تعالى، والفناء به تعالى، ص٨٤، ٨٥، كتاب فتوح الغيب، ط ٢ دار الألباب ١٩٩٢م .

رأس امتثال ولا كلمة مسموعة ، لا رأى متبع إلا اتباع أمر الرب عز وجل ، والوقوف معه والرضا بقضائه وقدره ، بل الفناء في قضائه وقدره ، فتكون عبد الرب عز وجل وأمره لا عبد الخلق وآرائهم . فإذا استمر الأمر فيك كذلك ، ضربت حول قلبك سرداقات الغيرة وخنادق العظمة وسلطان الجبروت ، وحف بجنود الحقيقة والتوحيد ، ويقام دون ذلك حراس من الحق عز وجل ، كيلا يخلص الخلق إلى تطلب القلب من الشيطان والنفس والهوى ، والإرادات والأماني الباطلة والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والنفوس الآمرة بالسوء والضلالات الناشئة من الهوى فحينئذ إن كان القدر مجيء الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم وتطابقهم عليك ، ليصيبوا من الأنوار اللائحة والعلامات المنيرة والحكم البالغة ، ويروا من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات المستمرة ، ويزدادوا بذلك من القربات والطاعات والمجاهدات والمكابدات في عبادة ربهم عز وجل ، حفظت عنهم أجمعين ، وعن ميل النفس إلى هواها ، وعجبها ومباهاتها ، وتعاظمها بالتكبر بهم وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك ، وكذلك إن قدر مجيء زوجة حسناء جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها حفظت من شرها وحمل أثقالها واتباعها وأهلها ، وصارت عندك موهبة مكفاة مهناة منقاة مصفاة من الغش والخبث والحقد والغضب والخيانة في الغيب ، فتكون لك مسخرة وهي وأهلها محمولة عنك مؤنتها ، مدفوعة عنك أذيتها وإن قدر منها ولد كان صالحا ذرية طيبة قرة عين ، قال الله تعالى : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾[1] وقال تعالى ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾[2] وقال تعالى ﴿ واجعله رب رضيا ﴾[3] فتكون هذه الدعوات التي في هذه الآيات معمولاً بها مستجابة في حقك إن دعوت بها أو لم تدع ، إذ هي في محلها وأهلها لهذه المنزلة ، وأقيم في هذا المقام وقدر له من الفضل والقرب هذا المقدار ، وكذلك إذا قدر مجيء شيء من الدنيا وإقبالها لا يضر إذ ذاك ، فما هو قسمك منها فلا بد من تناوله وتصفيته لك بفعل الله عز وجل ، وورود الأمر بتناوله وأنت ممتثل للأمر مثاب على تناوله ، كما تثاب على فعل صلوات الفرض وصيام الفرض ، وتؤمر فيما ليس بقسمك منها بصرفه إلى أربابه من الأصحاب والجيران والأخوان المستحقين الفقراء منهم وأصحاب الأقسام على ما يقتضي الحال ، فالأحوال تكشفها وتميزها . ليس الخير كالمعاينة ، فحينئذ تكون من أمرك على بيضاء نقية لا غبار عليها ولا تلبيس ولا تخليط ولا شك وارتياب ، فالصبر الصبر ، الرضا الرضا ، حفظ الحال حفظ الحال ، الخمول الخمول ، الخمود الخمود ، السكوت السكوت ، والصموت الصموت ، الحذر الحذر ، النجا النجا ، الوحا الوحا ، الله الله ثم الله ، الإطراق

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٠ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٧٤ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٦ .

الإطراق ، الإغماض الإغماض ، الحياء الحياء ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فيؤخذ بيدك فتقدم ، وينزع عنك ما عليك ثم تغوص في بحار الفضائل والمنن والرحمة ، ثم تخرج منها فتخلع عليك خلع الأنوار والأسرار والعلوم والغرائب المدنية ، ثم تقرب وتحدث فيه بإعلام وإلهام وتكلم وتعطى وتغنى وتشجع وترفع وتخاطب ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾[١] فحينئذ اعتبر حالة يوسف الصديق عليه السلام حين خوطب بهذا الخطاب على لسان ملك مصر وعظيمها وفرعونها ، كان لسان الملك قائلاً معبراً بهذا الخطاب والمخاطب هو الله عز وجل على لسان المعرفة ، سلم إليه المالك الظاهر وهو ملك مصر ، وملك النفس وملك ا لمعرفة والعلم والقربة والخصوصية علو المنزلة عنده عز وجل قال تعالى في ملك الملك ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾[٢] أي في أرض مصر ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾[٣] قال تعالى في ملك النفس ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾[٤] وقال تعالى في ملك المعرفة والعلم ﴿ ذالكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾[٥] فإذا خوطبت بهذا الخطاب يا أيها الصديق الأكبر ، أعطيت الحظ الأوفر من العلم الأعظم ، ومنحت وهنيت بالتوفيق والمنن والقدرة والولاية العامة ، والأمر النافذ على النفس وغيرها من الأشياء والتكوين بإذن إله الأشياء في الدنيا قبل الآخرة ، وأما في الأخرى في دار السلام والجنة العليا ، فالنظر إلى وجه المولى الكريم زيادة ومنة ، وهو المنى الذي لا غاية له ولا منتهى ، والله الموفق لحقائق ذلك ، إنه رؤوف رحيم[٦] .

المطلب السابع : الفناء عن الخلق :

قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه : كن مع الله عز وجل كأن لا خلق ، ومع الخلق كأن لا نفس ، فإذا كنت مع الله عز وجل بلا خلق وجدت ، وعن الكل فنيت ، وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت ، واترك الكل على باب خلوتك ، وادخل وحدك ترى مؤنسك في خلوتك بعين سرك ، وتشاهد ما وراء العيان وتزول النفس ، ويأتي مكانها أمر الله

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٤ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٢١ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٥٦ .
(٤) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٣٧ .
(٦) فتوح الغيب ، ص٤٥ – ٤٨ .

وقربه فإذن[1] جهلك علم ، وبعدك قرب ، وصمتك ذكر ، ووحشتك أنس ، يا هذا : ما ثم إلا خلق وخالق ، فإن اخترت الخالق فقل لهم ﴿ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ .

ثم قال: من ذاق عرف، فقيل له من غلبت عليه مرارة حضرته كيف يجد حلاوة الذوق؟ فقال : يتعمل في الشهوات وأدرك مدركات قلب ، ثم انقلب قلبه سراً ثم انقلب الفناء فصار وجودا وبقاء . ثم قال : الأحباب يسعهم كل باب .

يا هذا: الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة ثم الفناء عن طبع الملائكة ، ثم لحوقك بالمنهاج الأول ، وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك ، ويزرع فيك ما يزرع . إن أردت هذا فعليك بالإسلام في الاستسلام ، ثم العلم بالله ، ثم المعرفة ، ثم الوجود ، وإذا كان وجودك له كان كلك له . الزهد عمل ساعة والورع عمل ساعتين والمعرفة عمل الأبد[2] .

المطلب الثامن : الفناء عن الطبع* :

قال رضي الله عنه وأرضاه : ترك الحظوظ ثلاث مرات الأولى يكون العبد ماراً في عشواه متخبطاً فيه منصرفاً بطبعه في جميع أحواله من غير تعبد لربه ولازم في الشرع يرده ولا حد من الحدود ينتهي إليه عن حكمه ، فبينما هو على ذلك ينظر الله إليه ، يعني يرحمه ، فيبعث الله إليه واعظاً من خلقه من عباده الصالحين فينبهه ويثنيه بواعظ من نفسه ، فيتضافر الواعظان على نفسه وطبعه ، فتعمل الموعظة عملها ، فيتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطية الطبع والمخالفة ، فتميل إلى الشرع في جميع تصرفاتها ، فيصير العبد مسلماً قائماً مع الشرع فانياً عن الطبع ، فيترك حرام الدنيا وشبهاتها ومنن الخلق ، فيأخذ مباح الحق عز وجل وحلال الشرع في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وجميع مالا بد منه ، ليحفظ البنية ويتقوى على طاعة الرب عز وجل ، وليستوفي قسمه المقسوم له الذي لا يتجاوزه ، ولا سبيل إلى الخروج من الدنيا قبل تناوله والتلبس به واستيفائه ، فيسير على مطية المباح والحلال بالشرع في جميع أحواله ، إلى أن تنتهي به هذه المطية إلى عتبة الولاية والدخول في زمرة المحققين والخواص أهل العزيمة مريدي الحق ، فيأكل بالأمر فحينئذ يسمع نداء من قبل الحق عز وجل من باطنه : اترك نفسك وتعال ، اترك الحظوظ والخلق إن أردت الخالق واخلع نعليك ، دنياك وآخرتك ، وتجرد عن الأكوان والموجودات ، وما سيوجد والأماني بأسرها ، وتعر عن الجميع ، وأفن عن الكل ، وتطيب بالتوحيد ،

---

(١) لعل الصحيح : فإذا .

(٢) المقالة السابعة والسبعون «في الوقوف مع الله والفناء عن الخلق» ، كتاب فتوح الغيب ، ط دار الألباب ١٩٩٢م ، ص١١٦، ١١٧ .

* الفناء عن الطبع ، هو الفناء المطلوب لأن فيه القيام بالشرع .

واترك الشرك ، واصدق الإرادة ، ثم ادخل ، وطء البساط بالأدب مطرقاً ، لا تنظر يميناً إلى الآخرة وشمالاً إلى الدنيا ولا إلى الخلق ولا إلى الحظوظ ، فإذا دخل في هذا المقام وتحقق الوصول جاءت الخلعة من قبل الحق عز وجل وغشيته أنواع المعارف والعلوم وأنواع الفضل فيقال له تلبس بالنعم والفضل ولا تسئ الأدب بالرد وترك التلبس لأن رد نعم الملك افتئاتاً على الملك واستخفافاً بحضرته، وحينئذ يتلبس بالفضل والقسمة بالله من غير أن يكون هو فيه ومن قبل كأن يتلبس بهواه ونفسه فله أربع حالات في تناول الحظوظ والأقسام :

الأولى : بالطبع وهو الحرام .

الثانية: بالشرع وهو المباح والحلال .

الثالثة : بالأمر وهي حالة الولاية وترك الهوى .

والرابعة: بالفضل ، وهي حالة زوال الإرادة وحصول البديلة ، وكونه مراداً قائماً مع القدر الذي هو فعل الحق وهي حالة العلم والإنصاف بالعلاج فلا يسمى صالحاً على الحقيقة إلا وصل إلى هذا المقام ، هو قوله تعالى ﴿ إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ فهو العبد الذي كفت يده عن جلب مصالحه ومنافعه وعن رد مضاره ومفاسده ، كالرضيع مع الظئر والميت الغسيل مع الغاسل ، فتتولى يد القدرة تربيته من غير أن يكون له اختيار وتدبير ، فان جميع ذلك لا حالاً ولا مقاماً ولا إرادة ، بل القيام مع القدرة ، تارة يبسط وتارة يقبض وتارة يغني وتارة يفقر ، ولا يختار ولا يتمنى زوال ذلك وتغييره ، بل الرضى الدائم والموافقة الأبدية فهو آخر ما تنتهي إليه أحوال الأولياء تقدست أرواحهم[(١)] .

المطلب التاسع : نظم الجيلاني في الفناء :

وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن الفناء في قصيدته العينية :

وقد فتكت روحي بقارعة الهـوى
وأفنيت عن نحوي بما أنا فـــارع
تلذ لي الآلام إذ أنت مسقمـــي
وإن تمتحني فهو عندي صنائـــع
فقام الهوى عندي مقامي فكنتـه
وغيبت عن كوني فعشقي جامع[(٢)]

---

(١) المقالــة الخامسة والخمسون في ترك الحظوظ ، فتوح الغيب ، ط دار الألباب ، ص٨٧ ، ٨٨ ، وشرح فتوح الغيب ١٥٥ ، ١٥٦ وتوجد أخطاء كثيرة في هذا المقال ، ولم يشرح ابن تيمية في شرحه لكلمات من فتوح الغيب هذا المقال .

(٢) الجيلاني : فتوح الغيب ، ط دار الألباب ، ص١٣٣ .

وقال في أبيات أخرى في قصيدته العينية :

أقوم أصلي أي أقوم على الوفـــــــا
بأنك فرد واحد الحسن جامـــــــع
وأقرأ من قرآن حسنك آيـــــــــة
فذلك قرآني إذا أنا راكـــــــــع
فاسجد كي أفنى عن الفنـــــــــا
وأسجد أخرى والمتيم والـــــــع
وقلبي فدا أبقاه حسنك عنـــــــده
تحياته منكم وإليكم تســـــــارع
صيامي هو الإمساك عن رؤية السوى
وفطري أني نحو وجهك راكـــــع(١)

ومن النظم المنسوب إلى الجيلاني في باب الفناء - أيضاً - الأبيات التالية :

رفع الحجاب عن بدور الكمـــــال
مرحباً مرحباً بأهل الجمـــــال
ملكوني بحبهم ورضـــوا بـــــي
عبد رق فسـدت بين المواليــــي
فرجوني بصرف راح هـواهـــــم
فتربيت في حجــور الــــدلال
عاملوني بلطفهم في غرامـــــي
فحلا في بصائر الناس حالـــــي
إن أرادوا الصدود يفنى وجـــودي
رحموني وانعمـــوا بالوصـــال
وإن ضللت عنهم هـدونـــــــي
هكذا هكذا تكون المواليـــــي

---

(١) الجيلاني : فتوح الغيب ، ط دار الألباب ، ص١٣٧ .

سادتي سادتي بحقي عليكـــــــــم
إنني عندكم عزيز وغالـــــــــي

ما بقي لي حبيب قلب ســـــــواكم
مات وهمي بكم وبان خيالـــــــي

بحياتي عليكم يا ســـــقـاتـــــي
روقوا الكأس إن حبي ملا لــــــــي

وأديروا الكؤوس بين الندامـــــــي
فجميع الأنام سكرى بحالـــــــي[1]

المطلب العاشر : لزوم الأمر والنهي في حالة الفناء :

يرى الشيخ عبدالقادر أن الإنسان تمر به أحوال منها حال الحقيقة والتي هي حال الولاية ، وحالة حق الحق ، وهي حالة المحق ، وحالة الفناء وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجل الحق الموحدين العارفين أرباب العلوم ، وعلى الإنسان في جميع هذه الأحوال لزوم الأمر والنهي واتباع الشرع .

قال الشيخ عبدالقادر : « وإن كنت في حال الحقيقة وهي حال الولاية فخالف هواك واتبع الأمر في الجملة ، واتباع الأمر على قسمين : (أحدهما) : أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وتترك الحظ وتؤدي الغرض ، وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن. والقسم الثاني: ما كان بأمر باطن وهو أمر الحق تبارك وتعالى يأمر عبده وينهاه ، وإنما يتحقق هذا الأمر في المباح الذي ليس حكماً في الشرع ، على معنى أنه ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره فسمى مباحاً فلا يحدث العبد فيه شيئاً من عنده بل ينتظر الأمر فيه ، فإذا امتثل فيصير جميع حركاته وسكناته بالله تعالى ، ما في الشرع حكمة فبالشرع ، وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن ، فحينئذ يصير محققاً من أهل الحقيقة وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حال التسليم . وإن كنت في حالة حق الحق وهي حالة المحق ، والفناء حالة الأبدال المنكسري القلوب لأمل الحق الموحدين العارفين أرباب العلوم والفعل السادة الأمراء السخى الخفراء للحق خلفاء الرحمن واجلائه وأعيانه وأحبابه عليهم السلام ، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة ، وأن لا تكون لك إرادة وهمة في شيء البتة دنيا

---

(١) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص٢١٠ ، ٢١١ .

وأخرى ، عبد الملِك لا عبد الملك ، وعبد الأمر لا عبد الهوى كالطفل مع الظئر ، والمبيت الغسيل مع الغاسل ، والمريض المغلوب على حسه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهي » .

وقال الجيلاني أيضاً : « اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حال التقوى التي هي القدم الأولى ، واتبع الأمر في حالة الولاية ووجود الهوى ولا تتجاوزه وهي القدم الثانية وارض بالفعل ووافق وافن في حالة البدلية والعينية والصديقية وهي المنتهى . تنح عن الطريق القذر ، خل عن سبيله ، رد نفسك وهواك ، كف لسانك عن الشكوى ، فإذا فعلت ذلك إن كان خيراً زادك المولى طيبة ولذة وسروراً ، وإن كان شراً حفظك في طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة وأقعدك فيه حتى تتجاوز ويريحك عند انقضاء أجله كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار ، والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف ، ذلك النموذج عندك فاعتبر به . ثم ذنوب وآثام وأجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطايا، ولا يصلح بمجالسة الكريم إلا الماهر عن أنجاس الذنوب والزلات ، ولا يقبل على شدته إلا طبيب من دون الدعوى والهواشات كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ فالبلايا مكفرات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ((حمى يوم كفارة سنة))[١] .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه كلام الشيخ عبدالقادر بعد أن أورده في فتاويه أن الشيخ رضي الله عنه قد بين أن لزوم الأمر والنهي لا بد من في كل مقام وذكر الأحوال الثلاث التي تكلم عنها الجيلاني في حديثه عن لزوم الأمر والنهي في حالة الفناء وغيرها من الأحوال[٢] .

البقـــــاء[٣] :

سئل الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن البقاء ؟ فقال : البقاء لا يكون إلا مع اللقاء ، واللقاء يكون كلمح البصر أو هو أقرب ، ومن علامة أهل اللقاء أن لا يصحبهم في وصفهم به شيء فان لأنهما ضدان . وكان يقول : متى ذكرته فأنت محب ، ومتى سمعت ذكره لك فإنك محبوب ، والخلق

---

(١) ابن تيمية : الفتاوى ، ٥٢٣:١٠ ، ٥٢٤ .

(٢) ابن تيمية : الفتاوى ، ٥٢٣:١٠ ، ٥٢٤ .

(٣) حـــال الـــبقاء هو فناء الكاملين ، الفناء عن عبادة السوى وقد اتفق ابن تيمية مع الجيلاني في أن حال البقاء أفضل من حال الفناء القاصر ، والبقاء هو شهود الحقائق بإشهاد الحق كما قال الله فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ((لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالـــنوافل حـــتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي علـــيها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش)) وفي رواية ((وبي ينطق وبي يعقل)) . فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه وشهد الحق على ما هو عليه .
انظر : ابن تيمية ، مجلد علم السلوك ، ص٣٤١ و ٢٢٠ .

حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربك، وما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك[١] .

وقال الشيخ عبدالقادر : « كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط ولم يزل أمره فرطاً » .

ويشرح ابن القيم قول الشيخ عبدالقادر السابق فيقول « فمخالطة العبد للناس تكون تعاوناً على البر والتقوى علماً وعملاً ، وأما بينه وبين الله فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته ، فللعبد واجب بينه وبين الرب ، وواجب بينه وبين الخلق ، ولا يتم إلا بعزل نفسه من الوسط ، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ، ولا يتم الواجب بينه وبين الخلق إلا بعزل الخلق من البين ، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية »[٢] .

وقال الجيلاني : يا هذا ! المؤمن إذا عمل صالحاً انقلبت نفسه قلباً وأدرك مدركات قلب ، ثم انقلب قلبه سراً ، ثم انقلب الفناء وجوداً وبقاء[٣] .

بقاء الأوصاف :

ذكر الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف أن شيوخ الصوفية اختلفوا في الفاني هل يرد إلى بقاء الأوصاف أم لا ؟ فذهب الجنيد بن محمد - سيد الطائفة - وأبو سعيد الخراز صاحب كتاب الصدق وأبو الحسين النوري الذي تنسب إليه النورية إلى أن الفاني قد لا يرد إلى بقاء الأوصاف، بينما ذهب أبو العباس ، ابن عطاء في كتابه الذي سماه عودة الصفاة إلى أن الفاني يرد إلى بقاء الأوصاف ، وحالة الفناء لا تكون على الدوام ؛ لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح من أداء المفروضات، وعن حركاتها من أمور معاشها ومعادها[٤] .

---

(١) انظر : التصوف في الإسلام للدكتور عمر فروخ ، ص٧٩ .

(٢) ابن قيم الجوزية : الرسالة التبوكية ، ط٣ المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٦هـ ، ص١٣ .

(٣) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١١٧ .

(٤) التعرف ، ط. دار الإيمان ، دمشق ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ص١٢٧ ، ١٢٨ .

المبحث السادس

الفناء عند الشقاني وأقوال أخرى في الفناء

المطلب الأول : الفناء عند الشقاني :

ومن القائلين بالفناء أبو العباس أحمد بن محمد الشقاني الذي قال : « اشتهي عدماً لا عود فيه » وكان يقول بالفارسية : « لكل آدمي غاية مطلوبة ، ولا بد لي من غاية مطلوب ، وأنا أعلم يقيناً أن ذلك لن يتحقق ، لأن غايتي هي أن يحملني الله تعالى إلى عدم ليس له وجود قط ، لأن كل ما هو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الآدمي عاشقاً لحجابه ، والعدم في المشاهدة خير من الراحة مع الحجاب ، ولما كان الحق جل جلاله وجوداً لا يجوز عليه العدم ، يكون هناك ضرر في ملكه إذا جعلني عدماً ؛ لأن ذلك العدم ليس له وجود قط » ويعلق الهجويري على هذا الكلام بقوله : « وهذا أصل قوي في صحة الفناء » والله أعلم .

ونحن نرى أن هذه العبارات ليس وراءها طائل ، ولا فائدة من هذا الجنس من الكلام فهو يشوش القلب ، وهو من باب الدعاوى الطويلة في حب الله والوصال . وقد عد بعض الباحثين هذه العبارات من شطحات الشقاني التي عبر فيها بطريقته الخاصة عن الفناء ، وهي طريقة عباراتها مغلقة ، وقد قلد بعض المريدين هذا الشيخ في شطحاته ، وقد أخطأوا في ذلك ، فالتقليد في هذه الأحوال غير محمود في المعنى فكيف في العبارة والشيخ أبو العباس من المعظمين للشرع ، ولذلك دافع عنه مريدوه . قال الهجويري : « وكان لي معه أنس عظيم ، وكان يشفق علي شفقة صادقة ، وكان أستاذي في بعض العلوم ، ولم أر طيلة حياتي قط رجلاً من أي صنف كان يعظم الشرع أكثر منه »[1] .

المطلب الثاني : أقوال أخرى في الفناء :

يقول إبراهيم بن شيبان[2] ، رحمه الله : « علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة » .

ويقول الهجويري في شرحه لكلام ابن شيبان « يعني أنه عندما يقر العبد بوحدانية الحق ، يرى نفسه مغلوباً ومقهوراً لحكم الحق ، والمغلوب يفنى في غلبة الغالب ، وحين يصح عليه فناؤه

---

(١) كشـــف المحجـــوب ، ص٣٨ ، وانظر ص٣٨٣ ، وانظر ما كتبته الدكتورة إسعاد قنديل عن ذلك في دراستها حول الهجويري في كتاب كشف المحجوب الذي حققته ، ص٩٨ و ١٠١ .

(٢) إبراهـــيم بـــن شيبان : أبو إسحاق القرمسيني ويسميه الجابي الكرما نشاهي . مات سنة سبع وثلاثين وثلثمائة . انظر ترجمته في : هامش كشف المعجوب ، ص٤٨٦ وطبقات الصوفية ، ص٤٠٢ والرسالة ج١ ، ص١٦٣ وطبقات الشعراني ، ج١ ، ص٩٠ .

يقر بعجزه ، ولا يرى له حيلة غير العبودية ، فيتمسك بعتبة الرضا . وكل من يعبر عن الفناء والبقاء بغير هذه العبارات - يعني بالعبارة التي ترى الفناء فناء العين والبقاء بقاء العين - فهذه هي الزندقة ومذهب النصارى »[١] .

ويقول أبو يعقوب النهرجوري : « صحة العبودية في الفناء والبقاء »[٢] . ويقول الهجويري في شرحه لهذا الكلام : « لأنه ما لم يتبرأ العبد من كل نصيبه ، لا يليق للخدمة بإخلاص ، فالتبرؤ من نصيب الآدمية هو الفناء ، والإخلاص في العبودية هو البقاء »[٣] .

الخواص والفناء :

قال الخركوشي في كتابه تهذيب الأسرار : قال أبو سعيد الواعظ رضي الله عنه : سمعت أبا محمد بكر بن محمد العابد الطبراني بأرض كنعان قال : سمعت أبا الحسن علي بن الحسن الموفق قال: سمعت أبا الحسن المالكي يقول : سمعت أحمد بن عطاء يقول : سمعت إبراهيم الخواص يقول : كان عندي رجل يتصوف ، فتكلمتُ يوماً والنوري في الفناء والبقاء ، فرددت عليه فهتف بي هاتف : يا أبا اسحق نريدك للسكوت لا للكلام ، فقلت كان غرضي في الكلام أن تريدوني ، فإن أردتموني للسكوت فإني لا أتكلم أبداً[٤] .

الفناء عن الأبهري :

قال أبو بكر عبدالله بن طاهر الأبهري ، رحمه الله تعالى ، وسئل عن الجمع والتفرقة فقيل له : إلى ماذا أشار القوم إلى معنى الجمع والتفرقة ؟ فقال : « أشار قوم إلى أن جمعهم في آدم عليه السلام ، وفرقهم في ذريته ، وأشار قوم إلى أن جمعهم في المعرفة وفرقهم في الأحوال »[٥] .

---

(١) كشف المحجوب ، ص٤٨٦ .

(٢) جاء في كتاب اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ، ص٢٨٤ : «وسئل أبو يعقوب ، رحمه الله تعالى ، عن صحة علم الفناء والبقاء قال تصحبة العبودية في الفناء والبقاء ، واستعمال علم الرضا ، ومن لم تصحبه العبودية في الفناء والبقاء فهو مدع» . وسئل أبو يعقوب النهرجوري ، عن صحة الفناء والبقاء (مرة أخرى) فقال : هو فناء رؤية قيام العبد لله عز وجل ، وبقاء رؤية قيام لله تعالى في أحكام العبودية .

(٣) كشف المحجوب ، ص٤٨٦ ، ولعل الصحيح «تصحبه العبودية في الفناء والبقاء ...» كما جاء في اللمع .

(٤) تهذيب الأسرار ، ص٣٨٧ .

(٥) اللمع ، ص٢٨٣ .

سمنون المحب والفناء :

قال سمنون رحمه الله تعالى : العهد في حال الفناء محمول وفي حال الحمل موروود ، وهي نعوت تؤدي إلى نعوت . وقال : أول مقامات الفناء الوجود والمشاهدات للبقاء[١] .

الفناء عند ابن عطاء :

قال ابن عطاء : « من لم يفن عن شاهد نفسه بشاهد الحق ، ولم يفن عن الحق بالحق ، ولم يغب في حضوره عن حضوره ، لم يقع بشاهد الحق » .

المطلب الثالث : ابن عربي والفناء :

يقسم ابن عربي الفناء إلى سبع درجات أو مراحل هي :

١- الفناء عن المعصية أو الذنب .

٢- الفناء عن أفعال الخلق بما في ذلك أفعال الصوفي نفسه ، وذلك بإنكار نسبتها الأصلية إلى الإنسان، باعتبار الفضل أولاً وآخراً إلى الله .

٢- الفناء عن الصفات المخلوقة . وشرح ابن عربي لهذه المرحة لا يتقيد بالناحية الفلسفية ، ولهذا فهو يسوي بين الرائي وموضوع الرؤية ، حيث لا يمكن في نظره التمييز بين الخالق والمخلوق ، فالرائي لا يرى إلا بالبصر ، والخالق إنسان هذا البصر ، فكأنه ما رأى الخالق سوى الخالق، لأن الرائي شاهد الله بواسطة الله نفسه .

٤- الفناء عن الذات .

٥- الفناء عن الكون كله .

٦- الفناء بالله عما سوى الله .

٧- الفناء عن صفات الله ومتعلقاتها[٢] .

وقد شرح ابن عربي هذه الأنواع من الفناء أو الدرجات شرحاً يتفق في معظمه مع مذهبه في الوحدة ، فهو يؤكد دائماً أنه يتحدث عن شهود الذات وليس شهود الصفات ، وقد خالف ابن عربي القائلين بأنه لا يمكن حين تجلي الحق سماع كلامه ، أي أنه لا يمكن أن يجتمع فناء عن شهود السوى مع وعي الصوفي مما يسمع . وقد خالف كذلك من قال بجواز اجتماع الأمرين أمثال شهاب

---

(١) اللمع ، ص٢٨٥ .

(٢) انظر الفتوحات المكية ، ٢/٦٧٧ .

الدين السهروردي وقال ابن تيمية : « .. والصواب مع شهاب الدين فإنه كان صحيح الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد »[1] .

وقال صهيب سعران في كتابه "مقدمة في التصوف"[2] في حديثه عن ابن عربي والفناء: « ... يؤكد ابن عربي أن كل الظواهر الامتثالية والانفعالية التي تصحب أو تسبق الفناء تتميز بالمفاجأة في الظهور ، كما يؤكد إلى أنه فضل من الله يمنحه كما يشاء ولمن يشاء ، ومن هنا فإن الفناء يمكن أن يقع للصوفية غير الكمل ، كما يقع للكمل وهم الواصلون إلى الاتحاد بالله !! مع فارق هو أنه في الأولين يتم مع أو بدون إعداد سابق ، وفي الآخرين وهم الكمل يسبقه عادة إعداد وتمهيد وتحضير ، ونضيف أن هذا الطابع الوهبي للفناء ليس معناه الانعدام التام للأحوال المهيئة في الشخص ، لأن الوجد الفنائي يظهر دائماً في المراحل الأخيرة لعمليات المعرفة الصوفية ، وكأنه ثمرة طبيعية لمختلف الرياضات الصوفية ، وخصوصاً السماع والخلوة والمكاشفة والتجلي والمشاهدة التي تقتضي بمجموعها مجاهدات خارجية وباطنية ذوات فضائل خاصة تهيئ النفس بواسطة إنكار ما سوى الله للاتحاد به » !

إن التجديد التدريجي لميدان الشعور بالعالم هو المميز الرئيسي لظاهرة الفناء وهي تركيز وحشد للنشاط الذهني على فكرة واحدة هي الله باستبعاد كل فكرة أو صورة أو خاطر يتعلق بالمخلوقات ، من شأنه أن يستبعد من الأفق الشعوري حضور كل الكائنات المخلوقة . يقول الشبلي[3] :

غبت عني فما أحس بنفسي ... وتلاشت صفاتي الموصوفة
فأنا اليوم غائب عن جمــيع ... ليس إلا العبادة الملهوفــة

ويقول أيضاً :

خيالك في عيني وذكراك في فمي ... ومثواك في قلبي ، فأين تغيب ؟!

وابن عربي يميز ستة أنواع أو درجات متوالية في هذه العملية الخاصة باللاشعور التي تميز الفناء ، في الدرجة الأولى يفقد العبد الشعور بالأفعال الإنسانية الخاصة به وبغيره ، بأن يراها آثاراً لله الذي هو علتها الوحيدة ، وفي الثانية يفقد الشعور بمكانته وقواه وصفاته ويراها مكان الله ، وإن كان لا يزال محتفظاً بالشعور بوجوده الفردي كشخص ينكشف فيه وجود الله بواسطة مكانته ، فالله لا العبد هو الذي يبصر ويسمع ويفكر ويرغب من خلال ملكات هذا العبد ، وفي الثالثة يزول

---

(١) الفتاوى ، ١٠ : ٣٣٩ .

(٢) انظر المرجع المذكور ، ص٥٩-٦٢ ، ط. ١٤٠٩هـ ، ط. دار المعرفة دمشق .

(٣) أبو بكر الشبلي .

شعور العبد بشخصيته وتستغرق النفس في مشاهدة الله والأمور الإلهية ، فالعبد يفقد الشعور بأنه هون الذي يشاهد ، يقول الحلاج[1] :

حويت بكلي كل كلك يا قدسي

تكاشفني حتى كأنك في نفسي

وفي الرابعة لا يتفطن لأن الله هو من يشاهده ، وفي الخامسة تؤدي مشاهدة الله إلى إبعاد كل ما سواه عن النفس . حكى عن رابعة أنه ضرب رأسها ركن حداد فأدماها فما التفتت ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : شغلي بموافقة مراده فيما جرى اشغلني عن الإحساس بما ترون من شاهد الحال ، وحتى هذه اللحظة لا يكون العبد قد فقد الشعور بالعالم الخارجي لأن المخلوقات كانت في نظره آثاراً وتجليات لله ، ولكن في هذه الدرجة يمتد التدرج إلى كل العناصر الذاتية والموضوعية الباطنية والخارجية لشعوره ، فالله يشاهد بوصفه مجرداً من كل علاقة للعبد بالعالم ، يقول الشبلي :

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد

وأفنيتني عني فعدت محــــددا

وكلي بكل الكل وصل محقـــق

حقائق حق في دوام تخلـــــــدا

تغرب أمري فانفردت بغربــتي

وأفنيتني عني فصرت مجـردا

وفي السادسة يتضاءل مجال الشعور أكثر فتزول الصفات الإلهية ، ويتجلى الله للعبد في مشاهدته بوصفه الوجود المطلق ألم يقل الحلاج يوماً ((ما في الجنة إلا الله)) ، ألم ينشد يوماً :

أنا الحق والحق للحق حق

لا بس ذاته فما ثم فــرق

لكن قبل زوال قوة الامتثال من الشعور خلال هذا اللاشعور التدريجي ، يتذوق الصوفي ظواهر انفعالية يصفها ابن عربي بأنها شعور روحي بالحلاوة والسعادة ، ويصاحب هذا التذوق استرخاء في الأعضاء والمفاصل ، وخدر الجوارح ، واستغراق للطاقة يحرم النفس من ممارسة حرية الحركة ، ثم إن هذا الشعور بالحلاوة مدته غير محدودة ، ومن مميزاته أنه متنوع جداً ، فإن حلاوة

---

(١) الحلاج ، الحسين بن منصور ، المقتول سنة ٣٠٩هـ ، عده عدد كبير من الباحثين من أصحاب الفناء عن وجود السوى ، وقالوا : إنه كان يقول ما يقول وهو في حالة صحو تام وليس في حالة سكر وجداني . تكلم عن أخباره بتفصيل الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد ، وترجم له أصحاب التراجم كابن خدكان في وفيات الأعيان وغيره .

الفناء لواحد تختلف عن حلاوة الفناء لآخر ، كما تختلف مثلاً حلاوة السكر عن حلاوة العسل ، والغاية التي يقصد إليها من وضع هذه الحلاوة في النفس واضحة ، ففي المراحل التدريجية لسير النفس إلى الاتحاد بالله تكون الحلاوة الحسية مكافأة وقتية ، أو باعثاً حياً على الصعود في مراقي الكمال والوصول إلى مشاهدة الأمور الإلهية في تصاعد مستمر .... وابن عربي يرى أن الفناء هو الدرجة الأخيرة في المعراج العقلي للنفس التي ترتفع باستبعاد كل ما سوى الله إلى مشاهدة الوجود الذي هو الوحدة المطلقة .

الفصل الثالث
أنــــواع الـفــنـــــاء

المبحث الأول : الفناء عن عبادة السوى

المبحث الثاني : الفناء عن شهود السوى

المبحث الثالث : الفناء عن وجود السوى

أنـــــواع الفنـــاء

جعل علماء السلف الفناء أنواعاً هي :

أ- الفناء عن عبادة السوى

ب- الفناء عن شهود السوى .

ج- الفناء عن وجود السوى وهو فناء الملاحدة[١]

المبحث الأول

الفناء عن عبادة السوى

وهو الفناء الكامل ، المحمدي ، النبوي ، الديني ، الشرعي ، المحمود ، والمطلوب ، الذي يشهد فيه العبد فعل المأمورات مع كثرتها ، وترك المحظورات مع كثرتها لله وحده لا شريك له ، وهو حال البقاء . قال ابن تيمية : « وأما النوع الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى فهذا حال النبيين وأتباعهم ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته ما سواه وطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه .. »[٢] .

وقد اتفق العلماء على أن حال البقاء أفضل من حال الفناء القاصر ، والبقاء هو شهود الحقائق بإشهاد الحق ، كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله صلى الله عليه وسلم : ((لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، فبي يسمع وبي يبطش ، وبي يمشي)) وفي رواية : ((وبي ينطق وبي يعقل)) فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه[٣] .

---

(١) توحيد الربوبية لابن تيمية ، ص٣١٣ و ٣٦٩ .

(٢) الفتاوى ، ٢ : ٣١٤ .

(٣) مجلد علم السلوك ، ص٣٤١ و ٢٢٠ ، وقد سبق تخريج الحديث في هامش هذا الكتاب .

المبحث الثاني

الفناء عن شهود السوى

هو فناء القلب عن شهود ما سوى الرب ، وهو فناء الشهادة ، فناء عن العلم بالغير والنظر إليه ، وهو فناء فيه نقص لأنه يقع فيه السكر الذي يسقط التمييز[١] ، وهو فناء القاصرين من الأولياء والصالحين ، وهو مقام الاصطلام « وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمعبوده عن عبادته ، وبمشهوده عن شهادته ، وبمذكوره عن ذكره ، فيفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل »[٢] قال ابن تيمية في فتاويه « فإن الفناء أو الغيب : هو أن يغيب بالمذكور عن الذكر ، وبالمعروف عن المعرفة ، وبالمعبود عن العبادة ، حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل »[٣] .

والفناء عن شهود ما سوى الله هو نوع من أنواع الفناء ، يغيب فيه المسلم بمشهوده عن شهوده ، وهذا الفناء يعرض لكثير من السالكين كما يحكي عن أبي يزيد البسطامي ورابعة العدوية وأبي الحسين النوري ومحمد بن واسع وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبدالله التستري وأمثالهم .

وغاية الفاني عن شهود السوي أن يكون معذوراً ، فهذا النوع من الفناء هو الفناء الناقص ، ولم يقع في مثله أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وإنما وقع شيء من هذا في التابعين ، فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أثبت أكمل من حال الفناء ، لأن حال البقاء حال الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ومعلوم أن الرسل أفضل الخلق ، فحالهم أكمل من حال غيرهم[٤] .

المطلب الأول : أسباب الفناء عن شهود السوي :

يحدث الفناء عن شهود السوي بسبب ورود حال على الإنسان يعجز فيها عن شهود حقائق أسماء الله وصفاته ، عن شهود أحكامه خلقاً وأمراً ، والذي يحدث له ذلك يكون معذوراً للعجز ، وليس محموداً على النقص والجهل ، وقد تصدر منه عبارات يشتم منها رائحة الرعونة والدعوى ، فتكون من زلاته . وغياة السكران سكر وجداني يصعب معه التمييز أن يعذر ، لا أن يتخذ ما يقوله منهجاً ، فضعف القلب ليس غاية ، والفناء عن شهود السوي يحدث لكثير من السالكين لفرط انجذاب

---

(١) ابن تيمية : مجلد السلوك ، ص٣٤٠ .

(٢) ابن تيمية : توحيد الربوبية ، ص٣١٣ .

(٣) ابن تيمية : توحيد الربوبية ، ص٣٤٣ ، ومجلد السلوك ، ص٥٩ ، وتوحيد الربوبية ، ص١٣١ ، ٣٠٧ .

(٤) انظر رسالة العبودية في الإسلام ، ص٤٦ ، ٤٧ ، والفتاوى الكبرى ، ٢ : ٣٣٨ ، والتحفة العراقية ، ص٧٠ ، وبغية المرتاد ، ص٤٣ ، ومجموعة الرسائل والمسائل ، ص٨٢ ، ٨٣ ، ج١ .

قلوبهم إلى عبادة الله ، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد « لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون ، كما قيل في قوله تعالى ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ قالوا فارغاً من كل شيء إلا ذكر موسى ... » وإذا استغرق العبد في ذلك ولم يشعر بغير الله ، وقوي ذلك عليه ، فإنه يغيب بمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته حتى يفني من لم يكن وهي المخلوقات ... ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى ، وإذا قوي هذا ضعف المحب حتى اضطره في تمييزه وحدث له السكر الوجداني . وقال في تلك الأحوال من الأقوال : « ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد وأبي الحسين النوري وأبي بكر الشبلي وأمثالهم بخلاف أبي سليمان ومعروف الكرخي والفضيل بن عياض ، وبخلاف الجنيد وأمثالهم ، ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه »[1] .

وقد حصر عدد من العلماء أسباب الشطح والفناء القاصر في الآتي :

أ - قد يحدث الفناء عن شهود السوي بسبب سلوك السالكين في محبة الله مسلكاً ناقصاً .

ب - التواجد[2] والرقص والسماع .

أ) سلوك السالكين في محبة الله مسلكاً ناقصاً :

قال ابن تيمية في فتاويه « والذين يسلكون في محبة الله مسلكاً ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى الاصطلام والفناء ، يغيب بمحبوبه عن محبته ، وبمعروفه عن مفرفته ، وبمذكور عن ذكره ، حتى لا يشعر بشيء من أسماء الله وصفاته وكلامه وأمره ونهيه. (ومنهم) من قد ينتقل من هذا إلى الاتحاد فيقول أنا هوهو أنا وأنا الله ، ويظن كثير من سالك وهم غالطون في هذا ، بل هذا من جنس قول النصارى ... »[3] .

ب) التواجد والرقص والسماع والسكر الوجداني :

يرى عدد من العلماء أن السكر الوجداني هو السبب المباشر في حدوث الشطح والفناء ، وأن السماع أيضاً سبب في الوصول إلى الفناء ، وعند الوصول يستغني الواصل عن السماع ، وتصبح الأصوات عنده سواء لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فإذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع .

---

(١) ابن تيمية : علم السلوك، ص٢٢٠ ، ٢٢١ ، وانظر أيضاً : توحيد الربوبية ، ص٣٧٠ .

(٢) التواجد : استدعاء الوجد تكلفاً ، وقد أجازه الصوفية وأنكره آخرون لما فيه من التكلف والتصنع . انظر: التعريفات للجرجاني . وقد تكلم عنه أبو حامد الغزالي في كتابه الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين .

(٣) ابن تيمية : علم السلوك ، ص٥٩٤ .

دخل الهجويري في يوم شديد الحر عل أبي أحمد المظفر بن أحمد فقال له : قل لي ما تريد في الحال ؟ فقال : يلزمني السماع فأرسل شخصاً في الحال فأحضروه القوال وجماعة من أهل الطرب. قال الهجويري : « وصيرتني جذوة حداثتي وقوة إرادتي وحرقة بدايتي مضطرباً في السماع فلما انقضى على ذلك وقت وقل فيّ سلطان تلك الآفة وغليانها . قال لي : كيف كان حالك في هذا السماع . قلت : أيها الشيخ كنت مسروراً جداً . فقال سوف يأتي وقت يكون هذا ونعيق الغراب كلاهما لديك سواء ؛ لأن قوة السماع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فإذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع وإياك أن تتعود هذا حتى لا يكون طبيعة لك »[١] .

السماع والرقص :

بين ابن تيمية في فتاويه أن من كان صادقاً في أحوال الرقص فهو مبتدع ضال من جنس أعوان الظلمة . وقد استدل ابن تيمية بما قاله سيد المسلمين في وقته الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ قال : أخلصه وأصوبه . قيل له : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه. قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة[٢] . وقال ابن تيمية : « وأما الرقص فلم يأمر الله به ولا رسوله ولا أحد من الأئمة بل قال الله تعالى في كتابه: ﴿ واقصد في مشيك ﴾ وقال في كتابه : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ "أي بسكينة ووقار"[٣] .

وقد فرق ابن تيمية بين السماع والاستماع . فما لا يقصده الإنسان من الاستماع « فلا يترتب عليه لا نهي ولا ذم باتفاق الأئمة ، ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع ، فالمستمع للقرآن يثاب عليه ، والسماع له من غير قصد وإرادة لا يثاب على ذلك ، إذ الأعمال بالنيات، وكذلك ما ينهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السامع بدون قصد لم يضره ذلك ، فلو سمع السامع بيتاً يناسب بعض حاله فحرك ساكنه المحمود ، وأزعج قاطنه المحبوب ، أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهي عنه . وكان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله إلى محبته التي تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله »[٤] .

---

(١) كشف المحجوب ، ص٣٨٥ .

(٢) ابن تيمية : في مجلد التصوف ، ص٦٠٠ .

(٣) ابن تيمية : التصوف ، ص٥٩٩ .

(٤) ابن تيمية : السلوك ، ص٧٨ .

التواجـــد :

جعل جماعة الصوفية التواجد سبيلاً للوصول للفناء عن شهود السوي وقالوا : إن التواجد سنة سنها الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا بما يرويه بعضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه أنشد منشد :

قد لسعت حية الهوى كبدي	فلا طبيب لها ولا راقـــــي
إلا الحبيب الذي شغفت بــه	فعنده رقيتي وترياقــــــي

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة من منكبه .

وهذا الذي يستدل به القائلون بالتواجد والذي نسبوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : « كذب باتفاق أهل العلم بالحديث . وأكذب منه ما يرويه بعضهم : "إنه مزق ثوبه ، وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على العرش" فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه صلى الله عليه وسلم »[(١)] .

السكر الوجداني :

غاية السكران أن يعذر كما وضح علماء المسلمين في فتاويهم ، والسكر الوجداني يصعب معه التمييز . يقول أبو عبدالله بن خفيف : « والسكر للمريدين حق وللعارفين باطل ، وغلبات الحق على سائر الخلق جائز في الأحوال للمتوسطين والمقامات للعارفين والشدة للمريدين . والصحو أفضل من الاصطلام ، والإفاقة أفضل من السكر »[(٢)] .

وغاية السكران أن يعذر. يقول أبو عبدالله بن خفيف : « ونعتقد أن الواجد المتحقق محفوظ ، وأهل الغلبات ، تجري عليهم أحوال تفوتهم بها الواجبات ، فإن أفاقوا عادوا ، وإن مضوا في سكرهم عذروا »[(٣)] .

المطلب الثاني : عبارات عدها بعض العلماء من الشطحات وهي ليست كذلك :

قال جماعة من الصوفية عبارات عدها بعض الباحثين من قبيل الشطح ، وهي ليست كذلك ، بل هذه العبارات قالها من قالها من الأولياء والصالحين وقد أخطأ فيها مع سلامة القصد

---

(١) مجلد التصوف ، ص١٦٨ .

(٢) د. الطبلاوي محمود سعد : التصوف في تراث ابن تيمية . ط. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤م ، ص١٧٢ ، نقلاً عن منهاج السنة النبوية ٣/٨٥، ٨٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وحسنه وصلاح هؤلاء الرجال وفضلهم ، وهذه العبارات التي أخطأ فيها من أخطأ لا تتعارض مع دينهم وفضلهم ، فليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط ، بل ولا من الذنوب .

وقد تسببت هذه العبارات في حدوث اشتباه للسامع خاصة وأنها صدرت ممن عرفوا بشطحاتهم فيظن السامع أن ما قاله القائل من عبارات قد قاله في حالة سكر وجداني ويكون الأمر على خلاف ذلك .

وتصدر هذه الكلمات - في معظم الأحوال - عن صاحب حال "لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها" ولا يجعلها المسلم طريقة ، ولا تتخذ سبيلاً « ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك ، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق ، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر ، والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى ... فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً محروماً وإن لم يكن عاصياً أو كافراً أو فاسقاً »[١] .

وقد ذكر ابن تيمية في فتاويه أمثلة لهذه الكلمات التي تصدر عن أصحاب الأحوال ، وبين أنها تشبه ما حكى عن الإعرابي الذي دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم « هل كنت تدعو لي بشيء قال: كنت أقول اللهم ما كنت معذبني به في الآخرة فاجعله في الدنيا . فقال: سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه . هلا قلت ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . يقول ابن تيمية عن الأعرابي « فهذا أيضاً حمله خوفه من عذاب النار ، ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا ، وكان مخطئاً في ذلك غالطاً ، والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً »[٢] .

ونسب إلى أبي سليمان الداراني أنه قال : « لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً » ويرجح ابن تيمية في بيانه لكلام الداراني أن الذي حكى ذلك عن الداراني حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: « الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار . وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان لا تدل على رضاه بذلك وهذه الكلمات تركها أحسن من قولها وأنها مستدركة كما استدركت دعوى سمنون المحب[٣] . وأن معنى الكلمة ومضمونها أن من سأل الله الجنة واستعاذ من النار لا يكون راضياً » .

---

(١) ابن تيمية : الفتاوى ، ١٠: ٦٩٢ .

(٢) ابن تيمية : الفتاوى ، ١٠: ٦٩٢ وما بعدها .

(٣) تكلم ابن تيمية عن سمنون المحب في المجلد العاشر ، ص٦٩٠ .

وأبو سليمان الداراني أجل من أن يقول مثل الكلام الذي نسب إليه . قال عنه ابن تيمية : « وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجل من أن يقول مثل هذا الكلام ، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم ، ومن أتبعهم للشريعة حتى أنه قال : إنه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة . فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام » ؟! وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً : « ليس لمن الهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور . بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري من اتبع المشايخ للشرع فكيف أبو سليمان »[1] .

ومن أمثلة العبارات التي عدها بعض العلماء شطحات قول القائل: « ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك » . وقول القائل : "فأين من يريد الله"[2] عندما سمع قوله تعالى : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ .

فالذي قال: "ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ..." فمراده أنه عبد الله طمعاً في النظر إليه يوم القيامة . وقد قال ما قاله ظناً منه أن السامع يفهم المراد ، فهو يريد أعلى نعيم في الجنة وهو النظر إلى وجه الله كما في صحيح مسلم عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه)) وهو الزيادة . ومن هذا الحديث يتبين زوال الاشتباه في قول القائل: "ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ..." .

وقد غلط بعض المشايخ لما سمع قوله تعالى : ﴿ فمنكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ قال: فأين من يريد الله . وقال آخر في قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ قال إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه . وقال هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر وقد يكون قصد القائل إنك لو لم تخلق ناراً أو جنة لكان يجب أن تعبد[3] .

---

(١) ابن تيمية ، ١٠: ٦٩٤ .

(٢) ينسب هذا القول لأبي بكر الشبلي ، وقد عد من شطحاته ، وقد تكلم ابن تيمية عن ذلك كلاماً جميلاً ، انظر (أبو بكر الشبلي ، حياته وآثاره للدكتور شوقي بشير) .

(٣) مجلد السلوك ، ص٦٣ .

ومن الحكايات المشهورة عن أبي يزيد البسطامي أنه رأى رب العزة في المنام . فقال له : كيف الطريق إليك ؟ فقال: اترك نفسك وتعال . قال أبو يزيد: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها . وهذه ليس من شطحات أبي يزيد ، وإنما هو كلام يبين العبادة في مخالفتك نفسك وهواك . قال تعالى ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيله ﴾ .

قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني : « إنما هو الله ونفسك ، وأنت المخاطب ، والنفس ضد الله وعدوته ، والأشياء كلها تابعة لله فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداوتها كنت خصماً له على نفسك[1] .

وحكى بعضهم حكاية عن رابعة العدوية مفادها أنها « أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح ، وإلى جانبها فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح . فلما أصبحت رابعة قالت له : يا هذا ! وصل الواصلون إلى ربهم وأنت مشتغل بحيض النساء أو نحوها » .

وهذه الحكاية تبين أن رابعة من الذين يؤثرون العبادة على طلب العلم . وقد يكون هذا المتعبد الذي يؤثر العبادة على طلب العلم جاهلاً بما يبطل كثيراً من عبادته : « فما المانع أن يحصل المشتغلين بالعلم ما تحصل للمشتغلين بالعبادة »[2] .

التقليد في الشطحات :

بين الهجويري في كتابه كشف المحجوب أن التقليد في الشطحات واختيارها وترديدها غير محمود وغير مطلوب ، وذلك لأن التقليد في المعنى غير محمود فكيف في الشطحات .

وقد أخطأت جماعة من الصوفية في تقليد أصحاب الشطحات ومن هؤلاء من قلد أبا العباس أحمد بن محمد الشقاني في شطحاته . ويرى الغزالي أن من الذين يرددون عبارات أصحاب الشطحات جماعة ليس من التصوف إلا الزي والعبارة . وقد حاول عدد من أدعياء حالة الجذب الصوفي الدخول من هذا الباب . يحكى الهجويري أنه كان ذات يوم مع شيخه أبي أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان ، وكان عنده رجل من أدعياء نيسابور ، وكان يقول في حديثه: إنه يفني حينما يبقى. فقال له السيد المظفر: كيف يتأتى الفناء على البقاء ، والفناء إشارة إلى العدم والبقاء إشارة إلى الوجود ، وكل واحد منهما ينفي الآخر أي أنه ضده ... »[3] .

---

(١) الفتاوى ، ١٠ : ٥١٨ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، ١٠: ٣٩٦ .

(٣) كشف المحجوب ، ص٣٨٥ .

المطلب الثالث: غلطات القائلين بالفناء عن شهود السوي :

أخطأت طوائف من الناس في فهم الفناء عن شهود السوي وفي فهم الفناء في توحيد الربوبية، ويمكن حصر هذه المسألة في النقاط التالية :

أ - خطأ من جعل الفناء عن شهود السوي غاية .

ب - خطأ من ظن أن التقليل من الطعام والشراب والزهد في الحلال مطلوب للوصل إلى الفناء .

ج - خطأ من ظن أن الواصل إلى الفناء في توحيد الربوبية يمكنه ترك الأمر الشرعي .

أ) خطأ من جعل الفناء عن شهود السوي غاية :

لقد أخطأ بعض السالكين بجعلهم لمقام الاصطلام غاية السلوك ونهاية طريق السالكين . فهذه الحالة التي تعترض طريق السالكين - الفناء عن شهود السوي - ليست هي الغاية « وليست هي حالاً لازمة لكل سالك ، ولا هي أيضاً غاية محمودة ، بل ثبوت العقل والفهم والعلم مع التوحيد باطناً وظاهراً كحال نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكمل من هذا وأتم »[١] .

وقد ترتب على جعل الفناء عن شهود السوي غاية أن بعضهم أصبح لا يفرق بين المأمور والمحظور والمحبوب والمكروه . يقول ابن تيمية : « وهذا غلط عظيم غلطوا فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهي وعبادة الله وحده وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم » . وهذا الغلط جعل بعض أصحاب الفناء عن شهود السوي : « يغيب ويفنى بهذا التوحيد الرباني عما هو مأمور به أيضاً ومطلوب منه وهو محبوب الحق ومرضيه من التوحيد الإلهي الذي هو عبادته وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله والأمر بما أمر به والنهي عما نهى عنه ، والحب فيه والبغض فيه »[٢] .

وقد بين ابن تيمية أن الذي يأخذ بتوحيد الربوبية ويعرض عن توحيد الألوهية يشبه القدرية المشركية الذين قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ . وقد ذهب إلى هذا طوائف من الإباحية والقائلين بإسقاط التكاليف الشرعية[٣] .

---

(١) توحيد الربوبية ، ص٣٦٩ .

(٢) توحيد الربوبية ، ص٤٥٧ .

(٣) نفس المرجع السابق .

ب) خطأ من مال إلى التقليل من الطعام والشراب والزهد في الحلال للوصول إلى الفناء :

أخطأت طوائف في ظنها أن الفناء الحادث بالتقليل أو الانقطاع عن الطعام والشراب هو المطلوب ، فتركت الطعام والشراب في معظم الأحيان وتوهموا أن الجسم إذا ضعف زالت بشريته ، وأصبح العبد موصوفاً بالصفات الإلهية .

وقد ذكر أبو عبدالرحمن السلمي في كتابه أصول الملامتية وغلطات الصوفية أن جماعة من أهل الشام كثرت مجاهداتهم وسهرهم مع جوعهم فاصطادهم الشيطان ، وأظهر على أيديهم أحوالاً شيطانية ولم يستطيعوا التمييز بينها وبين الكرامات لأنهم لم يعتمدوا على شيخ ذي علم ومعرفة بمكايد الشيطان[١] .

ج) خطأ من ظن أن ما حدث له من فناء عن شهود السوي هو اتحاد أو حلول :

ذكر ابن تيمية في فتاويه أن مسألة الفناء عن شهود السوي قد زل فيها أقوام من الذين حدث لهم ذلك ، فقد ظن بعض الذين حدث لهم ذلك أن ذلك هو الاتحاد مع الله أو الحلول : « وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما وهذا غلط ، فإن الخالق لا يتحد بشيء أصلاً ، بل لا يتحد شيء بشيء إلا إذا استحالا وفسدا ، وحصل من اتحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا كما إذا اتحد الماء واللبن والماء والخمر ونحو ذلك »[٢] .

د) ظن بعض النساك أن الفناء يعني أن تفني إرادتك في إرادة الله :

ظن بعض النساك أن الفناء يعني أن تفني إرادتك في إرادة الله ، وأن لا تبقى لك إرادة ، وهذا ممتنع فالعبد لا يمكن أن يتحرك إلا عن حب وبغض وإرادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أصدق الأسماء حارث وهمام) فكل إنسان له حرث وهو العمل وله هم وهو أصل الإرادة[٣] .

هـ) خطأ من قال بسقوط التكاليف الشرعية عن الواصل إلى الفناء في توحيد الربوبية :

أخطأت طوائف من الناس في فهم الفناء في توحيد الربوبية ، وظنت أن السلوك إذا انتهى إلى مقام الفناء في توحيد الربوبية فلا يحتاج صاحبه للقيام بالأمر الشرعي وتسقط عنه التكاليف الشرعية . وقد بين المستقيمون من السالكين الأوائل والمتأخرين أن هذه الأقوال والطرائق فاسدة. فالسالك مهما وصل فلا يخرج من الأمر والنهي الشرعيين[٤] .

---

(١) أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، ص١٩٠ .

(٢) ابن تيمية ، مجلد علم السلوك ، ص٢٢٠ .

(٣) مجلد علم السلوك ، ص٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص٥١٦ ، ٥١٧ . وقد تكلم الغزالي عن القول بسقوط التكاليف في كتابه إحياء علوم الدين .

المبحث الثالث

رأي ابن تيمية في الفناء عن شهود السوي وما يحدث فيه من شطحات

قال ابن تيمية عن أصحاب الفناء عن شهود السوي - الفناء الناقص القاصر - : « فهؤلاء إذا لم يتركوا واجباً لم يضرهم ، وإن تركوا مستحباً مشتغلين عنه بما هو أفضل منه لم ينتقلوا من مقامهم ، وإن اشتغلوا عما تركوه من المستحب بما ليس مثله فانتقالهم إلى ذلك الأفضل أفضل إذا أمكن ، وإلا ففعل المقدور عليه من الصالحات خير من الاهتمام بما يعجز عنه ويصد عن غيره ، وإن تركوا واجباً أو فعلوا محرماً مع إمكان العلم والقدرة فهم مؤاخذون على ذلك وإن كان مع سقوط محظور أو سكر بسبب غير محظور أو عجز لا تفريط فيه ، فلاذم عليهم ، وإن كان مع التكليف فسبب الذم قائم ، ثم لهم حكم الله فيهم كما لسائر المؤمنين من كون الذنب صغيراً أو كبيراً مقروناً بحسنات ما حية أو غير ذلك من أحكام السيئات ما لم يخرجوا إلى القسم الثالث وهو فناء الكافرين »[1] .

وقال ابن تيمية في مجلد توحيد الربوبية عن الذين خرجوا إلى القسم الثالث وهو فناء الكافرين : « وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد ، فإن الاتحاد فيه حق وباطل ، لكن لما ورد عليه ما غيب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه ، ولم يكن ذلك بذنب منه كان معذوراً غير معاقب عليه ما دام غير عاقل ، فإن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ، وإن كان خطئاً في ذلك كان داخلاً في قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ وقال : ﴿ ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ﴾ . وهذا كما يحكي أن رجلين كان أحدهما يجب الآخر فوقع المحبوب في اليم ، فألقى الآخر نفسه خلفه . فقال: أنا وقعت فما الذي أوقعك ؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني. فهذه الحال تعتري كثيراً من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق ، وفي غير جانبه ، وإن كان فيها نقص وخطأ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه ، وبمشهوده عن شهوده ، وبموجوده عن وجوده ، فلا يشعر حنيئذ بالتمييز ولا بوجوده فقد يقول في هذه الحال أن الحق أو سبحاني أو ما في الجبة إلا الله ونحو ذلك ، وهو سكران بوجود المحبة الذي هو لذة وسرور بلا تمييز وكلام السكران يطوي لا ويروي إذا لم يكن بسبب محظور . فأما إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً »[2] .

ويقول ابن تيمية في فتاويه أيضاً : « لكن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حالة الفناء القاصر سكر وغيبة عن السوي ، والسكر وجد بلا تمييز . فقد يقول في تلك الحال : سبحاني . أو ما

---

(١) ابن تيمية ، الاستقامة ، ٢: ١٤٣ .

(٢) الفتاوى ، توحيد الربوبية ، ص٣٦٩ ، ٣٧٩ .

في الجبة إلا الله . أو نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر على أبي يزيد البسطامي أو غيره من الأصحاء . وكلمات السكران تطوي ولا تروي ولا تؤدي إذا لم يكن سكره بسبب محظور من عبادة أو من وجه منهي عنه . فأما إذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً ، لا فرق في ذلك بين السكر الجسماني والروحاني ، فسكر الأجسام بالطعام والشراب ، وسكر النفوس بالصور ، وسكر الأرواح بالأصوات »[1] . وقال ابن تيمية: « وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ويحرك ساكنه ونحو ذلك وهذا لا ملام عليه فيه . وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور ، لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم كالمغمي عليه أو المجنون أو نحوهما »[2] .

وقد يحدث السكر بتناول الخمر والحشيش فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين ، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر[3] .

وأيضاً من الأسباب المحظورة السكر الذي يحدث بسبب محبة الصور كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سـكران

« وهذا مذموم لأنه سبب محظور ، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر ، وهذا أيضاً مذموم »[4] .

وقد قال ابن تيمية في حكمه على الواصلين إلى الفناء عن شهود السوي بأنه لا جناح عليهم أحياناً فيما يقولون ، ولا يجوز الاقتداء بهم ، ولا حمل كلامهم في حال سكرهم على الصحة . "بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة". « وقد قال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا وأحوالاً فسلب عقولهم وترك أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب »[5] . وقال ابن تيمية في مجلة علم السلوك :

((... فالأحوال التي ترد عن العباد وعلى المعرفة والزهاد ونحوهم مما توجب زوال عقل أحدهم وعلمهم ، حتى تجعله كالمجنون والموله والسكران والنائم ، أو زوال قدرته حتى تجعله كالعاجز ، أو تجعله كالمضطر الذي يصدر عنه القول والفعل بغير إرادته واختياره ، فإن زوال العقل والقدرة قد يوجب عجزه عن أداء واجبات ، وقد يوجب وقوعهم في محرمات هؤلاء يقال فيهم : إن

---

(١) مجلد توحيد الربوبية ، ص٤٦١ .

(٢) مجلد التصوف ، ص١١ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) مجلد التصوف ، ص١١ .

(٥) مجلد علم السلوك ، ص٣٤٠ .

كان زوال ذلك بسبب غير محرم فلا حرج عليهم فيما يتركون من الواجبات ، ويفعلونه من المحرمات ، ولا يجوز أيضاً اتباعهم فيما هو خارج عن الشريعة من أقوالهم وأفعالهم ، ولا تذمهم على ذلك ، بل قد يمدحون على ما وافقوا فيه الشريعة من الأقوال والأعمال ، ويرفع عنهم اللوم فيما عذرهم فيه الشارع كما يقال في المجتهد المخطئ سواء ، بل المجتهد المخطئ نوع من هذا الجنس حيث سقط عنه اللوم لعجزه عن العلم[1] ؟ .

(١) ابن تيمية ، علم السلوك ، ص٣٤٨ ، ٣٤٩ .

المبحث الرابع

رأي ابن تيمية في الأقوال التي ظن بعض الناس أنها شطحات وهي ليست كذلك

قد يسمع المسلم بعض العبارات من الشيوخ ، ويظن أنها شطحات وهي ليست كذلك ، قال ابن تيمية : « والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم ما أرى غير الله ، أو لا أنظر إلى غير الله ، ونحو ذلك. فمرادهم بذلك ما أرى رباً غيره ، ولا خالق غيره ولا مدبر غيره ، ولا إله غيره ، ولا أنظر إلى غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب . فمن أحب شيئاً أو رجاه أو خافه التفت إليه . وإذا لم يكن في القلب محبة له ولا رجاء له ولا خوف منه ولا بغض له ولا غير ذلك من تعلق القلب لم يقصد القلب أن يلتفت إليه ، ولا أن ينظر إليه ، ولا أن يراه ، وإن رآه اتفاقاً رؤية مجردة كان كما لو رأى حائطاً ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به »[1] .

رأي ابن تيمية في الشطحات التي تنسب إلى الشيوخ :

يقول ابن تيمية عن الأقوال التي يشتم منها رائحة الرعونة والدعوى والتي تنسب إلى بعض الشيوخ: « وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية الذين أضلهم الشيطان وألحقهم في الطائفة النصرانية . والذي يصح منه عن الشيوخ له معان صحيحة ، ومنه ما صدر عن بعضهم في حال استيلاء حال عليه ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول ، ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول ويكفر من يقوله . وما يخرج من القول في حالة غيبة عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة ، ولا حكم له بل القلم مرفوع عن النائم والمجنون والمغمى عليه والسكران الذي سكر بغير محرم مثل ما سيقي الخمر وهو لا يعرفها ...»[2] .

---

(١) علم السلوك ، ص٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ابن تيمية ، التصوف ، ص٧٥ .

المبحث الخامس

الفناء عن وجود السوي

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا النوع من الفناء هو فناء الملاحدة والمنافقين وأهل وحدة الوجود . قال ابن تيمية في فتاويه : (الثالث) فناء عن وجود السوي : بمعنى أن يرى أن الله هو الوجود ، وأنه لا وجود لسواه لا به ولا بغيره ، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة كالبلياني والتلمساني والقونوي[١] ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات ، وأنه لا وجود لغيره ، لا بمعنى أن قيام الأشياء به ووجودها به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلال الله باطل . وكما قيل في قوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فإنهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح ، لكنهم يرون أنه هو عين الموجودات فهذا كفر وضلال ....»[٢] .

(١) اختلف جماعة من الصوفية مع ابن تيمية في هذه المسألة ودافعوا عن جميع أنواع الفناء ودافعوا عن البلياني والتلمساني والقونوي وغيرهم .

(٢) ابن تيمية : مجلد علم السلوك ، ص٣٤٢ ، ص٣٩٣ .

الفصل الرابع
الفناء عند السلف والأباضية وعدد من أساتذة الفلسفة الإسلامية

المبحث الأول: ***موقف شيوخ السلف من الفناء .***

المطلب الأول : **الفناء عن ابن تيمية .**

المطلب الثاني : **أنواع الفناء عند ابن القيم .**

المطلب الثالث : **الفناء عند بعض أنصار السنة المعاصرين .**

المبحث الثاني: ***الفناء عند الأباضية والشيخ الفنصوري الأندونيسي .***

المطلب الأول : **الفناء عند الأباضية أو كيمياء السعادة الأبدية .**

المطلب الثاني : **الفناء عن الشيخ الفنصوري .**

المبحث الثالث: ***الفناء عند أساتذة الفلسفة الإسلامية .***

المطلب الأول : **الفناء عن الدكتور عبدالرحمن بدوي .**

المطلب الثاني : **الفناء عند الدكتور قاسم غنى .**

المطلب الثالث : **الفناء في كتابات الدكتور عرفان عبدالحميد .**

المبحث الأول
موقف شيوخ السلف من الفناء

لقد تكلم شيوخ السلف عن الفناء ، ولم يطلقوا عليه الأحكام العامة ، بل عرّفوا الفناء ، وذكروا أنواعه ، ومن هؤلاء الشيوخ ابن تيمية في فتاويه ، وابن قيم الجوزية الذي شرح وتناول الفناء في شرحه لمنازل السائرين للهروي ، وسأحصر حديثي في هذين الشيخين ، لأنهما يمثلان التيار السلفي ، وقد استعان بفهمهما أنصار السنة المعاصرين في مسائل العلوم الإسلامية الأخرى ، وذلك حتى يتضح لنا هل أطلق الشيخان الأحكام العامة كما أطلقها المتأخرون ، أم تناولوا هذه المسألة بتفصيل وبينوا ما فيها من حق وباطل هذا ما سيتضح لنا - إن شاء الله - بعد عرض موقف الشيخين والشيوخ المعاصرين من الفناء .

المطلب الأول : الفناء عند ابن تيمية[١] :

جعل ابن تيمية الفناء ثلاثة أنواع :

د- النوع الأول : الفناء عن عبادة السوي .

هـ- النوع الثاني : الفناء عن شهود السوي .

و- النوع الثالث : الفناء عن وجود السوي .

وتكلم عن هذه الأنواع في فتاويه في أكثر من موضع ، وفي هذا المبحث أنقل ما قاله ابن تيمية بنصه وأعلق عليه في الهامش .

قال ابن تيمية: « .... مثال ذلك اسم "الفناء" فإن الفناء ثلاثة أنواع : نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء ، ونوع للقاصرين من الأولياء والصالحين ، ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين » .

فأما الأول فهو الفناء عن إرادة ما سوى الله ، بحيث لا يحب إلا الله ، ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يطلب غيره ، وهو المعنى الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد حيث قال: أريد أن لا أريد إلا ما يريد[٢] . أي المراد المحبوب المرضي ، وهو المراد بالإرادة الدينية ، وكمال العبد أن لا يريد

---

(١) ابن تيمية هو الإمام تقي الدين ، أبو العباس ، أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبدالحليم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبدالسلام ، الحراني ، ثم الدمشقي ، ولد بحران في سنة إحدى وستين وستمائة ، واختاره الله إلى جواره في العشرين من شوال عام ٧٢٨هـ . انظر ترجمته في : نقد ابن تيمية للتصوف للدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، ط. ١ ، دار الفكر ، الخرطوم ١٩٨٧م .

(٢) انظر كتاب (أبو يزيد البسطامي ، حياته وآثاره) للدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، قال ابن تيمية في فتاويه – في موضع آخر – : ((وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء في المحبة أن يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ، ويغيب بمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن=

ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ؛ ولا يحب إلا ما يحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين . وهذا معنى قولهم في قوله ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ قالوا : هو السليم مما سوى الله ، أو مما سوى عبادة الله ، أو مما سوى إرادة الله ، أو مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد ، وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره ، وباطن الدين وظاهره .

وأما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوي ، وهذا يحصل لكثير من السالكين ، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد ، وترى غير ما تقصد ، لا يخط بقلوبهم غير الله ، بل لا يشعرون ، كما قيل في قوله : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ قالوا : فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى . وهذا كثير لمن فقمه أمر من الأمور إما حب وإما خوف وإما رجاء يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه ، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره فإذا قوي على صاحب الفناء هذا فإنه يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمشهوده عن شهوده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفته ، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه ، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن أن يدركها أو يشاهدها . وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه كما يذكر

= معرفته ، وبموجوده عن وجوده ، حتى لا يشهد إلا محبوبه ، فيظن في زوال تمييزه ونقص عقله وسكره أنه هو محبوبه ، كما قيل : إن محبوباً وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فأنت ما الذي أوقعك ؟ فقال : غبت بك عني فظننت أنك أني . فلا ريب أن هذا خطأ وضلال . لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً في زوال عقله ، فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله بغير سبب محظور ، كما قيل في عقلاء المجانين : إنهم قوم أتاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب . وأم إذا كان السبب الذي به زوال العقل محضوراً لم يكن السكران معذوراً ، وإن كان لا يحكم بكفره من أصح القولين ، كما لا يقع طلاقه في أصح القولين، وإن كـــان النزاع في الحكم مشهوراً ، وقد بسطنا الكلام في هذا ، ... وبكل حال فالفناء الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص ، وإن كان صاحبه غير مكلف ، ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل هذه الأمة ، ولا عن نبينا محمد صلى الله علـــيه وسلم وهو أفضل الرسل ، وإن كان لهؤلاء في ضعف موسى نوع تعلق ، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم ، وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته ، فمن المعلوم أن مـــن أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى: **﴿ إن الله يحب الذين يقـــاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾** والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل ، بل ذلك يعزيه بملازمة المحبة ، كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك ، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود ، وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهـــاد أعدائـــه ، فإن الملام على ذلك كثير . وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق ، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام ، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل . وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك . وبين «الملامية» الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك ..)) .
انظر الفتاوى ، ١٠ : ٥٩-٦١ .

أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فيما أوقعك خلفي ؟ قال : غبت بك عن فظننت أنك أني[١] . وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد ، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما ، وهذا غلط ، فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلاً ، بل لا يتحد شيء بشيء إلا إذا استحالا وفسدا وحصل من اتخاذهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن ، والماء والخمر، ونحو ذلك ، ولكن يتحد المراد والمحبوب والمكروه ويتفقان في نوع الإرادة والكراهة ، فيجب هذا ما يجب هذا ، ويبغض هذا ما يبغض هذا ، ويرضى ما يرضى ، ويسخط ما يسخط ، ويكره ما يكره ، ويوالى من يوالى ، ويعادي من يعادي ، وهذا الفناء كله فيه نقص . وأكابر الأولياء كأبي بكر و عمر و السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار لم يقعوا في هذا الفناء ، فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء ، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة ، وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان ، فإن الصحبة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت من الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم ، أو يحصل لهم غشى أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون . وإنما كانت مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة ، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن ، ومنهم من يموت كأبي جمير الضرير وزرارة بن أوفى قاضي البصرة .

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه ، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد[٢] وأبي الحسين النوري[٣] وأبي بكر الشبلي[٤] وأمثالهم بخلاف أبي سليمان الداراني[٥] ومعروف الكرخي[٦] والفضيل بن عياض[٧] ، بل بخلاف الجنيد[١] وأمثالهم ممن كانت عقولهم

---

(١) الفتاوى ، ١٠ : ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) أبـــو يزيد ، طيفور بن عيسى ، البسطامي ، إليه تنسب الطريقة الطيفورية ، وقد كتب عنه الهجويري في كشف المحجوب وكتب عنه الدكتور شوقي بشير عبدالمجيد كتاباً تحت عنوان (أبو يزيد البسطامي ، حياته وآثاره) طبع دار الألباب ، سوريا ٢٠٠١ .

(٣) أبو الحسين النوري ، من أصحاب الشطحات ، وكتب عنه الهجويري في كشف المحجوب وكتب عن طريقته النورية .

(٤) أبو بكر الشبلي ، إمام الأئمة الذين أثنى عليهم ابن تيمية . انظر كتاب (أبو بكر الشبلي ، حياته وآثاره وفكره) للدكتور شوقي بشير ، ط. الخرطوم ٢٠٠٠م .

(٥) أبو سليمان الداراني ، إمام من أئمة الهدى . تحدث عنه ابن تيمية في باب الرضا وبين أنه من أتبع المشايخ للشرع وأن صاحبه أحمد بن أبي الحواري من أتبع المشايخ للشرع أيضاً .

(٦) معروف الكرخي ، إمام من أئمة الصوفية المعروفين ، أنظر ترجمته في حلية الأولياء وكتب التراجم الأخرى .

(٧) الفضيل بين عياض ، من رجال الدرجة الأولى عند ابن تيمية الرجال الذين لا يأتيهم الخطأ لا من جهة الحفظ ولا من جهة القصد، وترجم له ولابنه ابن الجوزي في صفة الصفوة .

وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه ، بل الكمل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله ، مدبره بمشيئة ، بل مستجيبة له ، قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما في قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له . وهذه الحقيقة التي دعا إليها القرآن ، وقام بها أهل تحقيق الإيمان ، والكمل من أهل العرفان ، ونبينا صلى الله عليه وسلم إمام هؤلاء وأكملهم ؛ ولهذا لما عرج به إلى السموات ، وعاين ما هنالك من الآيات وأوحى إليه ما أوحى من أنواع المناجاة أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله ، ولا ظهر عليه ذلك ، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي - صلى الله عليهم وسلم أجمعين -[٢] .

وأما النوع الثالث مما قد يسمى فناء : فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، فلا فرق بين الرب والعبد ، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد[٣] .

والمشايخ المستقيمون إذا قال أحدهم : ما أرى غير الله ، أو لا أنظر إلى غير الله ، ونحو ذلك ، فمرادهم بذلك ما أرى رباً غيره ، ولا خالقاً غيره ، ولا مدبراً غيره ، ولا إلهاً غيره ، ولا أنظر إلى غيره ، محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له ، فإن العين تنظر إلى ما يتعلق به القلب ، فمن أحب شيئاً أو رجاه أو خافه التفت إليه ، وإذا لم يكن في القلب محبة له ولا رجاء له ولا خوف منه ولا بغض له ولا غير ذلك من تعلق القلب له لم يقصد القلب أن يلتفت إليه ، ولا أن ينظر إليه ، ولا أن يراه ، وإن رآه اتفاقاً رؤية مجردة كان كما لو رأى حائطاً ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به .

والمشايخ الصالحون - رضي الله عنهم - يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلى غير الله ، ولا ناظراً إلى ما سواه ، لا حباً له ، ولا خوفاً منه ، ولا رجاء له ، بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات خالياً منها لا ينظر إلا بنور الله ، فبالحق يسمع ، وبالحق يبصر ، وبالحق يبطش ، وبالحق يمشي ، فيحب منها ما يحبه الله ، ويبغض منها ما يبغضه الله ، ويوالي منها ما والاه الله ، ويحارب منها ما عاداه الله ، ويخاف الله فيها ، ولا يخافها في الله ، ويرجو

---

(١) الجنيد بن محمد ، سيد الطائفة الصوفية ، وإليه تنسب الجنيدية التي كتب عنها الهجويري في كشف المحجوب . انظر في هذا الكتاب المبحث الخاص بالفناء عند الجنيد .

(٢) الفتاوى ، ١٠ : ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٣) الحلول : حلول الشيء في الشيء كحلول الماء في الإناء ويسمى الحلول الجواري ، أو كحلول ماء الورد في الورد ويسمى الحلول السرياني ، انظر لمعرفة المزيد كتاب التعريفات للجرجاني ، وانظر موسوعة الثقافة الإسلامية للدكتور عون الشريف .

الله فيها ولا يرجوها في الله ، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين ، وبحقيقتهم وتوحيدهم .

وأما النوع الثالث وهو الفناء في الموجود : فهو تحقيق آل فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم كالقرامطة[1] وأمثالهم . وهذا النوع الذي عليه اتباع الأنبياء هو الفناء المحمود الذي يكون صاحبه ممن أثنى الله عليهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين . وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول أن الذي أراه بعيني من المخلوقات هو رب الأرض والسموات ، فإن هذه لا يقوله إلا من هو في غاية الضلال والفساد . إما فساد العقل وإما فساد الاعتقاد ، فهو متردد بين الجنوب والإلحاد .

وكل المشايخ الذي يقتدى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث ، وتمييز الخالق عن المخلوق . وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا . وهم قد تكلموا على ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات ، وأن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات فيظنه خالق الأرض والسموات ، لعدم التمييز والفرقان في قلبه ، بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التي في السماء . وهم قد يتكلمون في "الفرق والجمع" ويدخل في ذلك من العبارات الملفتة نظير ما دخل في الفناء ، فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقاً بها : إما محبة وإما خوفاً وإما رجاء ، فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانته بربه . وهو في هذا الحال قد لا يسمح قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق ، فقد يكون مجتمعاً على الحق ، معرضاً عن الخلق نظراً وقصداً ، وهو نظير النوع الثاني من الفناء .... »[2] .

---

(١) القرامطة : أتباع حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط . قامت دعوتهم على أساس الشيوعية والإيمان بقدم العالم ، وانتظموا التنظيم السري العسكري ، ثم العلني أيام الدولة العباسية ، وهم من الفرق الباطنية التي حاربتها الدولة الإسلامية ، انظر لمعرفة المزيد : تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزي ، مبحث تلبيس إبليس على الباطنية ومبحث أسماء الباطنية . وانظر كتاب ابن الجوزي عنهم وكتاب أبي منصور الماتريدي عنهم أيضاً ، وكتب التاريخ الإسلامي .

(٢) الفتاوى ، ١٠ : ٢١٨ - ٢٢٤ .

(فصل) عن الفناء[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : الفناء الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور (أحدها) : فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته ، وما يتبع ذلك فهذا حق صحيح ، وهو محض التوحيد والإخلاص ، وهو في الحقيقة عبادة القلب ، وتوكله ، واستعانته ، وتألهه ، وإنابته ، وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له ، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال ، وليس لأحد خروج عن هذا .

وهذا هو "القلب السليم" الذي قال الله فيه ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وهو سلامة القلب من الاعتقادات الفاسدة ، والإرادات الفاسدة ، وما يتبع ذلك . وهذا الفناء لا ينافيه البقاء ، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه ، وإن كان شاعراً بالله وبالسوي ، وترجمته قول : ((لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن)) وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره[2] .

(الأمر الثاني) : فناء القلب عن شهود ما سوى الرب ، فذاك فناء في الإرادة ، وهذا فناء عن الشهادة ، وذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه ، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه ، فهذا الفناء فيه نقص ؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه ، وهو شهود الرب مدبراً العبادة ، آمراً بشرائعه ، أكمل من شهود وجوده ، أو صفة من صفاته ، أو اسم من أسمائه . والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك . ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن ينقصهم شهود للحق مجملاً عن شهوده مفصلاً ، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة ، كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق الموت والغشي والصياح والاضطراب ، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ما هي عليه ، وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة ، حتى اختلفوا في إمكان ذلك ، وكثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر ، وإذا عورض بالنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ادعى الاختصاص ، أو أعرض عن الجواب ، أو تحير في الأمر . وسبب ذلك أنه قاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه ، ولهذا يقول بعض هؤلاء : إنه لا يمكن حين تجلي الحق سماع كلامه ويحمى عن ابن عربي[3] أنه لما ذكر له عن شهاب الدين

---

(١) انظر ، الفتاوى ، المجلد العاشر ، ص٣٣٧ – ٣٤٣ .

(٢) هذا النوع من الفناء هو الفناء عن عبادة السوي ، وهو الفناء الكامل ، المحمدي ، النبوي ، الديني ، الشرعي ، المحمود ، المطلوب ، والذي يجتمع هو والبقاء .

(٣) ابن عربي : محيي الدين بن عربي ، المتوفى سنة ٦٣٨هـ صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم الذي حققه الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي وغيرهما من الكتب . اختلف الناس في أمره فمنهم من نسبه إلى القول بوحدة الوجود ، ومنهم من عده من أئمة –

السهروري أنه جوز اجتماع الأمرين . قال : نحن نقول له عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات ، والصواب مع شهاب الدين ، فإنه كان صحيح الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد . وإنما بنى ابن عربي على أصله الكفري في أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات ، ومعلوم أن شهود هذا لا يقع فيه خطاب ، وإنما الخطاب في مقام العقل . وفي هذا الفناء قد يقول : "أنا الحق" ، أو "سبحاني" ، أو "ما في الجبة إلا الله" ، إذا فنى بمشهوده عن شهوده ، وبموجوده عن وجوده ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه كما يحكون أن رجلاً كان مستغرقاً في محبة آخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه ، فقال : ما الذي أوقعك خلفي ؟ فقال : غبت بك عني فظننت أنك أني . وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان ، كما يحصل بسكر الخمر ، وسكر عشيق الصور ، وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء ، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى ، وهي شطحات بعض المشايخ : كقول بعضهم : انصب خيمتي على جهنم ، ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة الشرع ، وقد يكون صاحبها غير مأثوم ، وإن لم يكن فيشبه هذا الباب أمر خفراء العدو ومن يعين كافراً أو ظالماً بحال ويزعم أنه مغلوب عليه . ويحكم على هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمراً محرماً . وهذا كما قلنا في عقلاء المجانين والمولهين ، الذين صار ذلك لهم مقاماً دائماً كما أنه يعرض لهؤلاء في بعض الأوقات ، كما قال بعض العلماء ذلك في من زال عقله حتى ترك شيئاً من الواجبات إن كان زواله بسبب غير محرم مثل الإغماء بالمرض أو اسقى مكرهاً شيئاً يزيل عقله فلا إثم عليه ، وإن زال بشرب الخمر ونحو ذلك من الأحوال المحرمة أثم بترك الواجب ، وكذلك الأمر في فعل المحرم .

وكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وفعالهم على الصحة ، بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة ، وقال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وترك أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب . ولهذا اتفق العارفون على أن حال البقاء أفضل من ذلك ، وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق كما قال الله تعالى فيما يروى عنه رسوله : ((ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني

- أهـل التصـوف والإشارة ، ومنهم من توقف في الحكم عليه وقال: ﴿ **تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون** ﴾ - البقرة ، الآية ١٣٤ - .

لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي)) وفي رواية: ((وبي ينطق وبي يعقل)) فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه ، وشهد الحق على ما هو عليه .

وعامة ما تجده في كتب أصحاء الصوفية مثل شيخ الإسلام[١] ومن قبله من الفناء هو هذا ، مع أنه قد يغلط بعضهم في بعض أحكامه كما تكلمت عليه في غير هذا الموضع . وفي الجملة فهذا الفناء صحيح وهو في عيسوية المحمدية ، وهو شبيه بالصعق والصياح الذي حدث في التابعين ، ولهذا يقع كثير من هؤلاء في نوع ضلال ، لأن الفناء عن شهود الحقائق مرجعه إلى عدم العلم والشهود ، وهو وصف نقص لا وصف كمال . وإنما يمدح من جهة عدم إرادة ما سواه ، لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلى إرادته والفتنة به ، ولهذا غالب عباد "العيسوية" في عدم العلم بالسوي ، وإرادته والفتنة به ، ويوصفون بسلامة القلوب . وغالب علماء "الموسوية" في العلم بالسوي وإرادته والفتنة به ، ويوصفون بالعلم ؛ لكن الأولون موصوفون بالجهل والعدل ، والآخرون موصوفون بالظلم وكلاهما صحيح . فأما العلم بالحق والخلق ، وإرادة الله وحده لا شريك له فهذا نعت المحمدية الكاملون في العلم والإرادة ، سلامة القلب المحمودة . هي سلامة[٢] . إذ الجهل لا يكون بنفسه صفة مدح ، إلا أنه قد يمدح لسلامته به عن الشرور فإن أكثر النفوس إذا عرفت الشر الذي تهواه اتبعته أو فزعت منه أو فتنها .

(الثالث) : فناء عن وجود السوي : بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود ، وأنه لا وجود لسواه ، لا به ولا بغيره . وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني[٣] والتلمساني[٤]

---

(١) يعني الهروي صاحب المنازل – على ما أعتقد – .

(٢) خرم في الأصل الذي اعتمد عليه ناقل كتاب الفتاوى .

(٣) يرى ابن تيمية أن البلياني من أكفر الاتحادية .

فمن شعره :	في كل شيء له آيـــــــــــــة	تدل على أنه عينـــــــــــــه
وأيضاً :	وما أنت غير الكون بل أن عينـــه	ويفهم هذا السر من هو ذائقه
ومن شعره :	وتلتذ إن مرت على جسدي يدي	لأني في التحقيق لست سواكم
ومن شعره :	ما الأمر إلا نسق واحـــــــد	ما فيه من حمـــــــد ولا زم
	وإنما العادة خصصـــــــــــت	والطبع والشارع في الحكـــم
وأيضاً :	فعين ما أنت تدعوني إليـــــــه	إذا حققته تره المنهي يا جاري

انظر ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل، ج١ ، ص٦٧ . وانظر نقد ابن تيمية للتصوف للدكتور شوقي ، فصل الحلول والاتحاد .

(٤) التلمساني : هو عفيف الدين ، سليمان بن علي بن عبدالله بن علي . توفي سنة تسعين وستمائة وولد سنة ٦١٦هـ وترجم له ابن كثير وذكر في ترجمته أنه نسب إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد .
انظر ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ : ٣٢٦ .

والقونوي[١] ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات ، وأنه لا وجو لغيره ، لا بمعنى أن قيام الأشياء ووجودها به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اصدق كلمة قالها الشاعر لبيد : (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) وكما قيل في قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فإنهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح ، لكنهم يريدون أنه عين الموجودات ، فهذا كفر وضلال ربما تمسك أصحابه بكلمات متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ ، كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تروى عن المسيح ويرجعون إلى وجد فاسد أو قياس فاسد فتدبر هذا التقسيم فإنه بيان الصراط المستقيم[٢]))[٣] .

المطلب الثاني : أنواع الفناء عند ابن القيم :

ذكر ابن القيم في كتابه مدارج السالكين أن الفناء ثلاثة أنواع ، الفناء عن وجود السوي والفناء عن شهود السوي ، والفناء عن إرادة السوى .

فأما الفناء عن وجود السوى فقد جعله ابن القيم فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود وأنه ما ثم غير « وأن غاية العارفين والسالكين الفناء في الوحدة المطلقة وفي التكثر والتعدد عن الوجود بكل اعتبار ، فلا يشهد غيراً أصلاً بل يشهد وجود العبد عين وجود الرب ، بل ليس عندهم في الحقيقة رب وعبد » فالخلق هو الحق لا اختلاف إلا المقدار . وأما الفناء عن شهود السوى : « فهو الفناء الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتأخرين ويعدونه غاية » ، وهو الذي بنى عليه أبو إسماعيل الأنصاري الهروي كتابه. وليس مرادهم الفناء عن وجود السوى[٤]. «بل فناؤه عن شهودهم وحسهم. فحقيقته غيبية أحدهم عن سوى مشهوده بل غيبته أيضاً عن شهوده ونفسه ، لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكره وبموجوده عن وجوده وبمحبوبه عن حبه وبمشهوده عن شهوده » .

فيحمد منه « فناؤه عن حب ما سوى الله »[٥] ، « وأما عدم الشعور والعلم بحيث لا يفرق صاحبه بين نفسه وغيره ولا بين الرب والعبد - مع اعتقاده الفرق - . بل لا يرى السوى ولا الغير

---

(١) الصدر القونوي ، الرومي ، صدر الدين ، صوفي ، من تلاميذ ابن عربي . تزوج ابن عربي أمه ورباه . وكان شافعي المذهب . ولد بقونية وتوفي بها سنة ٦٧٣ وله عدد من المؤلفات ذكرها الزركلي في كتابه الأعلام .
انظر : الأعلام ، ٦ : ٢٥٤ .

(٢) نتمنى أن يتدبر الذين يطلقون الأحكام العامة على الفناء هذا التقسيم الذي بينه شيخ الإسلام ابن تيمية ، فإنه بيان الصراط المستقيم.

(٣) الفتاوى ، ١٠ : ٣٣٧ - ٣٤٣ .

(٤) هو الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الشهير بابن قيم الجوزية أو ابن القيم ولد في سنة إحدى وتسعين وستمائة وتوفي في يوم الخميس الثالث عشر من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة هجرية . له تصانيف كثيرة معروفة .

(٥) مدارج السالكين ، ١ : ١٥٦ .

فهذا ليس بمحمود ولا هو وصف كمال ولا هو مما يرغب فيه ويؤمر به بل غاية صاحبه أن يكون معذوراً لعجزه .

ويعذر السالك الواصل إلى حال الفناء عن شهود السوى إذا ورد عليه ذلك بلا استدعاء « كما يعذر النائم والمغمى عليه والمجنون والسكران الذي لا يذم على سكره »[١] .

وأما الدرجة الثالثة من درجات الفناء فهي الفناء عن إرادة السوى وهو فناء خواص الأولياء والمقربين ومن تحقيق هذا الفناء « أن لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا فيه ، ولا يوالي إلا فيه ، ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعطي إلا له ، ولا يمنع إلا له ، ولا يرجو إلا إياه ولا يستعين إلا به فيكون دينه كله ظاهراً وباطناً لله . ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فلا يواد من حاد الله ولو كان أقرب الخلق إليه » .

وحقيقة هذا النوع من الفناء المحمود هو فناؤه عن هوى نفسه وحقوقها وبمراقي ربه وحقوقه « والجامع لهذا كله تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علماً ومعرفة وعملاً وحالاً وقصداً »[٢] .

وقد أشار ابن القيم إلى الفناء الديني الشرعي في حديثه عن الهجرة الحقيقة في رسالته التبوكية فقد بين « أن الهجرة الحقيقية هي هجرة الإنسان بقلبه إلى الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وهجرة الإنسان بقلبه تضمن من وإلى "فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته" ومن عبودية غيره إلى عبوديته ، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له وهذا بعينه معنى الفرار إليه »[٣] .

المطلب الثالث : الفناء عن بعض أنصار السنة المعاصرين :

تكلم عن الفناء عدد من أنصار السنة المعاصرين ، وأطلقوا عليه الأحكام العامة ، ومن هؤلاء الذين أطلقوا الأحكام العامة عبدالرحمن الوكيل ومحمد حامد الفقي والدكتور محمد جميل غازي وسميح عاطف الزين وغيرهم .

---

(١) مدارج السالكين ، ١ : ١٥٧ .

(٢) مدارج السالكين ، ١ : ١٦٧ .

(٣) ابن القيم : الرسالة التبوكية ، ص١٤، ١٥ .

الفناء عند محمد حامد الفقي[١] :

خالف محمد حامد الفقي في فهمه لمسألة الفناء أئمة السلف الذين تحدثوا عن ذلك من أمثال ابن تيمية وابن القيم ، وأطلق الأحكام العامة على هذا المصطلح ، ولم يهتم بمدلوله وما يعنيه ، بل اعتبره وثنيه بحجة أنه من المصطلحات الجديدة التي لم ترد في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومن يقول بالفناء - في رأيه - من الوثنيين لا فرق بينهم جميعاً ولا استثناء حتى للقائلين بالفناء الديني الشرعي أمثال الجنيد بن محمد .

وقد ذكر هذه المسألة محمد حامد الفقي عن نفسه لأبي الحسن الندوي[٢] عند زيارته لجمهورية مصر العربية في بداية الخمسينات .

قال محمد حامد الفقي لأبي الحسن الندوي « لأجل أن تطلع على رأي عن الصوفية أقدم إليك رسالة العبودية[٣] ، ففيها تعليقاتي ورأي في الصوفية ، وقد تفردت في رأي عن الصوفية عن الشيخ ابن تيمية فإنه يستثنى أمثال الجنيد ولا أستثني أحداً ... »[٤] ، وقال محمد حامد الفقي في تعليقه على مصطلح "الفناء عن شهود السوى" وتعريف ابن القيم له بأنه فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين ، قال : « هل ورد هذا وصفاً لهم في كتاب الله ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو عرف الصحابة والتابعون لهم بإحسان هذا ؟ كلا بل وإنه من الاصطلاحات التي مهما حاول أمثال الشيخ ابن القيم - رحمه الله وغفر لنا وله - تأويلها فلن تحول عن وضعها التي وضعها عليه مصطلحوها[٥] ، ولا تفهم إلا على مقصودهم وعرفهم لصراحتها »[٦] .

وقال محمد حامد الفقي في تعليقه على كلام ابن القيم ودفاعه عن القائلين بالفناء عن شهود السوى وكيف نعتبرهم من المعذورين ، لأن غاية السكران أن يعذر ، خاصة في حالة عدم استدعائه للوجد . قال : « كيف يدعى دفاعاً عن هذه الوثنية الوقحة أن أولئك الزنادقة يعذرون ؛

---

(١) كـان الشيخ محمد حامد الفقي رئيساً لأنصار السنة في مصر، وكان خطيباً بارعاً ، وله علم ودراية وتصرف في الكلام ، ولكنه كـان متعصباً لجماعته ، وله كلام لاذع في أهل المذاهب المختلفة خاصة الصوفية . وقد حقق عدداً من كتب ابن تيمية وابن القيم ككتاب (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ، وكتاب (مدارج السالكين) لابن القيم .

(٢) كتب أبو الحسن عن زيارته لمصر والسودان في كتابه مذكرات سائح في الشرق العربي الذي تكلم فيه عن عدد من العلماء أمثال العقاد وطه حسين وعبدالمنعم النمر ومحمد حامد الفقي وتحدث عن الختمية في السودان وما يشتم في قصائدهم من شرك جلي .

(٣) رسالة العبودية في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٤) أبو الحسن الندوي : مذكرات سائح في الشرق العربي ، ص١٨٤ ، ١٨٥ .

(٥) لعل الصحيح (عن وضعها الذي وضعه عليها مصطلحوها) .

(٦) هامش مدارج السالكين ، ١ : ١٦٦ ، ١٦٧ .

لأنهم سقط تمييزهم وشعورهم فلئن كانوا حقيقة ساقطو التمييز والشعور فهم مجانين ، فكيف ندعي لهم الولاية والإمامة في الدين » .

الفناء عند سميح عاطف الزين :

وذهب سميح عاطف الزين في كتابه الصوفية في نظر الإسلام إلى أن الفناء - بجميع أنواعه - أشنع ما ذهب إليه الصوفية .

وتعجب سميح عاطف الزين من الحكاية التي حكاها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن موت أبي الحسين النوري[١] نقلاً عن عبدالكريم القشيري صاحب الرسالة بإسناد إلى أبي النصر السراج صاحب اللمع ، وخلاصتها أن سبب وفاة أبي الحسين النوري أنه سمع هذا البيت :

لا زلت أنزل من ودادك منزلاً   تتحير الألباب عند نزوله

فتواجد النوري وهام في الصحراء ، وصادفته أجمة فيها قصب بقيت أصولها مغروسة في الأرض فأصابته في قدميه ومات بسببه . ويتعجب سميح عاطف الزين أكثر من أبي حامد الغزالي في تعليقه على موت أبي الحسين النوري وجعله لهذه الدرجة من درجات الصديقين في الفهم والوجد[٢] .

الفناء عند عبدالرحمن الوكيل :

ذهب عبدالرحمن الوكيل في كتابه "هذه هي الصوفية" إلى أن البسطامي - وهو من أشهر الواصلين إلى الفناء عن شهود السوى - نافث جرثومة التصوف ، والتصوف ما هو إلا وثنية ، والغزالي أيضاً عنده كذلك - نافث جرثومة التصوف - . وقد خالف الوكيل برأيه هذا ابن تيمية الذي يرى أن البسطامي إمام من أئمة الهدى ، لا يمكن أن يتعمد مخالفة الشريعة الإسلامية ، وإذا نسب إليه شيء فيه مخالفة للشريعة أما كذب عليه أو خطأ منه خاصة ما نسب إليه في كتاب "النور من كلام طيفور"[٣] ويمكننا أن نضيف: أو قال ما قاله في حالة وجد يصعب مه التمييز كتلك الشطحات التي تنسب إليه[٤] .

---

(١) ينتمي إليه النورية وهم طريقة صوفية تحدث عنها الهجويري في كشف المحجوب ص٤٢٠-٤٢٥، وكان الجنيد ابن محمد سيد الطائفة الصوفية يعظم من شأن أبي الحسين النوري ، وقيل عن النوري أنه كان أعبد من الجنيد ، وروى عن السري السقطي (خال الجنيد) . مات خمس وتسعين ومائتين . انظر : شذرات الذهب : المجلد الأول ٢: ١٠٧ . د. شوقي بشير: نقد ابن تيمية ومدرسته للتصوف ، رسالة مخطوطة ، ص٤٢ .

(٢) سميح عاطف الزين : الصوفية في نظر الإسلام ، ص١٢٩ .

(٣) نشر هذا الكتاب وقام بتحقيقه الدكتور عبدالرحمن بدوي ضمن كتاب شطحات الصوفية .

(٤) للدكتور شوقي بشير عبدالمجيد، بحث عن شطحات البسطامي، وله بحث آخر عن آراء العلماء في شطحات البسطامي. (بحوث محكمة) .

وأما الغزالي فقد دافع عن ابن تيمية في فتاويه ، وبين أن الخطأ في دقيق العلم مغفور ، ولولا ذلك لهلك كثير من خيار هذه الأمة أمثال الغزالي . فالغزالي لم يخطئ في مسألة إدراك الحق فيها سهلاً ، والغزالي أمرضه الشفاء - شفاء ابن سينا - والغزالي دخل في بطون الفلاسفة فما خرج منها سالماً .

الفصل الرابع

الفناء عند الأباضية والشيخ الفنصوري الأندونيسي وأساتذة الفلسفة الإسلامية

المبحث الثاني: *الفناء عند الأباضية والشيخ الفنصوري الأندونيسي .*

المطلب الأول : الفناء عند الأباضية أو كيمياء السعادة الأبدية .

المطلب الثاني : الفناء عن الشيخ الفنصوري الندونيسي .

المبحث الثالث : *الفناء عند أساتذة الفلسفة الإسلامية .*

المطلب الأول : الفناء عن الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي .

المطلب الثاني : الفناء عند الأستاذ الدكتور قاسم غنى .

المطلب الثالث : الفناء عند الأستاذ الدكتور عرفان عبدالحميد .

المبحث الثاني

الفناء عند الأباضية والشيخ الفنصوري الأندونيسي

المطلب الأول : الفناء عن شهود السوى عند الأباضية أو كيمياء السعادة الأبدية[١]

الفناء عن شهود السوى عند الشيخ أبي محمد سعيد بن خلفان بن أحمد الخليلي ، هو الفناء الغيبي وهو كيمياء السعادة الأبدية ، وهو المرتبة الكبرى التي لا يشعر الإنسان فيها بنفسه ولا بدنياه ، ولا بشيء غير الله ، وهي المرتبة التي لا فوق فوقها في شيء من علم الحقيقة . ويتم الوصول إلى مقام الفناء الغيبي - الفناء عن شهود السوى - بتطهير القلب بالإخلاص ، والتوكل على الله ، والرضا بقضاء الله في كل أمر ، والتوجه إلى الذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، والاستقامة في الطريق من غير تلجلج ، وتطهير النفس من علائق الرذيلة والميل إلى الشهوات ، ثم الخلوة الكاملة في بيت ضيق مظلم أو مسجد أو كهف أو جبل . ويكون السالك صائماً نهاره في كل مدة الخلوة ، ويكون إفطاره على ما ليس فيه روح ، ولا خرج من روح مقدار ما يقوى به على أداء الفرائض . ويكون الذكر في مدة هذه الخلوة اسم الجلالة وحده هكذا ؛ الله .. الله .. الله[٢] .. إلى أربعين يوماً ليلاً ونهاراً ، لا ينشغل عن ذلك بشيء ، وقد ينكشف للسالك شيء من الأسرار ، فعليه بتجاوز هذا الكشف ، وعدم الانشغال به عن الذكر والاستمرار على ذلك الاسم إلى أن يجد الإنسان قلبه حاضراً فيه الاسم كأنه يتكلم به ولو لم ينطق لسانه ، فإذا بلغ ذلك فيثبت عليه ، ويدع حركة اللسان ، فليس المطلوب في هذه الحال إلا حركة القلب بالحضور الكامل والثبات على ذلك والملازمة إلى أن يتمكن ذلك من القلب فينسيك كل ما سواه ، وهذه هي مرتبة الفناء الغيبي[٣] .

المطلب الثاني : الفناء عند الشيخ الفنصوري الأندونيسي :

يعتبر الشيخ حمزة الفنصوري الأندونيسي المتوفي سنة ١٦٠٠م أول من تكلم عن الفناء في الفلسفة الصوفية الأندونيسية والفناء عنده نوعان : فناء الظاهر وفناء الباطن[٤] .

---

(١) الأباضية : مذهب من المذاهب الفقهية الإسلامية ، وتيار من التيارات الفكرية الإسلامية . ولهم كتبهم المعتمدة في الفقه ككتاب النيل للشيخ عبدالعزيز الاثميني وقد شرحه الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ولهم مجموعة كبيرة من الكتب التي تناولت التراث الكلامي الأباضي ، تحدث عنها الدكتور فرحات الجعبيري في كتابه البعد الحضاري للعقيدة الأباضية .

(٢) الذكر بالاسم المفرد فيه خلاف بين علماء المسلمين ، ويرى السلف أن على المسلم أن يذكر بالأذكار الواردة في الكتاب والسنة . وقد تناول هذه المسألة – الذكر بالاسم المفرد – وتكلم عن الذكر بالضمائر ابن القيم الجوزية في كتابه : «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» وقد قالت الأنفاسية وهي طريقة صوفية بغير ذلك .

(٣) أبو محمد سعيد بن خلفان الخليلي : تمهيد قواعد الإيمان وتقييد شوارد مسائل الأحكام والأديان من جوابات الشيخ أبي محمد سعيد بن خلفان الخليلي . طبعة سلطنة عُمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ١٤٠٧هـ ، ج١ ، ص٤٢، ٤٣ .

(٤) تحدث عن هذه الأنواع من الفناء عند الفنصوري الشيخ محمد نفيس البخاري من علماء القرن الثالث عشر ومن تلاميذه الشيخ عبدالله الحجازي الشرقاوي والشيخ صديق بن عمر خان والشيخ محمد بن عبدالكريم السمان والشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز المغربي .–

فناء الظاهر عند الفنصوري (الفناء عن شهود السوى) :

« فناء الظاهر عند الفنصوري هو الفناء في أفعال الله ، وهو أن يتجلى الله للفاني بطريق الأفعال ، ويسلب عن الفاني اختياره وإرادته ، فلا يرى له إرادة ولا اختيار ويرى أن المريد واحد والإرادة واحدة ، وما عدا ذلك وهم . ثم يأخذ في المعاملة مع الله تعالى بحبه ، ومن سمات هذا المقام من الفناء أن السالك يبقى أياماً لا يتناول الطعام ولا الشراب ، حتى يتجرد له فعل الحق ، ويقيض الله تعالى له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وكيف أحب ويسمى الفناء الظاهري لأنه فنى عن نفسه وعن الغير. فني بفعل الله عن فعل نفسه . ويعرف هذا النوع من الفناء أيضاً بمقام توحيد الأفعال » .

وهذا النوع من الفناء يشبه الفناء عن شهود السوى عند الصوفية وهو ليس غاية ، بل وقوع في التهلكة ، وفهم خاطئ لمسألة الزهد .

الفناء الباطن عند الفنصوري أو الفناء عن وجود السوى :

الفناء الباطن عند الفنصوري هو : « ذلك الفناء الذي يكاشف فيه الفاني تارة بالصفات ، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات ، "فيستولي على باطن السالك أمر الحق تعالى حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس"[(١)] ، قال الفنصوري لأتباعه رداً على أسئلة حول فناء الباطن . "قد يقال إن هذا الفناء شرك بالله نظراً لوجود عاشق يتلاشى فيه ، وفي الحقيقة ليس هناك وجود سوى وجود الله" كقوله صلى الله عليه وسلم : ((عرفت ربي بربي))[(٢)] . وقال السالك : "لا يرى الله غير الله" وقال أيضاً : "ما عرف الله غير الله" ، وقال أيضاً : "رأيت ربي بعين ربي" . ويسمى هذا النوع من الفناء ، الفناء بمقام توحيد الصفات والأسماء والذات ، وهو الفناء عن وجود السوى » .

يقول الشيخ محمد نفيس البخاري: « إنه إذا تحقق في مشاهدة العبد أن لا وجود إلا وجود الله ، فوجود العالم مظاهر لوجود الله . والفناء في ذلك أن أفعال المخلوق عين أفعال الله ، وأسماؤه عين أسمائه تعالى وصفاته عين صفاته وذاته عين ذاته تعالى فلا يبقى للمخلوق إلا وهم أو خيال » .

- انظر : رسالة العقائد المشتركة بين الحركات الباطنية في أندونيسيا ، إعداد محشر مصري بدين ، رسالة مخطوطة ، ص١٩٨. إشراف الأستاذ الدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، السودان ، ١٩٩٨م .

(١) رسالة العقائد المشتركة بين الحركات الباطنية في أندونيسيا ، ص١٩٩ .

(٢) الحديث بهذا اللفظ موضوع ، وقد جاء في كتب الموضوعات (عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي) والحديث بهذا للفظ لم يذكره الشيخان (البخاري ومسلم) ولا كتب السنة الصحيحة الأخرى .

المبحث الثالث

الفناء عند أساتذة الفلسفة الإسلامية

المطلب الأول : الفناء عند الدكتور عبدالرحمن بدوي :

كتب عن الفناء بصورة عامة ، وعن شهود السوى على وجه الخصوص الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه "شطحات الصوفية" ، وهو كتاب لا يعتمد عليه في هذا الباب ، فقد دافع فيه عن جميع أنواع الفناء . وأشار إلى أن الفاني من الصوفية يكون في حال فناء عن وجود السوى وشهود السوى وعبادة السوى ، ويتجلى له الحق في تلك الحالة فلا يصبر على ما يشاهد فيندفع يصرخ وهو سكران "أنا أنت" .

ويرى الدكتور عبدالرحمن بدوي أن الشطح تعبير عن جميع أحوال الفناء ، وأن الواصل إلى عتبة الاتحاد هو من القائلين بالفناء عن شهود السوى ، وهو في تلك الحال يدرج أن الله هو ، لأنه صار والحق شيئاً واحداً . سبحان الله !

وقد أخطأ الدكتور عبدالرحمن بدوي في حديثه عن العناصر الأساسية لوجود ظاهرة الشطح فجعل شدة الوجد ووجود تجربة الاتحاد[1] من العناصر الضرورية لوجود الشطح .

قال فالعناصر الضرورية لظاهرة الشطح هي :

أولاً : شدة الوجد .

وثانياً : أن تكون التجربة تجربة اتحاد .

وثالثاً : أن يكون الصوفي في حالة سكر . (وهذا الشرط لا غبار عليه) .

ورابعاً : أن يسمع في داخله هاتفاً إلهياً يدعوه إلى الاتحاد فيستبدل دوره .

خامساً : أن يتم هذا كله والصوفي حال من عدم الشعور. (وهذا الشرط الأخير لا غبار عليه).

وقد ربط الدكتور عبدالرحمن بدوي ربطاً تاماً بين الشطح والاتحاد فقال: « ولن تستطيع أن تقصر الشطح على نوع واحد من هذه الأنواع المختلفة للاتحاد ، وإلا لكان في ذلك تضييق لمعناه لا مبرر له » ... وقال: « يمكن أن يقال إن درجات الشطح تتناسب تناسباً طردياً مع درجات الاتحاد أو الحلول ؛ لأن كليهما صالح لإيجاد ظاهرة الشطح ، وأهمية فكرة الاتحاد في تكوين أو تكييف عملية الشطح كبيرة

---

(١) الاتحـــاد المطلق أو العام هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود الله هو عين وجود الكائنات والاتحاد المعين أو الخاص هو اتحاد الذائين وهو قول يعقوبية النصارى الذين يقولون إن اللاهوت والناسوت اختلطا كاختلاط اللبن والماء .
انظر : ابن تيمية : الوصية الكبرى ، ص٦٩ و ٤١ ، مجموعة الرسائل والمسائل ، ٤: ٢٤، ٢٥ .

خصوصاً في تفسير الشطحيات ، التي تعبر عن تساوي الأديان كلها ، سماوية وغير سماوية بالنسبة إلى الصوفي ، فالأديان عندهم متساوية[١] لأن الوجد واحد ، والوجود هو الله . فكلها إذن من الله »[٢] .
ويقول د. عبدالرحمن : « والخلاصة إذن أن التوحيد الذي يلقنه الصوفي حال السكر هو شهود الحق في ذاته لذاته وفناء الذات الخاصة في ذات الألوهية ، وأنه ما ثم إلا الله فوجود العبد وجود الرب والعكس ، ولهذا يمكن أن ينسب إلى العبد ما ينسب إلى الرب من صفات وأسماء »[٣] .

ونلاحظ أن الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي قد جمع في خلاصة حديثه عن الفناء بين نوعين من الفناء : الأول هو الفناء عن شهود السوى ، وهو فناء قاصر ، ويعذر صاحبه ، والثاني هو الفناء عن وجود السوى أو ما يسميه بعض الباطنية : الشهود الذاتي ، أو تحقيق العارف ووصوله إلى درجة "الوارث المحمدي ذاتي المقام" ، وبين النوعين فرق كبير فالقاصر هو المذموم، وهو الذي لا كسب للعبد فيه ، والثاني : (عن وجود السوى) هو فناء الملاحدة كما بين علماء السلف . ويكفي في الرد على القائلين بوصول الإنسان إلى درجة الوارث المحمدي الذاتي المقام ، يكفي قول الله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٤] .

المطلب الثاني : الفناء بين البوذية والصوفية عند الدكتور قاسم غني :

يرى الدكتور قاسم غني في كتابه تاريخ التصوف في الإسلام أن الاعتقاد بالفناء والمحو أو الاستهلاك هندي في الأصل كما يبدو[٥] ، وذكر أوجه الشبه الموجودة بين البوذية وبين طرق التصوف ، وبين الفارق الأساسي والمعنوي بين هدف البوذيين وهدف الصوفية ، واستشهد بأقوال بعض أكابر العارفين في باب الفناء .

---

(١) شطحات الصوفية ، ص١١ .

(٢) وحدة الأديان وهو قول متفرع من وحدة الوجود (ووحدة الأديان) مصطلح يختلف عن (وحدة الدين) فوحدة الدين تعني أن دين الأنبياء واحد وإن تنوعت الشرائع ففي الحديث الوارد في الصحيحين ((إنا معشر الأنبياء ديننا واحد)) . ووحدة الأديان كفر . انظر : الفتاوى ، مجلد التصوف ، ص٢٢٠ .

(٣) شطحات الصوفية ، ص٢١ .

(٤) سورة الكهف ، الآية ١١٠ .

(٥) يختلف الفناء عند المسلمين عن الفناء الهندي اختلافاً كبيراً ، فالفناء عن عبادة السوى هو التوحيد الخالص والفناء عن شهود السوى هو الفناء القاصر الذي يحدث في حالة السكر الوجداني . وأما الفناء عن وجود السوى فهو فناء المتأثرين بالتصوف الهندي ، وهو من العقائد التي تسربت إلى العالم الإسلامي بعد أن اطلع المسلمون على عقائد الهنود وتصوفهم عن طريق الرحالة والكتاب العرب والدعاة الذين خرجوا للدعوة في سبيل الله ، وكتبوا عن هذه العقائد حتى يكون الناس على علم بها ، وحتى يتجنب المسلم العقائد المرذولة . ومن أشهر الذين كتبوا في هذا المجال أبو الريحان محمد أحمد البيروني الذي صنف كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة» وكتاب «الآثار الباقية من القرون الخالية» .

قال الدكتور قاسم غني في كتابه تاريخ التصوف في الإسلام : « ... والاعتقاد بالفناء وانمحاء الذات الذي يسميه الصوفية "الفناء" و "المحو" أو الاستهلاك هندي في الأصل كما يبدو ، والانعدام ومحو التعينات الشخصية الموجودة بين البوذية وبين طرق التصوف مسألة المقامات التي يرتقي فيها السالك بالترتيب والتدرج من مقام إلى آخر حتى يصل إلى مقام الفناء . ويوجد في طريق البوذيين ثمانية مقامات ، أي أن طريق السلوك هو عبارة عن ثمان مراحل . كما يمر أهل السلوك من المسلمين في سلوكهم الطريقة بمراحل مختلفة ، ولو أن جزئيات شروط السلوك وخصوصيات مقامات الطريق تختلف عن بعضها ، إذ من المسلم به أن عوامل الزمان والمكان والدين والأصل وسائر الخواص الأخرى صبغت منها بصبغة خاصة ولكنهما مشتركان في الأصول ، ويمكن الحدس بأنها لا بد قد نبعا ونشآ من أصل واحد . ويلجأ الفريقان كل منهما بطريقته إلى حصر الفكر الذي يسميه الصوفية المراقبة ويسميه البوذية ديانا ، ويمضي كلاهما إلى نهاية هذا الأصل حتى يمتد العارف والمعروف وحتى يقول الصوفي : إن من الشرك أن أقول "أنا أعرف الله" . لأن النتيجة مثل هذا الحكم هي الاعتقاد بتعدد المبدأ ، وهذا عين الشرك ، ومثل هذا المنطق والنحو من الاستدلال له شبه كبير بعقيدة العرفاء الهنود الذين يقولون « معرفة برهمن عن طري فالعقل جهد غير مجد . وكل من يعتقد مثل هذا فإنه مخطئ ذلك لأن كل عرفان يستلزم أمرين أحدهما الشخص الذي يعرف (العارف) والثاني الموضوع الذي هو محل العرفان (المعروف) »[1] .

وقال الدكتور قاسم غني « ... وبغض النظر عن الآداب والعادات والأشياء الجزئية مما لم نتعرض لتفصيله فإن هناك قرائن مهمة تدل على أن الرياضة والمراقبة والتجريد العقلي ، وترك العلائق - إلى حدٍ كبير - نتيجة لتأثير البوذية ، ولكن هنا فارقاً أساسياً ومعنوياً واضحاً بين الطريقتين ، وذلك أن البوذية إنما تهدف إلى تربية النفس الأخلاقية وتصفية الباطن فقط ، ولكن التصوف يجوز تهذيب النفس نتيجة للوصول إلى المعرفة والعشق في الله . وإن سير البوذية مهما كانت فإنما هي في مرحلة اصطناع النفس بينما الصوفي يجعل ذاته غائبة عن نفسه غير واعية في طريق المعرفة ويصبح باقياً بالله على اصطلاح الصوفية . وإن عقيدة الفناء الصوفية أي الاعتقاد باستغراق الفرد في الوجود الكلي ووحدة الشخص التي تدعى "الاندكاك" باصطلاح العرفاء هي من العقائد الهندية على ما يظهر ... »[2] .

ويبدو أن الدكتور قاسم غني قد تأثر بما قاله المستشرقون في هذه المسألة ، وإن حاول الدفاع عن أبي يزيد البسطامي بصورة جعلته أقرب إلى القائلين بوحدة الوجود .

---

(١) تاريخ التصوف في الإسلام ، ص٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) تاريخ التصوف في الإسلام ، ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .

واستشهد الدكتور قاسم غني في كتابه تاريخ التصوف في الإسلام بأقوال للبسطامي في الفناء وقال بعد أن أوردها : « إن مثل هذه الأقوال ليست بوذية بصورة قاطعة ، بل إن صبغت وحدة الوجود غالية عليها ، وبالإضافة إلى ذلك يجب اعتبار هذه النقطة الأساسية وهي أن فناء الصوفية و النيرفانا[1] البوذية ليستا شيئاً واحداً في كل وجه وذلك لنه رغم أنهما يعبران عن فناء الفردية ومحو الشخصية إلا أن الزفانا سلبية تماماً ... » . وقد أخطأ الدكتور قاسم غني في فهم كلام أبي يزيد البسطامي ، فأبو يزيد لا يعتبر من القائلين بوحدة الوجود ، وليس هو من المتأثرين بالنرفانا الهندية ، وإنما قال ما قاله في حالة سكر وجدان يصعب معه التمييز وهي حالة تعرف بالفناء عن شهود السوى وما استدل به الدكتور قاسم غني يعد من شطحات البسطامي في هذا الباب[2] .

وأما مسألة تأثر الصوفية بالبوذية أو غيرها من أديان الهند الوضعية فقد قال فيها الأستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر في كتابه "التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً" : « ولقد حاول بعض الباحثين أن يدعموا نظريتهم في التأثير الفيدانتي (الهندي) على التصوف الإسلامي في نظرية الفناء على يد أبي يزيد البسطامي ، وقد ذكر الأستاذ زينر نصوصاً هندية حاول مقارنتها بمثيلاتها في الإسلام ، كما اعتمد على بعض الملاحظات التي تؤيد في زعمه هذه النظرية . ومن أهم النقاط التي أثارها الأستاذ زينر التوافق بين اللفظ العربي "خدعة" الذي استعمله الصوفية في وصف العالم واللفظ الأوبانشادي "مايا" والكلمة "خدع" و "خدعة" ترد في كتاب الفناء للجنيد . وقد ناقش الأستاذ آدبري أدلة الأستاذ زينر باسهاب في هذا الصدد بما لا يقبل مزيداً ، من حيث إثبات أصالة اللفظ العربي ووروده في القرآن ، ونسبته إلى الله جل جلاله .

وقد عالج الأستاذ آربري في مقال مستقل بعض النقاط الخاصة بالقول المنسوب إلى أبي يزيد "سبحاني" وقوله "أنت ذاك" ، ثم ختم المقال بمناقشة قيمة لأصل أبي على السندي الذي يقال إنه كان أستاذ أبي يزيد الروحي ، وما إذا كان هندياً أو غير هندي . وقد ذكر الأستاذ آربري من الاحتمالات ما لا يجعل الباحث يقطع بهنديته . ولقد اعمتد كارادي فو في رفضه نظرية الأصل

---

(١) تتلخص عقيدة الفيدانتا الصوفية في فناء جميع الأرواح في النرفانا المقدسة ، فكأن العالم كله مجرى لروح واحدة هو الله ، الذي يعبدونه ، وربما كانت هذه وحدة وجود منبثقة من فناء كل شيء في ذات واحدة .

(٢) انظر كتاب تاريخ التصوف في الإسلام للدكتور قاسم غني ص٢٣٤ ، ط. النهضة المصرية ١٩٧٠م ، الأقوال التي استدل بها الدكتور من كلام البسطامي ومنها الأقوال الآتية :

((سرت في الهية إلى الهية حتى دعوت من نفسي إلى نفسي أن يا من أنت أنا)) .

((كنت أطوف مدة حول البيت ولما وصلت إلى الحق رأيت البيت يطوف حولي)) .

((خرجت من البايزيدية كخروج الحية من جلدها ، ثم نظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ...))

الهندي للفناء على دليلين ظنهما مقنعين ، أولهما أن الكتاب المسلمين آنذاك - وقت ظهور ذلك المبدأ - لم تكن لديهم معرفة كافية بالفلسفة الهندية تمكنهم من فهم النرفانا . وثانيهما أن هناك فرقاً جوهرياً بين فكرة البوذيين عن الفناء ، وهي فكرة مستقلة تماماً عن فكرة الألوهية ، ومرتبطة أشد الارتباط بفكرة تناسخ الأرواح وبين الفناء الصوفي في الإسلام حيث تمثل فكرة الإله المحور الهام على حين أنه ليس هناك ما يتصل في قليل أو كثير بفكرة التناسخ »[١] .

الطلب الثالث : الفناء في كتابات الدكتور عرفان عبدالحميد فتاح :

صدر للدكتور عرفان عبدالحميد فتاح[٢] كتاب عن نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها تحت عنوان "نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها"[٣] ، وقد تكلم في مبحث من مباحث هذا الكتاب عن الفناء عن عبادة السوى ، والفناء عن شهود السوى ، والفناء عن وجود السوى ، وتكلم في فصل عن أبي يزيد البسطامي وأقواله في الفناء ، وسوف أنقل في هذا المبحث ما قاله الدكتور عرفان عبدالحميد بأكمله ، وأعلق عليه في الهامش إن دعت الضرورة . قال الدكتور عرفان - وهو يتكلم عن التصور التجريدي المطلق للألوهية - : « لقد أدى هذا التصور التجريدي المطلق للألوهية بدوره إلى ردود فعل عنيفة تبلورت ابتداء في دوائر الصوفية التي حاولت - من جانبها - أن تتخطى هذه المسافة الفارقة بين الحق والخلق[٤] ، بين اللامتناهي والمتناهي ، وتنقل التوحيد من صورته العقلية التجريدية والجدلية إلى مضمون روحي ، مهما تباينت صوره وأشكاله ، فإنما يهدف إلى إشاعة ضرب من العلاقة والوصل بين الوجودين : الإلهي والإنساني ، والمطلق والمحدود ، وتقريب المسافة بينهما بطريقة أو أخرى .

وقد شهد الفكر الصوفي في هذا الخصوص محاولات تتابعت تاريخياً تعمل من أجل التقريب بين عالم الحق والخلق ، اختلفت في مراتب القرب والابتعاد عن التصور القرآني الخالص ، كان من أبرزها :

---

(١) محمد كمال : التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ، ط. ١٩٨٠ إسكندرية ، ص٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) عندما صدر هذا الكتاب في عام ١٩٧٤م/١٣٩٤هـ كان الدكتور عرفان عبدالحميد فتاح أستاذاً مساعداً للفلسفة الإسلامية بجامعتي بغداد والكويت .

(٣) ط. المكتب الإسلامي ببيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م وقد ساعدت جامعة الكويت على نشر هذا الكتاب .

(٤) نختلف مع الدكتور في هذا التحليل إذ أن القول بالفناء عن شهود السوى أو عبادة السوى لم يكن نتيجة لذلك ، فالفاني عن شهود السوى لا يشعر بنفسه ولا بأحواله والفاني عن عبادة السوى هو الفاني في التوحيد ، وهو الذي يفرق بين المأمور والمحظور ، ويعرف ما يقول ، ويصاحبه تمييزه في الأحوال كلها ، وهو صاحب الفناء المطلوب الفناء الديني .

التوحيد الإرادي (الفناء عن عبادة السوى) :

وهذا اللون صاغه شيوخ الصوفية الذين التزموا بقواعد الشرع ونصوص الكتاب وهدي النبوة ، وبه حاولوا تفسير الإسلام تفسيراً ذوقياً في ضوء العقل والمعاناة الروحية . وهذا التوحيد ، مع حرصه على تقرير مبدأ ثنائية الله والعالم ، فهو محاولة - كما لاحظ الدكتور عثمان يحيى - لإدراك الوحدة الإلهية ووعي بها في مستوى الإرادة . وصاحب هذا المقام تذوب إرادته في إرادة الله وتفنى رغائبه في رغائب الله ، فلا يريد العبد إلا ما يريد الله ولا يحب إلا ما يحبه الله . وهو المقام الذي أسماه ابن تيمية بمقام "الفناء عن عبادة السوى"، وهو حال النبيين وأتباعهم ، يفنى العبد فيه : بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه ... فقد فنى من قلبه التأله لغير الله ، وبقي في قلبه تأله الله وحده[١] .

وفي هذا الفناء للإرادة الإنسانية ، أو بتعبير أدق : في هذا التسامي بإرادة العبد إلى إرادة الله يتحقق الكمال للإنسان في أسمى صوره ومعانيه ، وهو ما عبرت عنه أقوال شيوخ الصوفية : قال التستري[٢] (ت ٢٨٣هـ) : "التصوف السكون إلى الله" وقال أبو الحسين النوري (ت ٢٩٥هـ) : "الصوفية قوم لما تركوا كل ما سوى الحق ، صاروا لا مالكين ولا مملوكين" وقال الجنيد (ت ٢٩٧هـ)[٣] : « التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفي » وقال أبو محمد رويم (ت٣٩٣هـ) : « التصوف استرسال النفس مع الله على ما يريد »[٤] .

التوحيد الشهودي (الفناء عن شهود السوى) :

وهو تحقق بالوحدة المطلقة لله في ذرى المشاهدة والتأمل . وهذا يعني اتحاد العبد مع الله اتحاد عيان ومكاشفة ومشاهدة ، لا اتحاد جواهر وأعيان ، وذلك بعد فناء الصوفي عن وجوده الخاص وعن الأغيار من حوله . والذي يميز هذا اللون من التوحيد عن نظيره السابق هو أن حقيقة الإلهية لا تظهر في هذا المقام بمظهر الأمر والنهي ، أو الشريعة والقانون ، يخضع له العبد وتتلاشى إرادته فيه ، بل تتجلى الألوهية لصاحب هذا المقام الذي هو مقام الاصطلام ، في صورة ذات مقدسة

---

(١) انظر : نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، للدكتور عرفان ، ص١٦٠ .
وانظر الرسائل والمسائل ، ١/ ١٥٠ . ومدارج السالكين لابن القيم ، ٣/ ٣١٢ .
وانظر : الفناء عند ابن تيمية – مبحث في هذا الكتاب – .

(٢) سهل بن عبدالله التستري .

(٣) الجنيد بن محمد ، سيد الطائفة الصوفية قيل إنه توفي سنة ٢٩٨هـ ، وقيل سنة ٢٩٧هـ ، انظر المبحث الخاص بالجنيد في هذا الكتاب .

(٤) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص١٦٠ ، نقلاً عن التصوف الإسلامي لينكلسون ، ص٢٩ .

يهيم في مجالها ويتعشق كما لها ويفنى في وجودها ، وهكذا « وبمقدار ما تتضاءل ذاتيه العبد وتتقلص يكون دنوه من حال الفناء حتى إذا تلاشت هذه الذاتية نهائياً يكون الوصول إلى ذرى المشاهدة والمكاشفة »[١] .

وكما قلنا في التوحيد الإرادي أن فناء إرادة العبد في إرادة الله[٢] معناه تسامي الإرادة الإنسانية إلى قمة الإرادة الإلهية ، كذلك الأمر في التوحيد الشهودي ، فإن فناء وجود العبد المعنوي في بحر الوجود المطلق معناه تسامي الوجود الإنساني المحدود إلى سماء الوجود الإلهي اللامحدود بدون أن تحدث هذه العملية الغريبة الفائقة أي تغيير في حقيقة الذات الإلهية المطلقة وكما لها النهائي ، ولكن التغيير هو ما يحصل للإنسان في هذا المقام الشريف ، إنه الآن إنسان رباني ، وقد كان من قبل إنساناً فقط ، وهكذا فإنه من الخطأ أن نعتبر كما يقول نيكلسون « الأقوال التي صدرت عن بعض الصوفية دليلاً على اعتقادهم في وحدة الوجود ، كقول البسطامي[٣] "سبحاني" أو قول الحلاج[٤] "أنا الحق" أو قول ابن الفارض "أنا هي" فإن الصوفي لا يدين بوحدة الوجود ما دام يقول بتنزيه الله ، مهما صدر منه من الأقوال المشعرة بالتشبيه ، وهو إذا راعى جانب التنزيه يشاهد كل شيء في الله ، ولكنه في الوقت نفسه يعتبر الله فوق كل شيء ، مخالفاً لكل مخلوق ، ولا يقر بأن "الكل" هو الله . فالوحدة التي يقول بها "وحدة الشهود لا وحدة وجود"[٥] يقول ابن القيم : « الفناء الذي يشير إليه القوم ويعملون عليه : أن تذهب المحدثات في شهود العبد ، وتغيب في أفق العدم ، كما كانت قبل أن توجد ، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ، ثم تغيب صور المشاهد ورسمه أيضاً فلا تبقى صورة ولا رسم ن ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود ، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه ، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات ، وحقيقة أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل »[٦] .

وهكذا فإن الصوفي في هذا المقام يرى الثنائية بين الله والعالم ، ولكنه وقد استولى الرب تعالى عليه وأفناه عن ذاته يشهد الوحدة في الوجود كله شهوداً ذوقياً بالمعنى الذي سنفصل فيه الكلام

---

(١) نشأة التصوف الإسلامي للدكتور إبراهيم بسيوني ، ص١٩٧ .

(٢) يقول الهجويري في كشف المحجوب « وفناء إرادة العبد في إرادة الله ليس معناه فناء وجود العبد في وجود الله تماماً كما يذوب الحديد في النار ، فالنار قد تؤثر في صفات الحديد ، ولكنها لا تمس جوهر أو تغيره » . هامش نشأة الفلسفة الصوفية ، ص١٦٠ .

(٣) أبو يزيد ، طيفور ، البسطامي .

(٤) الحلاج ، الحسين بن منصور ، الذي قتل سنة ٣٠٩هـ وقد عده عدد من الباحثين من القائلين بالحلول ، وصنفوا الحلاجية من فرق الحلولية ، وعده آخرون من القائلين بالفناء عن وجود السوى . وعده جماعة من الصوفية من كبار الزهاد .

(٥) في التصوف الإسلامي ، لنيكلسون ، ص١٣١ .

(٦) مدارج السالكين ، ١/٨٠ .

عن ابي يزيد البسطامي ونظريته في الفناء : أي تلاشي الموجودات والأغيار بالقياس إلى الله وهو ما يعبر عنه فريد الدين العطار بفناء الجزئي في الكلي ، كما سنرى بعد قليل[١] .

يقول ابن تيمية : « وأما الثاني (من أقسام الفناء) وهو الفناء عن شهود السوى ، فهو الذي يعرض لكثير من السالكين ، كما يحكى عن أبي يزيد[٢] وأمثاله ، وهو مقام الاصطلام ، وهو : أن يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمعبوده عن عبادته وبمشهوده عن شهادته ، وبمذكوره عن ذكره ، فيفنى من لم يكن ن ويبقى من لم يزل ، وهذا كما يحكى أن رجلاً كان يحب آخر ، فالقى المحبوب نفسه في الماء ، فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت ؟ قال : غبت بل عني ، وفظننت أنك أني ، فهذا حال من عجز عن شيء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق ، وهو أمر يعرض لطائفة من السالكين ، ومن الناس من يجعل هذا عين السلوك ، ومنهم مني يجعله غاية السلوك ، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية ، فلا يفرقون بين المأمور والمحظور ، والمحبوب والمكروه ، وهذا غلط عظيم غلطوا فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية ، عن شهود الشرع والأمر والنهي وعبادة الله وحده وطاعة رسوله . فمن طلب رفع أبنيته بهذا الاعتبار لم يكن محموداً على هذا ، ولكن قد يكون معذوراً »[٣] . باعتبار أن ما صدر عنه إنما في حال غيب عن الحس. يقول ابن خلدون[٤] في هذا الصدد أيضاً « ومن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والوردات تملكهم حتى ينطقوا بما لا يقصدون وهذا هو الشطح . وصاحب الغيبة غير مكلف، والمجبور معذور . فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل . من هذا ما وقع لأبي يزيد وأمثاله . ومن لم يعرف فضله ولا اشتهر بمثلها ن وهو حاضر في حسه ، ولم تملكه الحال ، أي حال الفناء ، فمؤاخذ وبهذا أفتى الفقهاء وأكابر الصوفية بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضوره وهو مالك حاله »[٥] .

وهكذا ، ومع سمو هذه المنزلة وعلوها فإنها دقيقة جليله بل وباب للمزلة عظيم ، يشرف منه الصوفي المستهلك في الحق على السقوط في دائرة العدمية وإسقاط الفرائض ودعوى الحلول أو الاتحاد بالله . يوقل وليم جيمس : « قد يسمى ذلك الشعور بالإنسجام مع الإله الذي يميز أعلى

---

(١) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص١٦٢ .

(٢) أبو يزيد البسطامي ، طيفور .

(٣) الرسائل والمسائل ، ٨٢/١ وانظر المبحث الخاص برأي السلف في الفناء في هذا الكتاب .

(٤) المــؤرخ الإسلامي عبدالرحمن بن خلدون الذي ولد في تونس ١٣٣٢م وقد كتب عنه الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل الكتاب الشهير (ابن خلدون إسلامياً) .

(٥) شفاء السائل ، ص٥٠ .

مرحلة من مراحل الشعور به ، وحدة واتحاداً معه . وهكذا يمكن أن ينشأ مذهب اتحاد من أحشاء مذهب التاله !! لكن ذلك الشعور بالاستسلام النفسي وبالاتحاد المطلق ، من ناحية عملية ، بين المرء وموضوع تدبره المقدس ، يختلف كل الاختلافات عن أي نوع آخر من أنواع الاتحاد في الجوهر . إذ لا يزال الموضوع هنا - الذي هو الإله - والذات المدركة - الذي هو أنا - شخصين متمايزين . فلا يزال هو موجوداً خارجاً ، أحس بوجوده خارجاً . وأعلى درجة من الاتحاد معه تكون في نفس الوقت أعلى مرحلة من الشعور بأنني حقيقة موجودة ، أختلف كل الاختلاف عن ذلك الموجود المقدس الذي يملأني روعة وجلالاً »[١] .

التوحيد الوجودي (الفناء عن وجود السوى) :

أما مذهب وحدة الوجود فيرى أنصاره الوجود وجوداً روحانياً خالصاً[٢] ، وبه يحاولون التوفيق بل الجمع بين الواحد والمتعدد ، وربط اللانهائي بالنهائي والمطلق بالنسبي والمتغير . ومن ثم إلغاء الثنائية والفصل التام بين الله والعالم فيتراءى لهم الله والعالم حقيقة واحدة هي علة نفسها ومعلولة ذاتها ، وهكذا وبينما تمثل وحدة الشهود ، كما يقول نيكلسون : "قبض العاطفة الدينية" وذروتها التي يجدها الصوفي المستهلك الفاني في الحق، في أعلى مقامات مجاهداته ورياضاته، فإن وحدة الوجود نظرية فلسفية في طبيعة الوجود ولا يرى صاحبها معها إلا حقيقة وجودية واحدة يطلق عليها اسم الله تارة ، واسم العالم تارة أخرى . فالحقيقة الوجودية في نظر أنصارها « وحدة في جوهرها متكثرة في صفاتها وأسمائها ، لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات ، وهي قديمة أزلية لا تتغير وإن تغيرت الصور الوجودية التي تظهر فيها[٣] . فإذا نظرنا إليها من حيث ذاتها قلت : هي الحق ، وإن نظرت إليها من حيث مظاهرها وتجلياتها قلت هي الخلق، فهي الحق والخلق ، والواحد والكثير ، والقديم والحديث والأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وغير ذلك من المتناقضات ولكنها متناقضات لاختلاف في الاعتبارات لا في الحقيقة »[٤] . ومن هنا فإن المذهب يتضمن ابتداء إنكار العالم الظاهر ، وعدم الاعتراف إلا بوجود حقيقي واحد ، هو الله الحق . أما

---

(١) وليم جيمس : إرادة الاعتقاد ١٠٢/٢ (ترجمة الدكتور محمود حب الله ، ١٩٤٩م) .

(٢) هـــذه ليست وحدة الوجود التي تجعل الحق سبحانه وتعالى مادة الأشياء ، وهي وحدة الوجود الروحية التي دافع عنها الشيخ محمد الحافظ التيجاني في كتابه « أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية » .

(٣) يؤمـــن الجمهوريون بالسودان ، وهم فرقة باطنية معاصرة بوحدة الوجود التي تجعل الحق سبحانه وتعالى مادة الأشياء أي لا تعدد وإنما وحدة في الجوهر ، قديمة أزلية لا تتغير وإن تغيرت الصور وزادت في المقدار أو نقصت ، وينشدون في ذلك قصائد كثيرة منها قصيدة جاء فيها :

ظهر الله كما قلب الصور ... ظهر الله حيرة في تصاريف ما قدر ... وحدة الفعل أن يرى أمرنا عين ما أمر

(٤) نشأة الفلسفة الصوفية ، ص١٦٥ ، نقلاً عن ابن عربي في دراساتي للدكتور أبو العلا عفيفي (ضمن التذكاري) ص١٥ .

الخلق فعلامات وآثار وتجليات له ، وهكذا تغدو الطبيعة زيفاً حائلاً . ويعتمد أحقية كل كائن في الوجود على قدر ما يشتمل على ذلك الجوهر الأزلي كثرة وقلة[(١)] .

وإذا كان الجوهر والحقيقة العددية للكون واحدة هي الحقيقة الإلهية ، وإذا كان لا يوجد خارجها غير ظواهر هي بمثابة أعراض لها ، فمن الواضح كما يقول آسين بلاثيوس « إن إدراك هذه الوحدة ينبغي أن تكون المطلب الأسمى للمتصوف »[(٢)] فالنفس بصورة مثالية تعود إلا الاتحاد بالله الذي صدرت عنه بالصدور المتنامي ، وحين تشعر بأنها هي والمبدأ واحد تصيح بغير تحفظ :

فما ثمّ إلا الله ، ما ثم غيره وما ثم إلا عَيْنه وإرادتـــه

وهكذا يرى أصحاب الوحدة المطلقة الوجود كله حقيقة روحية واحدة ، وإن تمثل لحواسنا متكثرة في موجداته الخارجية أو بدا لعقلنا ثنائياً يتألف من الله وعالم الأعيان ، فليس ثمة فرق بين الحق والخلق ، ولا بين الخالق والمخلوق ، اللهم إلا بالاعتبار والجهة ، فالله حق في ذاته ، وخلق[(٣)] من حيث صفاته ، وهذه الصفات نفسها عين ذاته يقول ابن عربي « سبحانه من أظهر الأشياء وهو عينها » .

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا وليس خلقاً بهذا الوجه فاذكـروا
جمع وفرق فإن العين واحــــدة وهي الكثيرة لا تبقى ولا تـــذر[(٤)]

وهذا التوحيد هو ما أسماه ابن تيمية[(٥)] وابن القيم[(٦)] بالفناء عن وجود السوى وحكم فيه فناء أهل الوحدة الملاحدة ، باعتباره يتضمن إلغاءَ مطلقاً لمعنى الثنائية الذي قرره القرآن الكريم وشدد عليه علماء الكلام ، وبه أيضاً يختلف عن مقام التوحيد الشهودي الذي يميز أشياعه بين طرفي الوجود ، وخاصة المردود منهم من حال المحو والاستهلال إلى حال الصحو[(٧)] الشعوري كما سنرى عند الكلام عن أبي يزيد البسطامي[(٨)]

يقول ابن تيمية « ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام ، فإنه كفر ظاهراً وباطناً ، وباطنه أقبح من ظاهره ، وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول ، وهم يسمون

---

(١) يــرى الجمهوريـــون أن الاختلاف بين الكائنات اختلاف مقدار وليس اختلاف نوع ، فالنوع واحد ، والطينة واحدة ، والوجود واحد، ولا ثنائية في الكون .
(٢) آسين بلاثيوس : ابن عربي ومذهبه ، ص١٦١ .
(٣) نهاية ص١٦٥ ، في نشأة الفلسفة الصوفية .
(٤) ابن عربي : فصوص الحكم ، فص إدريس ، ص٧٩ . وانظر الفتوحات المكية ، ج٢ ، ص٦٠٤ .
(٥) انظر : مبحث الفناء عند السلف في هذا الكتاب .
(٦) انظر : مبحث الفناء عند السلف في هذا الكتاب .
(٧) انظر : تعريف (الصحو) و (الفناء) في التمهيد .
(٨) انظر كتابي عن أبي يزيد البسطامي (أبو يزيد البسطامي حياته وآثاره للدكتور شوقي بشير) ط. دار الألباب سوريا .

أنفسهم المحققين ، وهؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقاً كما هو مذهب صاحب الفصوص[(١)] . ابن عربي وأمثاله : ابن سبعين[(٢)] وابن الفارض[(٣)] والقونوي[(٤)] والششتري والتلمساني[(٥)] وأمثالهم ممن يقول : إن الوجود واحد ، ويقولون : إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر بل يقولون هو المخلوق والمخلوق هو الخالق[(٦)] »[(٧)] .

---

(١) صاحب الفصوص (فصوص الحكم) هو ابن عربي ، محي الدين ، المتوفي سنة ٦٣٨هـ . وله الفتوحات المكية وغيرها من الكتب .

(٢) اسمه عبدالحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، ولقبه ابن سبعين ويلقب بقطب الدين وشيخ السبعينية ، وكنيته أبو محمد ، فيلسوف وفقيه وصوفي ، ولد في مرسية في إسبانيا سنة ٦١٣هـ وتوفي سنة ٦٦٩ .
انظر ترجمته في موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ، ج٣ ، ص١٠٦ .

(٣) ابن الفارض : اسمه عمر بن علي بن مرشد ، وكنيته أبو حفص وأبو القاسم ، ومعروف بابن الفارض ، لقبه سلطان العاشقين ، مصري المولد والنشأة والوفاة ، ولد سنة ٥٧٦هـ وتوفي في القاهرة في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأول سنة ٦٣٢هـ .
انظر : ترجمته في وفيات الأعيان ، المجلد الثاني ، ص٤٥٤ ، والزركلي : الأعلام ، ٥: ٢١٦ وما بعدها .

(٤) القونوي : محمد بن اسحق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي صوفي ، من تلاميذ ابن عربي ، تزوج ابن عربي أمه ورباه ولد بقونية وتوفي بها سنة ٦٧٣هـ وله مؤلفات ذكرها الزركلي في الأعلام . أنظر الأعلام ، ٦: ٢٥٤ .

(٥) التلمساني هو عفيف الدين ، سليمان بن علي بن عبدالله بن علي ، توفي سنة تسعين وستمائة ، وولد عام ٦١٦هـ وذكر ابن كثير في ترجمته أنه نسب إلى عظائم في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة . وذكر ابن كثير مصنفاته .
انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣: ٣٢٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ط. دار الشعب ١٩٦٩م المجلد العاشر، ص٤٤ ، ٤٥ .
وشذرات الذهب ، ج٥ ، ص٤١٢ ، ٤١٣ .

(٦) الرسائل والمسائل ، ص٤٠ ، وما بعدها .

(٧) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، (١٥٥ - ١٦٦) .

الفصل الثاني من كتاب
« نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها »

للدكتور عرفان عبدالحميد[١]

أبو يزيد البسطامي وفكرة الفناء

أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم شروسان ، من أهل بسطام ، صوفي فارسي الأصل ، كان جده شروسان مجوسياً أسلم وحسن إسلامه . يقول عنه القشيري: « كانوا ثلاثة أخوة: آدم وطيفور وعلي ، وكلهم كانوا زهاداً عباداً ، وأبو يزيد كان أجلهم » ووصفه أبو نعيم في الحلية قائلاً: « هو التائه الوحيد ، الهائم الفريد ، تاه فغاب ، وهام فآب ، غاب عن المحدودات إلى موجد المحسوسات والمعدومات ، فارق الخلق وافق الحق »[٢] .

واختلف الرواة في أبي يزيد وأحواله ن فمنهم من رآى فيه العبد الزاهد ، والصوفي الملتزم بأوامر الدين وحدود الشرع ، يصحح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، ويزين ظاهره بالكتاب والسنة ، فروى عنه قوله « لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا إليه كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة »[٣] . وكان يقول: « لم أزل منذ ثلاثين سنة كلما أردت ذكر الله اتمضمض وإغسل لساني إجلالاً أن أذكره »[٤] وقيل فيه « لم يخرج من الدنيا حتى استظهر القرآن كله » . وقيل له مرة : بمَ وصلت ؟ فقال : ببطن جائع وبدن عار . وروى عنه أنه قال لصاحب له : قم بنا حتى ننظر إلى الرجل الذي شهر بالولاية ، وكان رجلاً مقصوراً مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة . فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه »[٥] .

---

(١) انظر : المرجع المذكور ، من ص١٦٧ إلى ص١٨٤ .

(٢) انظر : الفصل الأول من كتاب «أبو يزيد البسطامي حياته وآثاره» ط. دار الألباب ، سوريا ، ٢٠٠١ ، ففيه ترجمة كافية لحياة أبي يزيد . (طيفور) .

(٣) انظر كتاب «أبو يزيد البسطامي ، حياته وآثاره» للدكتور شوقي بشير ، المبحث الخاص بالكرامات .

(٤) وقــال أبو يزيد «غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبتي عنه ذكري إياه ، فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتى كأنه أنا» وقال ((كنت ثلاثين سنة أذكر الله ثم سكنت فإذا حجابي ذكري له)) وقال: ((طلبت الله ثلاثين سنة فإذا أنا ظننت أني أردته فإذا هو أرادني)) .
انظر : شطحات الصوفية للدكتور عبدالرحمن بدوي ، ص١٠٤ ، ١٠٨ .

(٥) نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها ، ص١٦٧، ١٦٨ نقلاً عن حلية الأولياء ٢٣/١٠ رقم ترجمة البسطامي ٤٥٨ .
وانظر السلمي ص٧٢-٧٤ والمناوي: الكواكب الدرية ٢٤٤/١ والبنهاني جامع كرامات الأولياء ٤٩/٢ دار صادر بيروت .

وخلافاً لهذه الصورة فقد رويت عنه أخبار وأقواله تخرجه عن دائرة الالتزام بالأحكام الشرعية والنظرة السنية الخالصة وتدخله في دائرة الغلو والإنحراف الفكري[١] المتمثل في دعوته إلى ما يشبه الحلول[٢] وإلى ما يقترب من أحصاب النزعة العدمية من ذلك قوله "سبحاني ما أعظم شأني" وقوله "إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون" وقوله "جزت بحراً وقف الأنبياء بسواحله" وغير هذا مما يدل على فكرته في الفناء أو ما يعرف في اصطلاح الصوفية بالمحو والاستهلاك يقول نيكلسون: « ولو أننا افترضنا صحة الأقوال التي ينسبها فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء لعددناه من غلاة القائلين بوحدة الوجود الداعين إلى رفع التكاليف الدينية ، مبشراً بمذهب ابن منصور الحلاج .. ولكن ليس من العسير أن نعرف أي الأقوال التي ينسبها إليه المترجمون له صحيح ، وأيها مخترع ، وقد أشار إلى ذلك عبدالله الأنصاري الهروي (ت ٤٨١هـ) عندما قال: "إن كثيراً من الأكاذيب قد انتحل باسم أبي يزيد البسطامي مثل قوله صعدت إلى السماء وضبت قبتي بإزاء العرش" .

ولم يترك البسطامي أي أثر مكتوب ، إلا أن ابن أخيه أبا موسى عيسى بن آدم ، عرّف الشيخ الجنيد البغدادي بمقالات أبي يزيد ، فترجمها الجنيد إلى العربية وأصحبها بشروح لا يزال قسماً منها محفوظاً في كتب الصوفية مثل كتاب اللمع للسراج الطوسي[٣] ، وأشار إلى بعض شطحاته التي جمعها السهلكي في كتاب النور[٤] وأبو القاسم القشيري في رسالته[٥] ، وفريد الدين العطار في تذكرة الأولياء وغيرهم . وإلى أبي يزيد تنسب الطريقة المعروفة بالطيفورية[٦] .

---

(١) نشـــرت بحـــثاً منفصـــلاً عن آراء العلماء في شحطات البسطامي، وبينت فيه هذه المسألة بتفصيل خاصة رأى ابن تيمية الذي عد البسطامي إمام من أئمة الهدى لا يمكن أن يتعمد مخالفة الشريعة الإسلامية ، وإذا نسب إليه شيء مخالف للشريعة إما كذب عليه أو خطـــأ منه خاصة ما نسب إليه في كتاب «النور من كلام طيفور» أو يكون قال ما قاله في حالة سكر وجداني يصعب معه التمييز، غاية السكران فيه أن يعذر لا أن يتخذ ما يقوله منهجاً .

(٢) الحلول : الحلول العام أو الحلول المطلق وهو حلول في كل شيء ، وهذا قول طائفة من الجهمية المتقدمين فالله عندهم بذاته في كل مكان . والحلول الخاص أو المقيد هو حلول في بعض الأشخاص .

(٣) كتاب اللمع للسراج الطوسي من أهم كتب الصوفية ، وقد تحدث عنه ابن تيمية في فتاويه .

(٤) كـــتاب الـــنور (نشر هذا الكتاب ضمن كتاب شطحات الصوفية للدكتور عبدالرحمن بدوي) وأشار إلى كتاب النور من كلام طيفور للسهلكي ، ابن تيمية في فتاويه .

(٥) الرســـالة القشيرية ، وهي من أهم كتب الصوفية ، وقد تحدث عنها ابن تيمية في كتبه خاصة كتاب الكلمات النقيات أو الكلمات السنيات الذي حققه الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم تحت عنوان «الاستقامة». وقد بين ابن تيمية في فتاويه أن القشيري من أئمة الهـــدى، ويأتيه الخطأ من جهة عدم الاهتمام بالسند ، وهو في هذا الناحية ليس من أمثال الفضيل بن عياض ، الذي هو من رجال الدرجة الأولى ولا يأتيه الخطأ من هذه النواحي أو من ناحية عدم الحفظ ، فهو من الأئمة الحفاظ .

(٦) تكـــلم عن الطيفورية الهجويري في كتابه كشف المحجوب ودكتور شوقي بشير عبدالمجيد في كتابه عن أبي يزيد البسطامي ، حياته وآثاره .

فلسفة الفناء[١] :

مع أن بعض المصادر الصوفية ربطت فكرة الفناء بأبي سعيد الخراز المتوفي سنة ٢٨٦هـ* ، فهو في رأي البعض أول من تكلم في علم الفناء والبقاء إلا أن الثابت موضوعياً هو أن أبا يزيد البسطامي كان أول داعية في الإسلام لفكرة الفناء ، وكان بهذا الاعتبار ممثلاً "لمرحلة انتقال خطيرة بين التصوف غير الفلسفي والتصوف الفلسفي القائم على القول بوحدة الوجود"[٢] ويرى الباحثون في التصوف الإسلامي أن الفكرة من تأثيرات العقلية الآرية القديمة ، فربط أكثرهم بين فكرة الفناء والنرفانا الهندية وفكرة التأمل المؤدي فيها إلا الاستغراق في الواحد والاتحاد به . يقول كولد تسيهر : « إن نظرية الصوفيين في فناء الشخصية هي التي تقترب وحدها من فكرة الجوهر الذاتي (أتمان) إذ لم تكن تتفق معها تماماً ، ويطلق الصوفيون على هذه الحالة لفظ الفناء أو المحو والاستهلاك »[٣] .

ويقول نيكلسون : « الفكرة الصوفية في فناء الذاتية في الوجود الكلي ، هي عندي بلا ريب من أصل هندي ، ولعل ممثلها العظيم أبو يزيد البسطامي قد تلقاها عن شيخه أبي علي السندي » ثم يستطرد متحفظاً فيضيف القول: « ولسنا نوحد الفناء والنرفانا من كل وجه لأن كلا الاصطلاحين يدل على فناء الشخصية ، بل إن النرفانا سلبية خالصة ، والفناء يصحبه البقاء ، أي الحياة الخالدة في الله »[٤] .

أما زيهر فقد ذهب إلى أن الربط بين الفناء والنرفانا لا تحتاج إلى برهان ، معتمداً في ذلك على قول لأبي يزيد جاء فيه : « صحبت أبا علي السندي فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وكان يعلمني التوحيد والحقائق صرفاً » فالنص - في نظره - لا يفهم منه سوى أن أبا يزيد كان يعلم السندي الفروض الدينية باعتباره حديث عهد بالإسلام ، مقابل تلقيه عنه علم الحقيقة والفناء الذي لم يكن على علم به .

---

(١) نقلاً عن كتاب نشأة الفلسفة الصوفية ، ص١٦٩ .

* قال أبو سعيد الخراز : علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى ، ثم يبدو باد من قدرة الله تعالى فيرية ذهاب حظه من اله تعالى إجلالاً لله، ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ويبقى رؤية ما كان من الله لله ، ويتفرد الواحد الصمد في أجريته ، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء – التعرف لمذهب أهل التصوف – .

(٢) التصوف الثورة الروحية في الإسلام للدكتور أبو العلا عفيفي ط ١ ، ١٩٦٣م ،.ص٢٢٥ . ونحن نختلف مع أبي العلا عفيفي في هذه المسألة ، فالبسطامي لم يقل بوحدة الوجود .

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام ، ط. ٢ ، ص١٦٢ ، (كولدزيهر) .

(٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون ص٧٥ ، وانظر كتابه (الصوفية في الإسلام) ترجمة نور الدين شريبة ، ص٢٢ . وانظر : نشأة الفلسفة الصوفية ، ص١٧٠، ١٧١ .

وقد أنكر جمع آخر من المستشرقين والباحثين هذا الترابط، ومنهم الأستاذ آربري الباحث الحجة في الدراسات الصوفية، الذي أخطأ - في مقال له نشر في العد الخامس من مجلة مدرسة اللغات الشرقية والأفريقية - الدعوى ورفضها. وأشار آخرون إلى أن زيهر قد أساء فهم النص فلفظ "الفرض" الوارد فيه له مدلول مخصوص عند الصوفية يفيد الالتزام بأدب الدين وحدوده لا معنى "الواجب" الديني المتمثل في الفروض التي لا يسع المسلم غير القيام بها. وحاول هؤلاء أن يلتمسوا للفكرة أصلاً إسلامياً يتمثل في محاولة البسطامي تقليد المعراج النبوي وصياغته "معراجه الروحي"[١] ووصوله إلى مقام المكاشف والمشاهدة على غراره..

وقبل استعراض مذهب البسطامي في الفناء، والتعرف على عناصره الأجنبية والإلامية، تحسن الإشارة إلى مضمونه عند الصوفية عموماً. والحق فإن أقوال الصوفية تباينت وتشعبت في تعريفه وتوضيح مبانيه ومعالمه. يقول الكلاباذي: « الفناء هو أن تفنى الحظوظ (أي ذهاب الوعي والشعور الإدراك) فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز (أي بين عالم الحق وعالم الخلق) وهو فناء عن الأشياء كلها، شغلاً بما فني به ... والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محظوظاً فيما لله عليه، مأخوذاً عما له، وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل، وهو العصمة ... والبقاء الذي يعقبه، هو أن يفنى عما له ويبقى بالله »[٢]، ومقصود الكلاباذي أنه حينما يرتبط الفاني بالخالد، لا يبقى للفاني وجود فلا يسمع أو يرى سوى الله، وعندما يبلغ هذا المقام، يكون - كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفي - زمانه "الديمومة" ومكانه "اللانهاية" وسماؤه "الهوية" وشجرة منتهاه "الأحدية"[٣]. وهو في هذه الحال أن عرف نفسه

---

(١) معراج أبي يزيد، من المسائل التي دار حولها جدل وقد اعتمد من تحدث عن معراجه على أقوال أبي يزيد في هذا الباب. ومن هذه الأقوال ما هو رؤية منامية في الذكر بالإسم المفرد وليست شطحه. جاء في كتاب «تهذيب الأسرار» للخركوشي والذي حققه الأستاذ بسام بارود ونشره المجمع الثقافي بأبو ظبي ١٩٩٩م، ص٣١٧ أن أبا يزيد قال « رأيت في المنام كأني رفعت إلى السماء فاجتمعت الملائكة عليّ فقالوا: يا أبا يزيد تعال حتى نذكر الله عز وجل، فقلت: لساني ليس، فرفعت إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة إلى أن رفعت السماء السابعة، فقال الملائكة لي: تعال حتى نذكر الله تعالى، فقلت: لساني ليس. فقالوا متى يكون لك لسان تذكر الله تعالى به؟ قلت: حتى يشتغل أهل النعيم بالنعيم وأهل الجحيم بالجحيم، ثم يعطيني ربي عز وجل لسان أهل السموات وأهل الأرض، فأقوم بين يدي العرش وأقول بلسان الأبدية في أبد الأبدية: (الله).

انظر أيضاً: الدكتور أحمد ناجي القبيسي، فريد الدين عطار، وكتابه منطق الطير، ص٥٣٥، ٥٣٦.

وانظر: نشأة الفلسفة الصوفية للدكتور عرفان، ص١٧١.

وانظر: مجلة المركز الإسلامي لندن، ١٩٥٥، رأي أبي العلا عفيفي من رأي ابن عربي من المعراج الصوفي.

(٢) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٩٢ (نشرة آربري، ١٩٣٣).

(٣) أبو العلا عفيفي، المصدر السابق، ص٢٢٥، سئل أبو يزيد: « كيف أصبحت؟ قال: لا صباح ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تأخذه الصفة، وأنا لا صفة لي ». وسأله رجل: إني سمعت أنك تعبر إلى المشرق والمغرب في ساعة. فقال: يكون هذا، لكن -

فهو هو ، وهو متحد ربه ، ولكنه اتحاد عيان ومشاهدة ، لا اتحاد أعيان ، فشرط الفناء : تلاشي شخصية الإنسان وانعدام شعوره بوجوده ، ومقتضاه : زوال الحجب المادية - المتمثلة في العالم الحسي - التي تفصل الصوفي السالك عن الله تعالى . فإذا زالت الحجب ، ودنا من الله تعالى ، ذهبت أنيته وصار الفهم عنه تعالى غذاءه ، ومجالسته ومحادثته أنسه ، وذلك هو البقاء الذي ينشده الصوفي بعد فناء وجوده المادي وتحرره من ظلمه الطبع ، وينتهي إلى حال يبدو فيه غريق "توحيد الشهود" لا يدري ما الشريعة ولا الدين ، ولا يعرف رسماً من رسوم الظاهر ، لأن الوحدة الإلهية ، تبدو له في صورة "ذات مقدسة" يهيم في جمالها ، ويتعشق كمالها ، ويفنى في وجودها ، إذا نطق لا ينطق إلا بحبها ، وإذا أبصر لا يبصر إلا جمالها ، وإذا سمع لا يسمع إلا حديثها ، وإذا تأمل لا يتأمل إلا فيوضات أنوارها أنه أبداً : فيها ، وبها ، ومعها ، ولها ، ومنها وإليها[١] . ويصور لنا ابن ذكرى هذا المقام فيقول: « أما ظلمه الطبع (المادي) فقد أذهبها تجلي الحقيقة وامتحاؤه عند غلبه شهوده ، كامتحاء القمر في نور الشمس لدنُوه منها ، ودخوله تحت ساطع نورها ، فكذلك يمتحي الوجود الوهمي ، وهو الطبع البشري ، في الوجود الحقيقي ، عندما تمحي أوصافه بظهوره وتجلى نوره ، فعند ذلك يقع لمن حصل في هذه الحالة ، ما يقع من الكلمات ، (الشطحات) المؤذنة بالاتحاد ، كما قال أبو يزيد : "سبحاني ما أعظم شأني" ، فلما رجع لحسه ، قال : "الحق سبّح نفسه على لسان عبده"[٢] . وهو ما يعبر عنه العطار : بفناء الجزئي في الكلي ، ويمثل "البقاء" الذي يتبع الفناء لا محالة: "بزيت المصباح الذي يحترق فيستحيل دخاناً اسود ، فيخرج عن زيتيه ولكنه يبعث النور"[٣] . إنها عملية غريبة فائقة ، يفنى وجود العبد المعنوي خلالها في بحر الوجود الحقيقي ، ويتسامى الوجود الإنساني المحدود في أثنائها إلى سماء الوجود الإلهي اللامحدود : من غير أن تحدث هذه العملية الغريبة الفائقة أي تغيير في حقيقة الذات الإلهية المطلقة وكمالها اللانهائي ، ولكن التغيير كل التغيير : هو ما يحصل للإنسان في هذا الموطن الشريف : « أنه الآن إنسان رباني ، وقد كان من قبل إنساناً فقط »[٤] . يقول الإمام القشيري : « من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ، ولا رسماً ولا طللاً ، يقال أنه فني عن الخلق وبقي بالحق » ثم هو يميز مراحل ثلاث في السلوك إلى

- هـذا لـلمؤمن عناء . إنما المؤمن من الجوهر ، ان يطلع فيكون المشرق والمغرب بين يديه ، فيتناول من حيث شاء (شحطات الصوفية، ص١١١، ١١٢) .

(١) الدكتور عثمان يحيى: نصوص تاريخية خاصة بنظرية التوحيد في التفكير الإسلامي ، ضمن كتاب «الكتاب التذكاري» محي الدين بن عربي ، في الذكرى المئوية الثامنه لميلاده ، ١٩٦٩ ، ص٢٣٥ .

(٢) شطحات الصوفية ، ص٢٠ .

(٣) فريد الدين العطار : منطق الطير ، البيتان ٣٩٧٤ - ٣٩٧٥ (نشرة الدكتور أحمد ناجي القيسي ، ص٣٤٨) .

(٤) انظر : الدكتور عثمان يحيى ، المصدر نفسه ، ص٢٣٤ .

الفناء: الأول: فناء الصوفي عن نفسه وصفاته ، ببقائه بصفات الحق ، والثاني: فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق ، والثالث: فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق »[(١)] ، وهذا المقام هو ما يعرف عند القوم ويصطلحون عليه "بمقام جمع الجمع"[(٢)] : حيث الاستهلاك بالكلية في الله وحيث يختفي نهائياً شعور العبد بذاته ويفنى في المشاهد فينسى نفسه وما سوى الله فلو قلت له من أين ؟ وأين تريد ؟ لم يكن له جواب غير قوله (الله)[(٣)] . يقول البسطامي :

أشار سري إليك حتـــــى	**فنيتُ عني ودمت أنـــــت**
محوت اسمي ورسم جسمي	**سألتَ عني فقلتُ أنـــــت**
فأنت تسلو خيال عينـــي	**فحيثما درت كنت أنـــــت**

فالصوفي ما دام يرى الأشياء والأكوان ووجوده المادي والمعنوي ، فهو في مقام "التمييز والفرق"، لأنه يرى الموجودات ، ثم إذا رآها بالله فهو في مقام "جمع الجمع" ، أو الاستغراق التام والمحو الكامل ، وهو مقام اللاوعي ، حيث يفنى السالك في بحر الكل فينفصل بسرّه عمّا سوى الله ، فلا يرى غيره ولا يسمع إلاّ منه . يقول البسطامي : « للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره ، وغُيبت آثاره بآثار غيره » . « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح مني فيّ : يا من أنا أنت ! فقد تحققت بمقام الفناء في الله » . « منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتي فصرت اليوم مرآة نفسي ، لأنني لست الآن من كُنْتُه » وفي قولي "أنا" و "الحق" إنكار لتوحيد الحق لأنني عدم محض لأنه هو الذي يتكلم بلساني ، أما أنا فقد فنيت[(٤)] .

وهكذا فإن هذه العملية الغريبة الفائقة التي تنقل الصوفي السالك إلى بحر اللانهاية والوجود المطلق ، تحتوي على عناصر وتتضمن مراحل أشار إليها الأستاذ نيكلسون ، يمكن إجمالها فيما يلي[(٥)] :

١- التحول في النفس من الناحية الخلقية وذلك بذهاب شهواتها ورغباتها ، فالصوفية يرون أن فناء الصفات والأفعال المذمومة التي هي وليدة الهوى والشهوة ، نتيجة لبقاء الصفات والأفعال الحميدة التي تقابلها ، « ولأنهم يرون أن الصفات المحمودة لا تحصل إلا بعد ذهاب الصفات المذمومة

---

(١) القشيري : الرسالة ، ص٣٦- ٣٧ .

(٢) ابن عربي : اصطلاح الصوفية ، ضمن رسائل ابن عربي ، حيدر آباد ١٣٦١هـ .

(٣) السراج : اللمع ، ص٤٩٩ ، وانظر : الفتوحات المكية ، ٢/٥١٦ (الباب ٢٢٢) .

(٤) فريد الدين العطار : تذكرة الأولياء ، ص١٧٠-١٦٨ (عن نيكلسون : في التصوف الإسلامي ، ص٢٤) .

(٥) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ، ص١٠١ .

سموأ ذهاب المذمومة بالفناء والمحور، وحصول المحمودة بالإثبات والبقاء»[١]، يقول السراج: «ومعنى الفناء والبقاء (من الناحية السيكولوجية) في أوائله : فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد ببقاء رؤيا عناية الله تعالى في سابق العلم »[٢] . ويقول القشيري : « فكذلك إذا واظب (أي الصوفي) على تذكية أعماله ببذل وسعه ، مَنَّ اله عليه بتصفية أحواله ، بل بتوفية أحواله . فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال أنه فني عن شهواته . فإذا فني عن شهواته بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته ، ومن زهد في دنياه بقلبه، يقال فني عن رغبته : فإذا فني عن رغبته فيها ، بقي بصدق إنابته ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر وأمثال هذه من رعونات النفس ، يقال فني عن سوء الخلق »[٣] .

٢- الفناء عن كل ما يدرك بالحس ، وعن كل ما يخطر بالعقل ، وعن كل فعل وكل شعور وذلك بحصر القلب في التأمل في الله : ومعنى حصر القلب في الله : تركيز التأمل في الصفات الإلهية .

٣- تعطيل الحياة العقلية الواعية ، ويبلغ الصوفي خلاله إلى أرقى درجات الفناء ، عندما يفنى عن فنائه : أي عندما ينقطع شعوره بحال فنائه وإدراكه إياه ن وهنا يقال : إن العبد استولى عليه سلطان الحق فلا يشهد شيئاً سواه . وهذه الحالة كما يقول الإمام الغزالي : إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة "فناء" بل "فناء الفناء" لأنه فني عن نفسه وفني عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ، ولا بعدم شعوره بنفسه . ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه . وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق به بلسان المجاز "اتحاداً" وبلسان الحقيقة "توحيداً"[٤] ، تلك هي العناصر المؤدية في اجتماعها إلى الفناء ، أما مراحله التي تضمنتها النصوص التي أوردناها ، فهي :

١- حالة اليقظة العادية والطبيعية ، وهي حالة الشعور والوعي التي يتمتع بها الناس جميعاً ، في أثناء يقظتهم ، فهي حالة عقلية وحسية ، يشعر الصوفي خلالها بنفسه ويميز بين

---

(١) ابن خلدون : شفاء السائل في تهذيب المسائل ، ص٤٤ .

(٢) السراج ، أبو نصر : اللمع ، ص٢٨٤ . وانظر ابن عربي : الفتوحات (الباب ٢٢٠) ٢/٥١٢ .

(٣) القشيري : الرسالة ، ص٣٦ . يقول الجرجاني في (التعريفات) : « الفناء سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة . والفناء فناءان : أحدهما : ما ذكرنا ، وهو بكثرة الرياضة . والثاني : عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو الاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق » ، وانظر اليافعي : نشر المحاسن الغالية ، ص٣٩٦- ٣٩٩ ، هامش جامع كرامات الأولياء .

(٤) مشكاة الأنوار ، ص٥٧ – ٥٨ .

وجوده ووجود الخالق تعالى ، أنه حال التفرقة والأثنينية والتنزيه والفصل بين عالم الألوهية وعالم العبودية : عالم ما سواه ، وما عداه .

٢ - حالة عادية ، وغير طبيعية ، وفيها يفقد الصوفي وعيه وإدراكه في أثناء سورة الوجد والوله والشوق العظيم ، فيغيب بوارد إلهي قوي عن جميع صفاته وآثاره الحسية والعقلية ، فيسقط عنده التمييز بين المخلوق والله تعالى ، وهي حالة السكر والغيبوبة واللاوعي والشطحات .

٣ - حالة غير عادية وغير طبيعية ، وفيها يرتفع الوجد الصوفي إلى ذراه وأعلى درجاته ، مع وعي وقدرة على التمييز بين عالم الحق وعالم الخلق ، فيشعر الصوفي ببقائه بعد فنائه ، ولكنه بقاء بالصفات الألهية والأعمال الألهية ، لا بصفاته وأعماله ، فهو يظهر بينا لناس بهذه الصفات والأعمال ، ولكنه يحتفظ لنفسه بالصلة الشخصية التي تربطه بالحق ، ويشعر أنه متحد بالله (اتحاد عيان لا أعيان) مع مخالفته تعالى للحوادث ، ويظهر بين الخلق في صورة الولي ، الإنسان الإلهي ليظهر لهم الحقيقة ويقيم الشرع على وجهه الصحيح ، وهذه الحالة هي : حالة الصحو والحضور .

تلك هي فكرة الفناء في خطوطها العريضة ومضمونها الروحي . ترى ما الجوانب السلبية والإيجابية فيها ، وما مدى صلتها بالتصور الإسلامي الصحيح ، قرباً وبعداً . والحق ، فإننا إذا فهمنا "الفناء" بمعنى "التوحيد الشهودي" ، صار بهذا المدلول يشكل لوناً من ألوان التوحيد الروحي التي عرفها الفكر الصوفي في الإسلام ، ومحاولة من الصوفية استبدال "التوحيد التجريدي العقلي" الذي حدد معالمه ومبانيه وأصوله المتكلمون ، بتوحيد من لون آخر هو حصيلة إدراك ذوقي وجداني يكتشفه الصوفي في ذرى مجاهداته الروحية التي تنتهي عادة بالمشاهدة . ذلك أن المتكلمين حرصاً منهم في الحفاظ على الوحدة المطلقة للذات الإلهية انتهوا - ولا سيما رجال مدرسة الاعتزال - إلى تجريد الذات الإلهية عن الصفات ، لأن إثباتها حقائق موضوعية ، ومعاني زائدة على الذات ، يؤدي في نظرهم إلى إدخال الكثرة في صميم الذات الإلهية الواحدة المقدسة[1] . وحملهم نفي الصفات الأزلية ، بدوره إلى القول بخلق القرآن ، فتصوروا الكلمة الأزلية ، ظاهرة وجودية ، تتكافأ مع جملة الظواهر الكونية ، في أنها جميعاً مخلوقة ، لأن القول بأزلية القرآن يفضي إلى تعدد القدماء ، وهذا يعارض مبدأ الوحدانية في أساسه. وكذلك أنكر المعتزلة : إمكان رؤية الله في الآخرة ، لما يلزم عن ذلك من تحديد للذات الإلهية في نطاق الزمان والمكان ومتعلقات الجسمية . هكذا انتهت أنظارهم إلى أوهية معراة عن كل صفة فأحالوا العبد - كما يقول الفخر الرازي - إلى عبادة "العدم". إن الصفات في أخص معانيها ، هي مجالات الكمالات الإلهية ، ومسارح بهائها وأنوارها إن في عالم الأرواح أو في عالم

---

(١) انظر : دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص٢٣١ (كتاب دكتور محسن) .

المواد . فإذا عطلت عنها الذات المقدسة الجناب ، فماذا يتبقى منها وما صلات الإنسان الحقيقة بمثل هذه "الألوهية" المعراة عن كل صفة ؟ ما صلاته بها في تأملاته وعباداته ، في نسكنه وصلواته ، في أشواقه ورغباته ، في محياه ومماته ؟ ثم كيف تفسر ظواهر الوجود الحادثة ، في أشواقه ورغباته ، في محياه ومماته ؟ ثم كيف تفسر ظواهر الوجود الحادثة ، على وجه الدقة ؟ كيف يتصور صدورها عن "ذات" بريئة مجردة أو إسنادها إليها ؟ تلك هي مأساة الإعتزال في الحقيقة وتلك هي نتائج موقفهم السلبي تجاه مشكلة الصفات(١) . فجاءت محاولة الصوفية سلوكاً يتجاوز هذا التصور الكلامي التجريدي والعقلي المسرف ، وإدراكاً للوحدة المطلقة ، لا كذات مجردة بريئة عن كل وصف، بل في صورة "ذات مقدسة" يهيم الصوفي في جمالها ويعمل من أجل الوصول إليها برغبة عارمة وحب خالص وشوق شديد ، ويرنو للاتحاد بها ، اتحاد عيان ومكاشفة لا اتحاد حلول وأعيان ، فنظرية الفناء - بهذا المعنى - رد فعل عنيف - داخل الإسلام نفسه - للموقف الكلامي الذي أحال الألوهية إلى صورة مجردة عن كل حيوية . هذا هو الجانب الإيجابي من النظرية ، من حيث أنها محاولة ترتفع بالإيمان من مستوى العقل المجرد ، إلى رحاب المجاهدة الروحية والتسامي بالإرادة الإنسانية إلى إرادة الله تعالى ، حيث يتحقق الكمال للإنسان في أسمى صورة ومعانيه . أما من الناحية السلبية ، فإن فكرة الفناء ، كتصور ذوقي شهودي للوحدة الإلهية ، قد ينتهي وغالباً ما انتهى ، إلى تصورات غالية غريبة عن الإسلام ، بل ومناقضة لمعاقل الشريعة والدين . لقد أدى الفناء بأهله أحياناً كثيرة إلى تصورات منحرفة ، يمكن إجمالها فيما يأتي :

أولاً : السقوط في دائرة العدمية ، بإسقاط التكاليف وتجاوز الأمور الشرعية ، فزعم بعض من وصل مقام الفناء « أن المحظور على غيرهم من المحرّمات مباح لهم ، إذا بلغوا درجة الولاية » وأباح آخرون « اطراح الشرائع ، وزعموا : (أن الإنسان ليس عليه فر ولا تلزمه عبادة إذا وصل إلى معبوده) ، وتأوّل البعض قوله تعالى : ﴿ واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين ﴾ ، قائلاً : إذا وصلت إلى مقام اليقين فقد سقطت عنك العبادة »(٢) . وتجاوز الحرمات وإسقاط التكاليف ، مردّه إلى أن الحقيقة الإلهية : لا تظهر لهؤلاء في مقام الشهود في مظهر الإرادة الإلهية والمتجسدة في الوحي وهدي النبوة ، وفي صورة "أمر ونهي" و "شريعة وقانون" يخضع لها العبد وتتلاشى إرادته فيها ، بل تتجلى لصاحب المقام - كما سبق بيانه - في صورة "ذات مقدّسة" يهيم بها ، ويعشق جمالها ، ليس إلا . والحق ، فإنه من الصعب أن نتصور - كما يقول نيكلسون - : « كيف يمكن للصوفي المستغرق في فنائه إلى هذا

---

(١) انظر الدكتور عثمان يحيى : المصدر السابق ، ص٢٣٠ .

(٢) الأشـعري : مقالات الإسلاميين ، ص٣٠ ، الفخر الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ن ص٧٤ ، ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، ٣٥٤ وما بعدها ، الغزالي الإحياء ، ج٣ ، ص٣٤٨ .

الحدّ أن يقوم بأدائه واجباته الشرعية »[١] . وهكذا تغدو العبادات الرسمية المشروعة ، بل وحتى العبادة غير المقيدة المنصوص عليها في الشرع - كالذكر مثلاً - حجباً وأستاراً تقطع سبيل الوصول والاتصال بين المحب وحبيبه ، فلا بدّ أن تسقط هذه القواطع والموانع ليتجاوز السالك منطقة الحب ليخترق الغشاء المحيط به من أجل النفاذ إلى الذات الإلهية ، فيكون فاعلاً عن الله ، أت أن الله صار فاعلاً به ، فيكون أداة تنفيذ المشيئة الإلهية .

وهذه النزعة العدمية التي تصاحب الشهود والمكاشفة ، أمر عرفته الأديان الأخرى أيضاً ، ففي البرهمية ، يقول البرهمي : في اللحظة التي تتجلى أو تنبعث فيها المعرفة في نفسي ، حيث أصبح متحداً مع براما ، لا أكون مكلفاً بعمل أو فريضة ، وعند الغنوصيين عموماً : التأمل في الكائن العلى يجعل الأعمال الظاهرة سواء لا نتيجة لها ، وهذا هو الأصل في رفض كل الأمور الشرعية والنواميس الخلقية حتى الوصايا العشر تصبح محتقرة ، لأن اتحاد الروح بالوحدانية العظمى ترفعه إلى ما فوق الأشكال الدينية المحدودة[٢] . وهذا يفسر لنا اختلاف الرواة في وصف حال أبي يزيد البسطامي ، من حيث التزامه بالشرع أو تجاوزه لنواميسه تبعاً لاختلاف حاله بين الصحو والسكر ، يقول الجنيد البغدادي : « الحكايات عن أبي يزيد مختلفة ، والناقلون عنه فيما سمعوه مفترقون ، وذلك والله أعلم لاختلاف الأحوال الجارية عليه فيها ، ولاختلاف المواطن المتداولة بما خص فيها ، فكل يحكي عنه ما ضبطه من قوله ويؤدي ما سمع من تفصيل مواطنه »[٣] .

ثانياً : إن مقام الفناء حالة تتراوح فيه تصورات السالك بين قطبين متعارضين ، هما التنزيه والتجريد ، من جهة ، والحلول والتشبيه ، من جهة أخرى .

فمع تصريح الصوفية بأن الفناء هو حال اتحاد عيان لا أعيان ، فإن الأمر غالباً ما يتجاوز حدوده فيسقط صاحبه في دائرة الحلول ودعوى الاتحاد ، فالمقام دقيق يتضمن أكثر من مزلة ، وفي تصوير هذا الأمر يقول الإمام الغزالي : « ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال » (مشاهدة صورة الملائكة وأرواح الأنبياء) إلى درجات يضيق عنها نطاق لانطق ، فلا يحاول معبّر أن يعبّر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه ، وعلى الجملة ، ينتهي الأمر إلى

---

(١) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ، ص١٠٢ .

(٢) كولد تسيهر : العقيدة والشريعة الإسلامية ، ص٣٥٤ ، الهامش : ١٠٣ .

(٣) الطوســي : اللمع ، ص٤٥٩- ٤٦٠ . وانظر السلمي ، ص٢٤٨ (ترجمة أبو علي الجوزجاني) حيث يقول عن البسطامي وحاله : « رحم الله أبا يزيد !! له حاله ، وما نطق به . ولعله تكلم بها على حد الغلبة أو حال السكر » .

قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ »[١] . وحذر القشيري والسراج من دعوى الحلول وأنكروا أن يكون الفناء بمعنى فناء الذات ومحوها من الوجود ، وحلول الإلهية محلها ، وأوضحا بأنه ينبغي ألا يتضمن معنى سوى إزالة ما يتعلق بأفعال العبد وصفاته ، وأخلاقه الذميمة ، وغيبة عن ذات العبد والوجود الخارجي ، ليس إلا — يقول العطار محذراً - : « لا تكن حلولياً أيها الفضولي ، إذ ليس الرجل المستغرق حلولياً »[٢] . ومع كل هذا التحذير والاحتراس فإن الأقوال التي صدرت ، عن البسطامي ، ومن بعد عن الحلاج ، صريحة في دعوى الحلول والاتحاد فطالما هاج البعض وصاح شاطحاً[٣] ، "أنا الله" أو "أنا هو" أو "أنا الحق" ، إلى غير هذه الأقوال التي مهما التمس الصوفية لها من تأويل ، صريحة في الكفر ، دالة على الحلول تنتهي إلى القول بقيام الحادث في القديم تعالى ، وجمع للرّب والعبد في مرتبة واحدة وإلغاء للبينونة المطلقة التي أقامها القرآن الكريم بين عالم الربوبية وعالم الخلق ، وكل ذلك خرق لحدود الله تعالى وتجاوز

---

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ، دراسة وتحقق الدكتور عبدالحليم محمود ، ص١٢٤ . وانظر : مشكاة الأنوار ، ص٥٧ حيث يقول : « العارفون – بعد العروج إلى سماء الحقيقة – اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق لكن منهم من كان له هذه الحال عرفاناً علمياً ، ومنه من صار له ذلك حالاً وذوقاً ، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة . واستوفيت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه . ولم يبق فيهم متسع لا : لذكر غير الله ، ولا : لذكر أنفسهم أيضاً ، فلم يكن عندهم إلا الله . فسكروا سكراً دفع دونه سلطان عقولهم فقال أحدهم : «أنا الحق» وقال آخر : «سبحاني ما أعظم شأني» ، وقال آخر : «ما في الجنة إلا الله» . وكلام العشاق يطوى ولا يحكى ، فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه ، عرفوا أن ذلك : لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد » .

(٢) فريد الدين العطار ، منطق الطير ، ص٣٤٨ (أسرار تامة ، البيت : ١٤٨٢) ، تحقيق الدكتور أحمد ناجي القيسي .

(٣) الشطح : كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادراً أن توجد من المحققين (ابن عربي : اصطلاح الصوفية) قصد بها وصف وجد فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغلبته ، (اللمع ، ص٤٥٣) . إنها تعبيرات ظاهرها مستشنع مردود ، وباطنها في نظر أهل التأويل صحيح ومستقيم . وقد حاول الصوفية – ومن يلتمس لأهل الشطح المعاذير – صرف هذه الألفاظ عن معانيها الدالة على الكفر إلى معان أخرى مستساغة ، باعتبار أنها وردت على ألسنتهم في حالة الوجد والاستغراق في الله . وقد رد الغزالي الشطح وأنكره ، فيقول في الإحياء (باب الكلام على السجع والشعر والشطح ، ١/٣٦-٣٧) : « وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية أحدهما : الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع اه تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب – فيقولون : مثل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقول «أنا الحق»، وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: «سبحاني ما أعظم شأني» وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ... الصنف الثاني من الشطح: كلمات غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن ضبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه – وهذا هو الأكثر . وأما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام : إلا أن يشوش ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه » . ومع ذلك فإن من الصوفية من رأى في هذا الكفر أعلى درجات اليقين والإيمان . يقول صاحب المثنوي (ترجمة كفافي ، ص٢٢٢ ، البيت: ١٥٧٩) ، وزلته (أي الفاني في الله) خير عند الحق من الطاعة .. وكل إيمان ممزق خلق أمام كفره .

على حرماته ، وهتك لأستار التنزيه . يقول ابن تيمية : « ولكن هذه الحال - حال الغيبة - تعتري كثيراً من السالكين يغيب أحدهم عن شهود نفسه ، وغيره من المخلوقات وقد يسمون هذا فناء ، واصطلاماً وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات ، لا أنها في أنفسها فنيت ، ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول ، فأحدهم يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ويستغرق في ذلك فلا يبقى مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويغني ذكره وشهوده لما سواه فيتوهم أن الأشياء قد فنيت ، وأن نفسه فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله »[1] .

---

(١) الرسائل والمسائل ، ج١ ، ص١٥٤ .

خاتمـــــــــة

لقد اتضح من خلال النظر في مصطلح الفناء عند بعض علماء السلف الأوائل ، ومقارنة فهمهم مع فهم بعض المتأخرين من أنصار السنة المحمدية وبعض تلاميذ المستشرقين ، أن بعض المتأخرين أطلقوا الأحكام العامة ، وهاجموا هذا المصطلح ، ولم يميزوا بين فناء كامل محمود وفناء مذموم ، وذموا جميع أنواعه ، بينما أطلق بعض الأساتذة المعاصرين من تلاميذ المستشرقين الأحكام العامة أيضاً ، فدافعوا عن المذموم وجعلوه كالمحمود ، بل جعلوا المرفوض كالمحمود لا فرق بينهما . والموقف الصحيح هو الموقف الوسط بين الطرفين ، الموقف الذي يجعل الفناء أنواعاً ، منها الفناء الكامل المحمود المطلوب ، الذي أطلقت عليه عدة تعريفات جامعة مانعة من دخول أنواع الفناء الأخرى خاصة فناء الملاحدة ، الفناء عن وجود السوى .

واتضح لنا أيضاً أن المسلم يجب أن يعتمد في حديثه عن الفناء على كتابات ابن تيمية وابن قيم الجوزية وكتابات الجنيد بن محمد - سيد الطائفة الصوفية - وشيخ الجنيدية ، وعلى أقوال الجيلاني شيخ القادرية ، ويبتعد عن كتب المستشرقين وتلاميذهم ، وكتب بعض أنصار السنة المعاصرين من أمثال الدكتور محمد جميل غازي ، ومحمد حامد الفقي وعبدالرحمن الوكيل ، وسميح عاطف الزين ، وغيرهم . وظهر لنا - من خلال البحث - أن مصطلح الفناء ليس مصطلحاً خاصاً بالصوفية ، فهو لا يختلف في مدلوله مع المصطلحات الأخرى التي تحمل المعاني نفسها ، فالفناء عن عبادة السوى هو توحيد الألوهية ، وهو الإيمان الموقف الكلي الشامل لجميع مناحي الحياة كما هو في مصطلح بعض الشيوخ المعاصرين ، وهو مطلوب القائلين و المرددين "كل شيء لله" وهو الفناء الكامل النبوي ، الديني ، الشرعي ، وهو حال النبيين وأتباعهم « وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه . فهذا تحقيق توحيد الله وحده لا شريك له ، وهو الحنيفية ملة إبراهيم » . « ويدخل في هذا أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله ، فلا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، فهذا هو الفناء الديني الشرعي الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه »[١] .

---

(١) انظر المبحث الخاص بالفناء عند السلف .

هذا جهدي وهو جهد مقل ، أدعو الله أن يغفر لي ما وقعت فيه من خطأ وزلل ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ ، كما أدعوه (سبحانه) أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، والحمد لله رب العالمين .

بروفيسور شوقي بشير عبدالمجيد

العين مايو ٢٠٠١م

الإمارات العربية المتحدة

جامعة الإمارات

ملاحــق الكتاب

الملحق الأول

ذكر من غلط في فناء البشرية

قال الشيخ الطوسي رحمه الله : « أما القوم الذين غلطوا في فناء البشرية : سمعوا كلام المتحققين في الفناء ، فظنوا أنه فناء البشرية ، فوقعوا في الوسوسة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هي القالب ، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفاً بصفات الإلهية . ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرق بين البشرية وأخلاق البشرية ؛ لأن البشرية لا تزول عن البشر ، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود ، ولا لون البياض عن الأبيض ، وأخلاق البشري تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق ، وصفات البشرية ليست هي بين البشرية .

والذي أشار إلى الفناء : أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك . وكذلك فناء الجهل بالعلم ، وفناء الغفلة بالذكر ، والذي يتوهم أنه ذهاب النفس وزوال التلوين عن العبد وقتاً دون وقت ، وذهاب البشرية فقد غلط وجهل عن وصف البشرية ؛ لأن التغيير والتلوين من صفة البشرية ، فإذا زال عنها التغيير والتلوين فقد تغير الآن عن صفتها وتلوين عن معناها ؛ لأنها لم تتغير ولم تتلون فقد تغير وتلون عن صفتها ، والله أعلم »[1] .

---

(١) اللمع للطوسي ، ص٥٤٣ .

الملحق الثاني

قول الطوسي في أصحاب الشطحات

قال الطوسي في كتابه (اللمع) عن أصحاب الشطحات : « ... وبعد فإن الله تعالى فتح على قلوب أوليائه وأذن لهم بالإشراف على درجات متعالية ، وقد جاد الحق تعالى على أهل صفوته والمتحققين بالتوجه والانقطاع إليه بكشف ما كان مستتراً عنهم قبل ذلك من مراتب صفوته ودرجات أهل الخصوص من عباده . فكل واحد منهم ينطق بحقيقة ما وجد ويصدق عن حاله ، ويصف ما ورد على سره بنطقه ومقاله ، لأنهم لا يرون حالاً أعلى من حالهم حتى يحكموها ، فإذا أحكموها فعند ذلك يسمون بهممهم إلى حالة أعلى من ذلك حتى تنتهي الطرق والأحوال والأماكن إلى غاية ونهاية ، هي أعلى النهايات وغاية الغايات .

قال الله تعالى : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ ، وقال : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ وقال : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في أوليائه ، ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم وما يُشكِلُ على فهمه من كلامهم ، لأنهم في أوقاتهم متفاوتون ، وفي أحوالهم متفاضلون ومتشاكلون ومتجانسون بعضهم لبعض ، ولهم أشكال ونظراء معروفون ، فمن بات شرفه وفضله على أشكاله بفضل علمه وسعة معرفته ، فله أن يتكلم في عللهم وإصابتهم ونقصانهم وزيادتهم ، ومن لم يسلك سبلهم ، ولم ينح نحوهم ، ولا يقصد مقاصدهم ؛ فالسلامة له في رفع الإنكار عنهم ، وأن يكل أمورهم إلى الله تعالى ، ويتهم نفسه بالغلط فيما ينسبه إليهم من الخطأ . وبالله التوفيق[١] .

---

(١) اللمع للطوسي ، ص٤٥٤ .

الملحق الثالث

باب في ذكر من غلط في فنائهم عن أوصافهم

قال الشيخ رحمه الله : وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم : إنهم عند فنائهم عن أوصافهم ، دخلوا في أوصاف الحق ، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤد بهم ذلك إلى الحلول ، أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام . وقد زعم أنه سمع عن بعض المتقدمين ، أو وجد في كلامه : أنه قال في معنى الفناء عن الأوصاف والدخول في أوصاف الحق . فالمعنى الصحيح من ذلك : أن الإرادة للعبد وهي من عند الله ، عطية ، ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول في أوصاف الحق : خروجه من إرادته ودخوله في إرادة الحق وبمعنى أن يعلم أن الإرادات هي عطية من الله تعالى وبمشيئته شاء وبفضله جعل له ما يطعيه ذلك قطعة عن رؤية نفسه حتى ينقطع بكليته إلى الله تعالى : وذلك منزل من منازل أهل التوحيد .

وأما الذين غلطوا في هذا المعنى ، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق ، وهذا كله كفر ، لأن الله تعالى لا يجل في القلوب ، ولكن يحل في القلوب الإيمان به ، والتوحيد له ، والعظيم لذكره ، بمعاني والتحقيق والتصديق .

ولا فرق في ذلك بين الخاص والعام ، غير أن للخاصة معنى يتفردون به ، وهو مفارقتهم دواعي الهوى ، وإفناء حظوظهم من الدار وما فيها ، وخلوص أسرارهم بمن آمنوا به . وسائر العوام محجوبون عن هذه الحقائق بانقيادهم للهوى ومطاوعتهم للنفوس ، فهذا هو الفرق بين الخاص والعام في هذا المعنى وبالله التوفيق[١] .

---

(١) اللمع لأبي نصر السراج ، ص٥٥٢ .

الملحق الرابع

رأي الشاطبي في الاقتداء بصاحب الحال

قال الشاطبي في كتابه الموافقات في أصول الشريعة عن صاحب الحال والاقتداء به : « ... فأما الاقتداء بأفعاله حيث يصح الاقتداء بمن ليس بصاحب حال فإنه لا يليق إلا بمن هو ذو حال مثله ، وبيان ذلك أن أرباب الأحوال عاملون في أحوالهم على إسقاط الحظوظ ، بالغون غاية الجهد في أداء الحقوق إما لسائق الخوف أو لحادي الرجاء ، أو لحامل المحبة . فحظوظهم العاجلة قد سقطت من أيديهم بأمر شاغل عن غير ما هم فيه ، فليس لهم عن الأعمال فترة ، ولا عن جد السير راحة ، فمن كان بهذا الوصف فكيف يقدر على الاقتداء به من هو طالب لحظوظه مشاح في استقصاء مباحاته ؟ وأيضاً فإن الله تعالى سهل عليهم ما عسر على غيرهم ، وأيدهم بقوة منه على ما تحملوه من القيام بخدمته حتى صار الشاق على الناس غير شاق عليهم ، والثقيل على غيرهم خفيفاً عليهم ، فكيف يقدر على الاقتداء بهم ضعيف المنة عن حمل تلك الأعباء ، أو مريض العزم في قطع مسافات النفس ، أو خامد الطلب لتلك المراتب العلية ، أو راض بالأوائل عن الغايات ؟! فكل هؤلاء لا طاقة لهم باتباع أرباب الأحوال ، وإن تطوقوا ذلك زماناً فعما قريب ينقطعون والمطلوب الدوام ، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملوا))[1] . وقال : ((أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل))[2] . وأمر بالقصد في العمل وأنه مبلغ وقال : ((إن الله يحب الرفق في الأمر كله))[3] . وكره العنف والتعمق والتكلف والتشديد خوفاً من الانقطاع فإذا كان الاقتداء بأرباب الأحوال آيلاً إلى مثل هذا الحال لم يلق أن ينتصبوا منصب الاقتداء وهم كذلك ، ولا أن يتخذهم غيرهم أئمة فيه اللهم إلا أن يكون صاحب حال مثلهم وغير مخوف عليه الانقطاع فإذ ذاك يسوغ الاقتداء بهم .. وأما الاقتداء بأقواله إذا استفتى في المسائل فيحتمل تفصيلاً وهو أنه لا يخلو إما أن يستفتي في شيء هو فيه صاحب حال أو لا ، فإن كان الأول جرى حكمه مجرى الاقتداء بأفعاله فإن نطقه في أحكام أحواله من جملة أعماله ، والغالب فيه أنه يفتي بما يقتضيه حاله ، لا بما يقتضيه حال السائل ، وإن كان الثاني ساغ ذلك لأنه إذ ذاك كأنما يتكلم من أصل العلم لا من رأس الحال[4] ... .

---

(١) أخرجه في التيسير عن الستة بلفظ ((خذوا من الأعمال)) وفي رواية للثلاثة والنسائي ((عليكم من الأعمال)) وفي كلتا الروايتين (لا يمل) وفي رواية مسلم (لن يمل) .

(٢) بقية الحديث السابق ، أخرجه في التيسير عن الستة .

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب .

(٤) الموافقات في أصول الشريعة ، ط دار المعرفة للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٠م ، ج٤ ، ص٢٨٤-٢٨٦ .

فهرس المصادر والمراجع

١. الأربعين في شيوخ الصوفية ، للماليني ، تحقيق الأستاذ الدكتور عامر حسن صبري ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان ، بيروت ، ص١ . ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٢. الاستقامة، لابن يتمية، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، نشر وتوزيع مؤسسة قرطبة .

٣. الإسراء والمعراج ، لمحمد متولي الشعراوي ، ط٢ ، ١٩٧٤م ، دار الشروق.

٤. اصطلاحات الصوفية ، للكاشاني ، تحقيق الدكتور عبدالخالق محمود ، ط دار المعارف، مصر ، ١٤٠٤ هـ.

٥. أصول الملامتية وغلطات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي ، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الفاوي .

٦. الإلهام عند المسلمين بعامة والإباضية بخاصة ، بحث للأستاذ الدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، مجلة دراسات دعوية ، مجلة محكمة ، جامعة أفريقيا العالمية ، العدد الأول ، يناير ١٩٩٩م .

٧. إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني ، ط. المكتبة الثقافية ، بيروت .

٨. البداية والنهاية ، لابن كثير ، ط. مطبعة السعادة ، مصر ١٣٥١هـ ، و ط٢ بيروت ، ١٤١١هـ .

٩. أبو بكر الشبلي ، حياته وآثاره وفكره ، للدكتور شوقي بشير ، ط ١ ، الخرطوم ، يوليو ١٩٩٩م .

١٠. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، ب.ت .

١١. التحذير من البدع ، للشيخ عبدالعزيز بن باز ، ط. الرياض ، مكتبة المعارفة ، ١٤٠٢هـ .

١٢. تاريخ التصوف الإسلامي للدكتور عبدالرحمن بدوي .

١٢. تاريخ التصوف الإسلامي للدكتور قاسم غني ، ترجمة عن الفارسية صادق نشأت ، راجعه أحمد خانجي والدكتور محمد مصطفى حلمي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠م .

١٤. التصوف الإسلامي ، لفرج يوسف أحمد ، دار أسامة للنشر والتوزيع بالأردن ، ١٩٩٨م .

١٥. التصوف في تراث ابن تيمية ، للطبلاوي ، ط مصر ١٩٨٤م .

١٦. التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ، للدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر ، ط إسكندرية ١٩٨٠م .

١٧. تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء ، لعبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق خير الدين علي ، ط. دار الوعي ، بيروت ، ب.ت .

١٨. تمهيد قواعد الإيمان وتقييد شوارد مسائل الأحكام والأديان من جوابات الشيخ أبي محمد سعيد ابن خلفان الخليلي ، ط. سلطنة عُمان ، وزارة التراث ١٤٠٧هـ .

١٩. التنسك الإسلامي ، للدكتور محمد غلاب ، الكتاب الثامن والستون ، المجلس الأعلى للشئون الدينية بمصر .

٢٠. تهذيب الأسرار ، للخركوشي ، تحقيق بسام محمد بارود ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ١٩٩٩م .

٢١. الجانب العاطفي في الإسلام ، لمحمد الغزالي ، ط. دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٩٩٨م .

٢٢. الحركة الصوفية في الإسلام ، للدكتور محمد محمد علي أبو ريان ، ط. مصر ، الإسكندرية .

٢٣. الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية ن لوجيه أحمد عبدالله ، ط. ١٩٨٩م ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية .

٢٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ، ط٣ دار الكتاب العربي ، بيروت .

٢٥. دائرة المعارف الإسلامية ، لجماعة من المستشرقين ، النسخة العربية إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد وآخرون ، ط دار الشعب ، مصر ، ١٩٦٩م .

٢٦. دراسات في التصوف الإسلامي ، للدكتور محمد جلال أبو الفتوح شرف ، ط دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية .

٢٧. الرسالة القشيرية ، للقشيري .

٢٨. رسائل الجنيد في التصوف الأخلاق ، تحقق الأستاذ الدكتور عبدالحليم محمود .

٢٩. روح المعاني ، للألوسي ، ط دار الفكر ١٣٩٨هـ .

٣٠. ساعة مع العارفين ، لسعيد الأعظمي الندوي ، ط ١ دار الاعتصام ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٣١. سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي ، للأستاذ الدكتور عبدالحليم محمود . ب.ت .

٣٢. سلوة الأحزان بما روي عن ذوي العرفان ، لابن الجوزي ، ط منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ب.ت.

٣٣. سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت .

٣٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، ط المكتب التجاري ، بيروت ، ب.ت .

٣٥. شطحات الصوفية ، للأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي .

٣٦. الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية ، للدكتور سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني ، ط١ المملكة العربية السعودية ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م . توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع .

٣٧. صفة الصفوة لابن الجوزي .

٣٨. طبقات الصوفية ، لأبي عبدالرحمن السلمي ن تحقيق نور الدين شربية ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ مطبعة المدني / مصر .

٣٩. الطبقات الكبرى ، للشعراني ، وبهامشه كتاب الأنوار القدسية في بيان آداب الصوفية . ب.ت .

٤٠. العقائد المشتركة بين الحركات الباطنية في أندونيسيا ، رسالة دكتوراه مخطوطة على الآلة الكاتبة ، جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٩٨م ، إعداد الطالب الأندونيسي مصري محشر بدين ، إشراف الأستاذ الدكتور شوقي بشير .

٤١. العقيدة الطحاوية ، لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط مكتبة البيان ١٩٨١م .

٤٢. الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية ، للشيخ عبدالقادر الجيلاني ، ط مصطفى الباب الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

٤٣. الفتاوى ، لابن تيمية ، ط١ ، الرياض ١٣٨١هـ .

٤٤. الفرق بين الفرق ، لعبد القاهر البغدادي ، تحقيق محمد محي الدين ، نشر مكتبة محمد علي صبيح ، ب.ت .

٤٥. الفناء ، تعريفه وأقوال العلماء فيه ، بحث للدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، مجلة دراسات دعوية ، جامعة أفريقيا العالمية ، عدد يوليو ١٩٩٩م .

٤٦. الفناء عن شهود السوى وما يحدث فيه من شطحات ، بحث للدكتور شوقي بشير بعدالمجيد .

٤٧. في التصوف ، للشيخ محمد المبارك عبدالله ، ط وزارة الشئون الدينية والأوقاف ، السودان ١٣٨٧هـ

٤٨. كشف المحجوب ، للهجويري ، تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل .

٤٩. اللمع ، لأبي نصر السراج الطوسي ، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور، ط دار الكتب الحديثة ، مصر ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

٥٠. لمحات من التصوف وتاريخه ، للسائح علي حسين ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ١٩٩٤م .

٥١. مدخل إلى التصوف الإسلامي ، لأبي الوفاء الغنيمي التقتزاني (أ.د) دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٩م .

٥٢. معاجم المصطلح الصوفي في ضوء البحث المعجمي الحديث ، للدكتور مصطفى إبراهيم علي ، ط ١٩٨٩م .

٥٣. المعراج والرمز الصوفي ، ط١ دار الباحث بيروت ، ١٤٠٢ هـ .

٥٤. معرفة الأسرار ، للحكيم الترمذي ، تحقيق محمد إبراهيم الجيوشي ، دار النهضة العربية ، سوريا ١٩٧٧م .

٥٥. موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ، للدكتور أحمد محمد بناني ، ط جامعة أم القرى ، ١٩٩٩م .

٥٦. مدارج السالكين ، لابن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الناشر دار الرشاد الحديثة ب.ت .

٥٧. مذكرات سائح في الشرق العربي ، لأبي الحسن الندوي ، ط٢ مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٥هـ .

٥٨. نظرات في التصوف ، للشيخ الحفيان السماني ، ط الخرطوم السودان .

٥٩. نظرية الاتصال عند الصوفية ، لسارة بنت عبدالمحسن بن عبدالله بن جلود ، ط جدة ١٩٩١م .

٦٠. نقد ابن تيمية للتصوف ، للأستاذ الدكتور شوقي بشير عبدالمجيد ، ط دار الفكر ، الخرطوم ١٩٨٧م .

٦١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ط دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧م ، و ط. دار صادر ، بيروت ١٩٧٢م .

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة